لمحات من:
محاسن الإسلام

إعداد

محمد بن علي بن إبراهيم العرفج

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

للتواصـــل مـــع المؤلـــف، وإبـــداء المقترحـــات والملحوظات، وطلب الكميات للتوزيع الخيري، من خلال العنوان الآتي:
E-mail: arfaj11@hotmail.com
جوال: ٠٥٥٥٢٠٤١٤٦

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، نستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد:

فلقد امتن الله على عباده ببعثة النبي الخاتم محمد ﷺ ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وجعل رسالته خاتمة الرسالات ﴿وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وأكمل لنا الدين وأتم النعمة بهذه الشريعة السمحة الخالدة إلى قيام الساعة ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] «بعثت بالحنيفية السمحة»[1].

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه (٢٠٩/٧)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (رقم ٢٣٣٦).

ومن مزايا هذا الدين أنه دين الفطرة والعقول السليمة الذي لو عرض على حقيقته وصفائه لانقادت له النفوس طائعة مستسلمة، وأنه صالح لكل زمان ومكان، وجاء بما يحقق مصالح البشر وسعادتهم في الدنيا والآخرة، واشتمل على كل الصفات الحسنة والأخلاق الجميلة؛ فهو دين الرحمة والرفق، دين اليسر والسهولة، وغير ذلك من الأوصاف الجميلة والنعوت الحسنة.

ولذا فإن من واجب كل مسلم الدعوة إلى هذا الدين كل بحسب قدرته واستطاعته وعلمه امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (104)﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وقوله ﷺ: «بلغوا عني ولو آية»[1]، فهو يستحق منا أن نبذل في سبيل تبليغه والدفاع عنه الكثير من الوقت والجهد والمال.

ومن وسائل الدعوة إلى هذا الدين تبيين محاسنه الكثيرة الدنيوية والأخروية والتي قد تخفى على كثيرين حتى من معتنقيه وهذا – بإذن الله – يؤدي إلى دخول غير المسلمين فيه، وإلى تمسك المسلم واعتزازه بدينه.

وقد كان لي – بحمد الله – مشاركة في هذا المجال، فأصل هذا الكتاب

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٦١).

هـو حلقـات أسـبوعية أذيعـت في إذاعـة القـرآن الكـريم بالمملكـة العربيـة السعودية، رغبت في جمعها في هذا الكتاب رجاء الأجر والمثوبة من الله تعالى فالدال على الخير كفاعله، ورغبة في أن يكون في رصيدي من الحسنات من يقرأ به فيسلم أو يزداد تمسكه بدينه.

أسـأل الله أن يرزقنـا الإخـلاص في القـول والعمـل وأن يجنبنـا الزلـل والخطل إنه سميع قريب مجيب الدعاء.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

كتبه

محمد بن علي العرفج

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

الإسلام دين الفطرة

من محاسن الإسلام أنه دين الفطرة، يقول رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[1] ذلك أن الإسلام هو دين الفطرة السليمة، وما عدا ذلك فهو طارئ ودخيل، ولو ترك الناس بصفاء فطرتهم وسلامة أصلهم ما اختاروا غير الله ربًّا، ولأخلصوا له العبادة والتوجه والولاء دون سواه، لاسيما وقد أخذ الله عليهم عهداً وأقرهم عليه وحذرهم من التنكر له.

قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وقال تعالى: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾ [الروم: ٣٠] وإلى الحنيفية هدى الله نبيه إبراهيم عليه السلام عندما

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٣٨٥)، ومسلم (رقم ٢٦٥٨).

راح يبحث بفطرته السليمة عن ربه، فهداه الله إلى اليقين.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ۝٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ۝٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٧٩ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٨٠ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٨١﴾ [الأنعام: ٧٥ – ٨١].

وفي قصة الصحابي الجليل سلمان الفارسي رضي الله عنه مثالاً للباحث عن الحق بفطرته السليمة الصافية، يقول سلمان رضي الله عنه: كنت فارسياً من أهل أصبهان من قرية يقال لها «حيان»، وكان أبي رئيس القرية، وأغنى أهلها غنى، وأعلاهم منزلة، وكنت أحب خلق الله إليه منذ ولدت، ثم ما زال حبه لي يشتد ويزداد على الأيام، حتى حبسني في البيت خشية عليَّ كما

تحبس الفتيات.

وقد اجتهدت في المجوسية حتى غدوت قيم النار التي كنا نعبدها، وأنيط بي أمر إضرامها حتى لا تخبو ساعة في ليل أو نهار، وكان لأبي ضيعة عظيمة تدر علينا غلة كبيرة، وكان أبي يقوم عليها ويجني غلتها.

وفي ذات مرة شغله عن الذهاب للقرية شاغل، فقال: يا بني إني قد شغلت عن الضيعة بما ترى فأذهب إليها وتول اليوم عني شأنها، فخرجت أقصد ضيعتنا، وفيما أنا في بعض الطرق مررت بكنيسة من كنائس النصارى، فسمعت أصواتهم فيها وهم يُصلون، فلفت ذلك انتباهي، لم أكن أعرف شيئاً عن أمر النصارى أو أمر غيرهم من أصحاب الأديان، لطول ما حجبني أبي عن الناس في بيتنا، فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم لأنظر: ماذا يصنعون.

فلما تأملتهم أعجبتني صلاتهم ورغبت في دينهم، وقلت: والله هذا خير من الذي نحن عليه، فو الله ما تركتهم حتى غربت الشمس، ولم أذهب إلى ضيعة أبي، ثم إني سألتهم أين أصل هذا الدين قالوا في بلاد الشام.

ولما أقبل الليل عدت إلى بيتنا فتلقاني أبي يسألني عما صنعت؟ قلت: يا أبت إني مررت بأناس يصلون في كنيسة لهم فأعجبني ما رأيت من دينهم، وما زلت عندهم حتى غربت الشمس، فذعر أبي مما صنعت، وقال: أي

بني ليس لك في ذلك الدين خير، دينك ودين آبائك خير منه، قلت: كلا والله إن دينهم لخير من ديننا. فخاف أبي مما أقول، وخشي أن أرتد عن ديني، وحبسني بالبيت ووضع قيداً في رجلي، ولما أتيحت لي الفرصة بعثت إلى النصارى أقول لهم: إذا قدم عليكم ركب يريد الذهاب إلى بلاد الشام فأعلموني.

فما هو إلا قليل حتى قدم عليهم ركب متجه إلى الشام، فأخبروني فاحتلت على قيدي حتى حللته، وخرجت معهم متخفياً، حتى بلغنا بلاد الشام، فلما نزلنا فيها قلت: من أفضل رجل من أهل هذا الدين. قالوا: الأسقف راعي الكنيسة، فجئته فقلت: إني قد رغبت في النصرانية، وأحببت أن ألزمك وأخدمك، وأتعلم منك وأصلي معك. فقال: أدخل فدخلت عنده وجعلت أخدمه.

ثم ما لبثت أن عرفت أن الرجل رجل سُوء، فقد كان يأمر أتباعه بالصدقة، ويرغبهم في ثوابها، فإذا أعطوه منها شيئاً لينفقه في سبيل الله، أكنزه لنفسه، ولم يعط الفقراء والمساكين منه شيئاً، حتى جمع سبع قلال من ذهب، فأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته منه.

ثم ما لبث أن مات، فاجتمعت النصارى لدفنه، فقلت لهم: إن صاحبكم كان رجل سوء يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها فإذا جئتموه بها

أكنزها لنفسه، ولم يعط المساكين منها شيئاً. قالوا: من أين عرفت ذلك؟ قلت: أنا أدلكم على كنزه. قالوا: نعم، دلنا عليه. فأريتهم موضعه فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهباً وفضة، فلما رأوها قالوا: والله لا ندفنه. ثم صلبوه ورجموه بالحجارة، وهكذا الخيانات واحدة تلو الأخرى.

وكان آخرهم لما حضرته الوفاة قلت له: إنك تعلم من أمري ما تعلم فإلى من توصي لي، وما تأمرني أن أفعل. فقال: يا بني والله ما أعلم أن هناك أحداً من الناس بقي على ظهر الأرض متمسك بما كنا عليه. ولكنه قد قرب زمان يخرج فيه بأرض العرب نبي يبعث بدين إبراهيم، ثم يهاجر من أرضه إلى أرض ذات نخل بين حرتين، وله علامات لا تخفى، فهو يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، وبين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فأفعل.

ثم وافاه الأجل فمكثت بعده بعموريه زمناً إلى أن مر بها نفر من تجار العرب من قبيلة «كلب» فقلت لهم: إن حملتموني معكم إلى أرض العرب أعطيتكم بقراتي هذه وغنيمتي. فقالوا: نعم نحملك. فأعطيتهم إياها، وحملوني معهم.

حتى إذا بلغنا وادي القرى غدروا بي، وباعوني لرجل من اليهود، فالتحقت بخدمته، ثم ما لبث أن زاره ابن عم له من بني قريظة، فاشتراني

منه، ونقلني معه إلى يثرب، فرأيت النخل الذي ذكره لي صاحبه بعموريه وعرفت المدينة بالوصف الذي نعتها به، فأقمت بها معه.

وكان النبي ﷺ حينئذٍ يدعو قومه في مكة، لكني لم أسمع له بذكر، لانشغالي بما يوجبه عليَّ الرق، ثم ما لبث أن هاجر الرسول ﷺ إلى يثرب، فو الله إني لفي رأس نخلة لسيدي أعمل فيها بعض العمل، وسيدي جالس تحتها إذ أقبل عليه ابن عم له، وقال له: قاتل الله بني «قيلة» والله إنهم الآن لمجتمعون بقباء على رجل قدم عليهم اليوم من مكة، يزعم أنه نبي.

فما أن سمعت مقالته حتى مسني ما يشبه الحمى. ولما كان المساء أخذت شيئاً من تمر كنت جمعته وتوجهت به إلى حيث ينزل الرسول، فدخلت عليه، وقلت له: إنه قد بلغني إنك رجل صالح، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة، وهذا شيء كان عندي للصدقة، فرأيتكم أحق به من غيركم، ثم قربته إليه، فقال لأصحابه: كلوا. وأمسك يده فلم يأكل، فقلت في نفسي: هذه واحدة.

ثم انصرفت وأخذت أجمع بعض التمر فلما تحول الرسول إلى المدينة جئته، فقلت له: إني رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية أكرمتك بها، فأكل منها. وأمر أصحابه فأكلوا، فقلت في نفسي: هذه الثانية.

ثم جئت رسول الله ﷺ وهو ببقيع الغرقد، حيث كان يواري أحد أصحابه، فرأيته جالساً وعليه شملتان، فسلمت عليه، ثم استدرت انظر إلى ظهره، لعلي أرى الخاتم الذي وصفه لي صاحبي في عموريه، فلما رآني النبي أنظر إلى ظهره عرف غرضي، فألقى رداءه عن ظهره، فنظرت فرأيت الخاتم فعرفته، فانكببت عليه أقبله وأبكي، فقال رسول الله ﷺ: ما خبرك؟ فقصصت عليه قصتي، فأعجب بها وسره أن يسمعها أصحابه مني، فأسمعتهم إياها، فعجبوا منها أشد العجب، وسُروا بها أعظم السرور.

وهذه قصة إسلام سلمان رضي الله عنه وفيها العبرة وذلك أن الدين دين الفطرة: فطرة الله التي فطر الناس عليها.

الإسلام نظام شامل كامل مصلح للخلق

إن من محاسن الإسلام أنه نظام شامل كامل مصلح للخلق في أمور الدين والدنيا، فلقد بعث الله محمداً ﷺ وشرع له من الدين ما وصَّى به نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم، فهو أفضل الأديان وأحسنها وأنفعها للخلق، فقد أعطى كل ذي حق حقه، ففي مقام نظام العبودية جعل العبادة لله وحده لا شريك له، لأنه هو الخالق وحده، فيجب أن تكون العبادة له، وهو المحبوب المعظم لذاته سبحانه، فوجب أن يكون القصد والعمل له وإليه.

فالسجود والركوع والذبح على سبيل العبادة والتقرب لا يصح إلا لله، فمن سجد أو ركع أو ذبح لغيره تعظيماً وتقرباً إليه فهو كافر بالله ومشرك به، ومن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصارٍ، وفي مقام الحرب والسلم سماه الله تعالى سلماً لأنه متضمن للسلم، فلا عدوان ولا ظلم، لكن من قام في وجه الدين والدعوة إليه وجب قتاله، يقول تعالى: ﴿ **وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ** ﴾ [البقرة: ١٩٣]،

فالكافر وهو الكافر إذا أدى الجزية صاغراً ذليلاً ورضخ لأحكام الإسلام فإنه معصوم الدم والمال، يعيش في أمانٍ تحت ظل الإسلام وحماية المسلمين، وفي مقام القوة والدفاع عن الدين والنفس يأمر بالاستعداد وأخذ الحيطة والحذر والتيقظ والعمل على ما يغيظ الأعداء ويرهبهم، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وفي مقام الوحدة والصمود أمام العدو يأمر بالاتحاد والأخوة وعدم التفرق، ذلك لأن التفرق سلاح فتاك، يوجب خللاً للصفوف وتباين الأهداف والأغراض. وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال سبحانه محذراً عن الاختلاف ومبيناً أثره: ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٦].

فالوحدة الإيمانية الدينية هي الوحدة النافعة التي يجتمع أفرادها جماعات في الدفاع عن عقيدتهم والاشتراك في الدين والعقيدة هو أعظم مقومات الوحدة.

وقد شرع سبحانه للناس من الأمور ما تنعم به هذه الوحدة، فالصلوات الخمس جماعة في المساجد وحدة خاصة لأهل المحلة المقاربة، وصلاة الجمعة وحدة أهم منها لأهل البلد، ويوم عرفة وعيد النحر وحدة عامة للمسلمين من مشارق الأرض ومغاربها، مع ما في هذه الاجتماعات من المصالح العظيمة الأخرى.

وفي مقام المعاملة بين الخلق تظهر محاسن الإسلام، وذلك بإعطاء كل ذي حق حقه، فللنفس حق يجب أن تعطاه، وللأهل حق يجب بذله لهم، وللأصحاب حق يجب أن لا يحرموه، ولمن تعامله حق يجب أن تعامله به، فعامل غيرك بالصدق والبيان والوضوح عملاً بقول رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[1]، وإياك أن تعامله بالكذب والغش «فمن غشنا فليس منا»[2].

ومن محاسن الإسلام في مقام المعاهدات بينا وبين غيرنا يأمرنا الإسلام بالوفاء، وينهانا عن الغدر والخيانة، حتى الكفار إذا كان بيننا وبينهم عهد وجب علينا الوفاء به، فإن خفنا من غدرهم فإننا لا نخونهم، بل نخبرهم بأنه لا عهد بيننا وبينهم.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٣)، ومسلم (رقم ٤٥).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٠١).

وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأنفال: ٥٨] والإسلام يأمرنا بغير ما ذكر وبجميع مكارم الأخلاق جملة وتفصيلاً، وينهى عن مساوئ الأخلاق جملة وتفصيلاً.

ومن تأمل الإسلام حق التأمل وجده الدين الحق الكفيل بسعادة الدنيا والآخرة للأفراد والشعوب والحكومات، فهو الدين الذي يجب أن نتمسك به وندعو إليه.

كمال الإسلام ويسره وسهولته

إن من محاسن الإسلام أنه دين الرحمة ودين العدالة ودين العبادة والمعاملة، هدى الله به أقواماً عملوا به جملةً وتفصيلاً، وأضل عنه آخرين أعرضوا عنه، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٦].

إن الدين عند الله الإسلام، ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين، وإن الإسلام هو الاستسلام لله ظاهراً وباطناً استسلاماً تاماً لا تواني ولا كسل، وما أيسر ذلك على من يسره الله عليه.

إن الدين الإسلامي بريء من كل ما يصفه به أعداؤه، فهو دين الحق والعدالة والحرية الحقة، إنه دين اليسر والسهولة: دين السعادة والتقدم.

فمن استعرض أصول الشريعة وجدها سهلة ميسرة، فالإسلام مبني على خمسة أركان: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام

الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت الحرام لمن استطاع إليه سبيلاً.

وهذه الأركان كلها سهلة ميسرة وإصلاح وتهذيب، فشهادة أن لا إله إلا الله توحيد لله، وتجريد للقلب من التَّأله والعبادة لأحد سوى الله سبحانه، وحصر للعبادة لله رب العالمين، الذي خلقنا فسوانا وهدانا وغذانا بنعمه، إن بعض الناس هداهم الله إذا اشتغل بطاعة الله لا يصبر عليها إلا قليلاً مع قلق في نفسه وانشغال في قلبه، وإذا انشغل بدنياه أقبل عليها بقلبه وفكره واطمأن إليها واستراح بها، فهو كامل العبودية لدنياه وهواه، وناقص العبودية لمولاه.

وأما شهادة أن محمداً رسول الله فهي تجريد المتابعة له دون غيره من المخلوقين، فهو رسول رب العالمين، الذي كُلف بالرسالة إلى الثقلين الجن والإنس، فرسول الله ﷺ يسأل عن البلاغ، والأمة تسأل عن الاتباع، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ [الأعراف: ٦].

وأما الصلاة فما أيسرها وأسهلها، وما أنفعها للقلب والبدن والفرد والمجتمع، فهي صلة بينك وبين ربك، لا تأتيها إلا وأنت متطهر في ظاهرك وباطنك، فتقوم بين يدي ربك خاشعاً خاضعاً متقرباً إليه بما شرعه لك فيها من ذكرٍ وقراءةٍ وركوعٍ وسجودٍ وقيامٍ وقعودٍ، تسأله لدنياك وآخرتك، فهي

تنمي الدين، وتحط الذنوب، ويستعان بها على أمور الدين والدنيا، وتنهى عن الفحشاء والمنكر، قال تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ﴾[العنكبوت: ٤٥].

وأما الزكاة فهي جزء يسير تدفعه من مالك لسد حاجة إخوانك وإصلاح مجتمعك، ففيها تزكية المال، وتطهير النفس من البخل الذميم، وتطهير القلب من الذنوب والآثام، فالصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[التوبة: ١٠٣].

وأما الصيام فهو شهر واحد في السنة يذكرك بأعظم نعمة من الله عليك، شهر نزول القرآن يمتنع فيه المسلم عن شهوات النفس من طعامٍ وشرابٍ ونكاح: تقرباً إلى الله، وتقديماً لمرضاته مع ما فيه من الفوائد الدينية والجسمية والاجتماعية والطبية.

وأما الحج هو قصد بيت الله لإقامة شعائره وتعظيم حرماته، لا يجب في العمر إلا مرةً واحدةً على المستطيع، تحط به الذنوب والخطايا، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة، مع ما فيه من تعارف المسلمين في أقطار الدنيا واجتماعهم وتعليمهم وإرشادهم، هذه أصول الإسلام وأركانه، فهي شريعة الله وحكمه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[المائدة: ٥٠].

إن الإسلام مفخرة لأهله وعز وكرامة في الدنيا والآخرة، وبه التقدم الحسي والمعنوي، ومن تأمل ونظر تاريخ صدر الإسلام حينما كان المسلمون متمسكين بالإسلام ظاهراً وباطناً، ولم تغرهم الدنيا، ولم يغرهم بالله الغرور وجد العز والتمكين لهم على غيرهم.

كمال الإسلام ويسره وسهولته

تظهر محاسن الإسلام في تطبيقه والعمل به، فهو الكفيل بالنصر للأمة، فالله سبحانه قد وعد المؤمنين بالنصر والتأييد، ودفع عن الذين آمنوا كيد كل كفارٍ عنيدٍ، وذلك لمن حقق الإيمان بالله: قولاً وعملاً واعتقاداً، فإنه لا عزة ولا كرامة ولا انتصار إلا بالقيام بالدين وتحكيم الكتاب والسنة وتقديمهما على جميع النظم والقوانين، فإنه لا نظام أقوى من نظام الإسلام، ولا حكم أحسن من حكمه، لأنه حكم رب العالمين، العالم بما يصلح العباد في أمور دينهم ودنياهم، وفي أمور معاشهم ومعادهم.

فلا أحسن من تطبيق الإسلام في الأمور السياسية والاقتصادية والأحوال الاجتماعية والحقوق الشخصية والحدود الجنائية، فتطبيقه صلاح العالم في جميع الأحوال، وتوضيح ذلك: أنه لما كانت الأمة الإسلامية متمسكة بدينها، خاضعة لأحكامه، مقتنعة بتعاليمه وأهدافه، مطبقة لشرائعه في جميع الميادين كانت منصورة بنصر الله المبين. ظهرت أعظم دول العالم في ذلك الحين، واستولى الرعب على قلوب الأعداء المخالفين ثم لما تفرقت بها

الأهواء وتشتت فيها الأهداف والآراء ارتفعت الهيبة من أعدائهم، فسُلطوا عليهم من كل جانب، سُلطوا عليهم بحرب السلاح والإبادة، وسُلِّطُوا بتغيير النظم وإفساد الثقافة، فقد حاولوا وما زالوا يحاولون إلى يومنا هذا: أن يسير المسلمون في فلكهم، وفي قوانينهم وتشريعاتهم، التي بنوها على عقولهم القاصرة وآرائهم الفاسدة.

ذلك لأن كل رأي خالف الكتاب والسنة فإنه رأي فاسد لا خير فيه، وإن قدر أن فيه خيراً، فإن ضرره وشره فوق خيره أضعافاً مضاعفةً، فلقد غزانا الأعداء بقوانينهم، يريدون منا أن ندع أحكام الكتاب والسنة، التي صدرت من لدن حكيم عليم، العليم بمصالح العباد، الحكيم في شرعه، فلم يشرع إلا ما فيه الخير والرشد والعدل والسداد، الرحيم بخلقه، فلم يشرع لهم إلا ما فيه مصلحتهم في الحال والمآل، ولم ينههم إلا عما فيه مضرتهم في الحال والمآل.

إن أعداءنا إذا نجحوا من هذه الناحية فقد حازوا نصراً مبيناً، وذلك من وجهين:

الأول: أننا نصير عالةً عليهم، وتابعين لهم، بأخذ آرائهم وأفكارهم الفاسدة.

الثاني: أننا بذلك نترك تطبيق أحكام ديننا، التي لا انتصار لنا عليهم

إلا بتطبيقها والتزامها ظاهراً وباطناً.

وأما إفساد الثقافة، فإنهم أدخلوا على الثقافة الإسلامية ما يبعدها عن أهدافها وأغراضها، حتى أصبحت جافة هزيلة، وبذلك استولى الضعف على المسلمين، وتداعت عليهم الأمم، وصاروا غثاء كغثاء السيل، يجري بهم التيار قهراً، لا يملكون تقدماً ولا تأخراً، لو هبت عليهم الريح لمزقتهم.

ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها — فلو أن المسلمين تدبروا كتاب ربهم وسنة نبيهم محمد ﷺ، وعملوا بما فيها، وطبقوا ذلك على الأفراد والجماعات في جميع العبادات والمعاملات، لفتح الله عليهم بركات من السماء والأرض، ولنصرهم، ولقذف في قلوب أعدائهم الرعب، فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٤٠ — ٤١].

الإسلام هو اليسر والسماحة والسهولة

إن من محاسن الإسلام اليسر والسماحة، فهي سمة من سماته التي اختلف بها عما سواه من الأديان، إذ كان من حكمة بعث محمد ﷺ رفع الإصر والأغلال الواقعة بالأمم من قبلنا، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧].

والحرج ليس من مقاصد الشرع، واليسر من مقاصده، وهذا واضح في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، يقول سبحانه في سياق الامتنان على هذه الأمة: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ﴾ [الحج: ٧٨].

ويقول سبحانه في سياق بيان فريضة من فرائض الإسلام وهي الصيام ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ويقول سبحانه في سياق فريضة أخرى وهي الوضوء: ﴿ **مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [المائدة: ٦].

قال أبو بكر الجصاص رحمه الله: لما كان الحرج هو الضيق نفى عن نفسه إرادة الحرج بنا ساغ الاستدلال بظاهره في نفي الضيق وإثبات التوسعة في كل ما اختلف منه من أحكام السمعيات فيكون القائل محجوجاً بظاهر الآية.

والسنة النبوية المطهرة تدل على ذلك، ومنها ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه»(١)، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة»(٢).

وفي أسلوب المصطفى صلى الله عليه وسلم مع العصاة والمخالفين ما يؤيد ذلك، فعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٩)، ومسلم (رقم ٢٨١٦).

(٢) أخرجه أحمد (١/٢٣٦)، والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٢٨٧)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (رقم ١٦٠).

له فنزلت: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤﴾ [هود: ١١٤] فقال الرجل: يا رسول الله ألي هذه؟ قال: «لمن عمل بها من أمتي»(١)، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا وزنوا وأكثروا، فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن، ولو تخبرنا أن لِما عملنا كفارة فنزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ﴾ [الفرقان: ٦٨]، ونزلت ﴿۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر: ٥٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى النبي ﷺ برجل قد شرب، فقال: «أضربوه» قال أبو هريرة رضي الله عنه: فمنا الضارب بيده، والضارب بنعله، والضارب بثوبه، فلما انصرف قال بعض القوم: أخزاك الله فقال ﷺ: «لا تقولوا هكذا لا تعينوا عليه الشيطان»(٢)، وقد بوّب الإمام البخاري رحمه الله لهذا الحديث وأمثاله بقوله باب ما يكره من لعن شارب الخمر وأنه ليس بخارج من الملة.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٦٨٧)، ومسلم (رقم ٢٧٦٣).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٧٧٧، ٦٧٨١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء أعرابي فبال في المسجد، فتناوله الناس، فقال لهم النبي ﷺ: «دعوه، وأهريقوا على بوله سجلاً من ماءٍ، فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»[1]، فبين ﷺ أن عملهم في سب الرجل والوقوع فيه من باب التشديد المخالف لسماحة الدين ويسره.

وعن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه قال: بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله. فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: وأثكل أمياه ما شأنكم تنظرون إليَّ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم فلما رأيتهم يصمتونني لكني سكت، فلما صلى رسول الله ﷺ فبأبي هو وأمي! ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فو الله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني، ثم قال: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن»[2].

ليست هذه الأحاديث السابقة إلا صوراً عملية لبيان أسلوب النبي ﷺ في كيفية معاملة العصاة والمخالفين، وإلا فالدين كله شاهد على أن العاصي لا يعامل بالتكفير، وإما إن عوقب فأقيم عليه الحد فهو كفارة له

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٢٠)، ومسلم (رقم ٢٨٤).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٥٣٧).

وطُهرة، وتطهير للمجتمع، ومن ستر الله عليه وتاب، فهو إلى الله إن شاء غفر له وإن شاء عذبه.

فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ في مجلس، فقال: «بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً ولا تسرقوا ولا تزنوا» وقرأ هذه الآية كلها قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الممتحنة: ١٢] «فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله عليه إن شاء غفر له وإن شاء عذبه»[(١)].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لم يبعثني معنتاً ولا متعنتاً ولكن بعثني ميسراً»[(٢)].

وعلى وفق اليسر والتيسير جرت السنة العملية للرسول ﷺ فاتخذ اليسر منهجاً في حياته، فما خير بين أمرين إلا أختار أيسرهما ما لم يأثم[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٨)، ومسلم (رقم ١٧٠٩).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٤٧٨).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٦١٢٦)، ومسلم (رقم ٢٣٢٧).

وكان ﷺ آخذاً نفسه بالرفق داعياً إليه، فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا انتزع من شيء إلا شانه»(١)، ويقول ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف»(٢).

فكان عليه الصلاة والسلام ألطف الناس في دعوته، وأرفق الناس بالناس، وكان عليه الصلاة والسلام يأمر دعاته ورسله باليسر والتيسير، فقد قال ﷺ لمعاذ وأبي موسى لما بعثهما إلى اليمن: «يَسِّرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا»(٣).

وهذا التيسير هو التيسير الجاري على وفق الشرع والعدل لا على وفق الأهواء. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا»(٤).

وحكمة هذا اليسر الذي جاءت من الشريعة أن الله جعل هذا الدين دين الفطرة، وأمور الفطرة مستقرة في النفوس، سهل عليها قبولها، ومن

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٩٤).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٩٣).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٤٣٤١، ٤٣٤٢)، ومسلم (رقم ١٧٣٣).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٦٩)، ومسلم (رقم ١٧٣٤).

الفطرة النفور من الشدة والعنف، وقد أراد الله عموم هذه الشريعة ودوامها، فاقتضى ذلك أن يكون تنفيذها بين الأمة سهلاً، ولا يكون ذلك إلا إذا انتفى عنها العنف.

سهولة الإسلام وشموله لأنواع العبادات

إن من محاسن الإسلام سهولته وشموله لأنواع العبادات، ولقد جعل الله سبحانه الآجال مقادير للأعمار، وجعل هذه الأعمار مواقيت للأعمال، وكتب الفلاح لمن شغلها بالأعمال الصالحة، والخسارة كل الخسارة لمن فرط فيها، فأضاعها وشغلها بالأعمال السيئة.

وقد بين الله سبحانه أن عمل المؤمن لا ينقضي بانتهاء مواسم العبادة، وإنما ينتهي بالموت، لأن العمر كله محل للطاعة، وفي ذلك يقول سبحانه لنبيه ﷺ والأمة تبع له: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر: ٩٩]، فيجب على كل مسلم أن يعمر أوقاته بطاعة الله، وما يقربه إليه.

ومن محاسن الإسلام أن الله سبحانه قد سهل العبادات ويسرها غاية التيسير، وجعل للخير أبواباً ليلجها من للخير يقصد ويريد، فالصلاة مثلاً التي هي آكد أركان الإسلام بعد التوحيد: قليلة الكلفة، كثيرة الأجر، فهي خمس في الفعل، وخمسون في الميزان، مفرقة في أوقات مناسبة، حتى لا يحصل الملل للكسلان، وإذا أقامها المسلم في جماعةٍ كانت الصلاة مع

الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة.

وهذه النوافل التابعة للمكتوبات اثنتا عشرة ركعة: أربع قبل الظهر، وركعتان بعدها، وركعتان بعد المغرب، وركعتان بعد العشاء، وركعتان قبل صلاة الفجر، فمن صلاهن بنى الله له بيتاً في الجنة[1].

والأذكار خلف الصلوات المكتوبة: من سبح الله دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، وحمد الله ثلاثاً وثلاثين، وكبر الله ثلاثاً وثلاثين، وقال تمام المائة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. غفرت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر[2].

والوتر سنة النبي ﷺ حيث يقول: إن الله وتر يحب الوتر، وأقله ركعة واحدة، وأكثره إحدى عشرة ركعة، وهو مؤكد لا ينبغي للإنسان تركه، قال الإمام أحمد: من ترك الوتر فهو رجل سوءٍ، لا ينبغي أن تقبل شهادته، ووقت الوتر من صلاة العشاء ولو في حال الجمع إلى طلوع الفجر.

وإذا توضأ الإنسان فأسبغ الوضوء ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التوابين

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٧٢٨).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٥٩٧).

وأجعلني من المتطهرين فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء»[1].

ومن أنواع العبادات: الصدقات إذا كانت بنية خالصة ومن كسب طيب، فإن الله يقبلها بيمينه، ويربيها لصاحبها، حتى تكون ما يعادل التمرة مثل الجبل العظيم، فالرجل ينفق على نفسه، وينفق على أهله، وينفق على ولده، وينفق على بهائمه، يحتسب الأجر بذلك على الله، فيكون له أجر.

قال ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها»[2].

وقال ﷺ لسعد بن أبي وقاص: «واعلم إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ما تجعله فيِّ فم امرأتك»[3].

وقال ﷺ: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله» وأحسبه قال: «كالصائم لا يفطر وكالقائم لا يفتر»[4].

والساعي على الأرملة والمساكين هو الذي يطلب الرزق لهم، ويكون في حاجتهم، فأولادك الصغار الذين لا يستطيعون القيام بأنفسهم هم من المساكين.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٣٤)، والترمذي واللفظ له (رقم ٥٥).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٧٣٤).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٥٦)، ومسلم (رقم ١٦٢٨).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٦٠٠٧)، ومسلم (رقم ٢٩٨٢).

فالسعي عليهم: كالجهاد في سبيل الله، وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «خلق الله ابن آدم على ستين وثلاثمائة مفصل من ذكر الله، وحمد الله وهلل الله وسبح الله وعزل حجراً عن طريق المسلمين أو عزل شوكة أو عزل عظماً أو أمر بمعروف أو نهى عن منكرٍ عَدَدَ تلك الستين والثلاثمائة أمسى من يومه وقد زحزح نفسه عن النار.

وقال صلى الله عليه وسلم: «يصبح على كل سلامى – يعني كل عضوٍ – من أحدكم صدقة، فكل تسبيحه صدقة، وكل تحميده صدقة، وكل تهليله صدقة، وكل تكبيره صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما في الضحى»[١]، وقال: «ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة وما أطعمت ولدك فهو لك صدقة، وما أطعمت زوجك فهو لك صدقة»[٢]، وقال: في بضع أحدكم – يعني إتيان أهله – صدقة.

كل هذا يبين محاسن الإسلام وسهولته، وهذا غيض من فيض مما يزخر به كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم من أبواب الخير الكثيرة.

(١) أخرجه مسلم (رقم ٧٢٠).

(٢) صححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٥٥٣٥).

تفرد الدين الإسلامي بالكمال

إن دين الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ أكمل الأديان وأفضلها وأعلاها وأجلها، وقد حوى من المحاسن والكمال والصلاح والرحمة والعدل والحكمة ما يشهد لله بالكمال المطلق، ويشهد لنبيه ﷺ أنه رسول الله حقاً، وأنه الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى: ﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ** ﴿٤﴾﴾ [النجم: ٤].

فهذا الدين الإسلامي أعظم برهان وأجل شهادة بالتفرد بالكمال المطلق لله سبحانه ولنبيه ﷺ بالرسالة والصدق.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله في الكلام عن محاسن الإسلام: وغرضي من هذا التعليق إبداء ما وصل إليه علمي من بيان أصول محاسن هذا الدين العظيم، فإني وإن كان علمي ومعرفتي تقصر كل القصور عن إبداء بعض ما احتوى عليه هذا الدين من الجلال والجمال والكمال، وعبارتي تضعف عن شرحه على وجه الإجمال فضلاً عن التفصيل في المقال، وكان ما لا يدرك جميعه، ولا يوصل إلى غايته ومعظمه فلا ينبغي أن

يترك منه ما يعرفه الإنسان، لعجزه عما لا يعرفه، فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[التغابن: ١٦]، وذلك أن في معرفة هذا العلم فوائد متعددة:

منها أن الاشتغال في هذا الموضوع الذي هو أشرف المواضيع وأجلها من أفضل الأعمال الصالحة فمعرفته والبحث عنه والتفكير فيه وسلوك كل طريق يحصل إلى معرفته خير ما شغل العبد به نفسه، والوقت الذي تنفقه في ذلك هو الوقت الذي لك لا عليك.

ومنها أن معرفة النعم والتحدث بها قد أمر الله به ورسوله وهو أكبر الأعمال الصالحة، ولاشك أن البحث في هذا اعتراف وتحدث وتفكر في أجل نعمه سبحانه على عباده، وهو الدين الإسلامي الذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه، فيكون هذا التحدث شكرًا لله واستدعاء للمزيد من هذه النعمة.

ومنها أن الناس يتفاوتون في الإيمان وكماله تفاوتاً عظيماً، وكلما كان العبد أعرف بهذا الدين وأشد تعظيماً له وسروراً به وابتهاجاً كان أكمل إيماناً وأصح يقيناً، فإنه برهان على جميع أصول الإيمان وقواعده.

ومنها أن من أكبر الدعوة إلى دين الإسلام شرح ما احتوى عليه من المحاسن التي قبلها، ويتقبلها كل صاحب عقل وفطرة سليمة، فلو تصدى للدعوة إلى هذا الدين رجال يشرحون حقائقه، ويبينون للخلق مصالحه،

لكان ذلك كافياً كفاية تامة في جذب الخلق إليه لما يرون من موافقته للمصالح الدينية والدنيوية ولصالح الظاهر والباطن من غير حاجة إلى التعرض، لدفع شبه المعارضين والطعن في أديان المخالفين، فإنه في نفسه يدفع كل شبهة تعارضه، لأنه حق مقرون بالبيان الواضح والبراهين الموصلة إلى اليقين، فإذا كشف عن بعض حقائق هذا الدين صار أكبر داع إلى قبوله ورجحانه على غيره.

اعلم أن محاسن هذا الدين عامة في جميع مسائله ودلائله، وفي أصوله وفروعه، وفيما دل عليه من علوم الشرع والأحكام وما دل عليه من علوم الكون والاجتماع، ثم قال رحمه الله: وليس القصد هنا استيعاب ذلك وتتبعه، فإنه يستدعي بسطاً كثيراً، وإنما الغرض ذكر أمثلة نافعة يستدل بها على سواها وينفتح الباب لمن أراد الدخول، وهي أمثلة منتشرة في الأصول والفروع والعبادات والمعاملات.

الدين الإسلام مبني على أصول الإيمان المذكورة في قوله تعالى: ﴿**قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ (١٣٦)**﴾ [البقرة: ١٣٦].

فهذه الأصول العظيمة التي أمر الله عباده بها هي الأصول التي اتفق عليها الأنبياء والمرسلون، وهي محتوية على أجل المعارف والاعتقادات، من الإيمان بكل ما وصف الله به نفسه على ألسنة رسله، وعلى بذل الجهد في سلوك مرضاته، فدين أصله الإيمان بالله، وثمرته السعي في كل ما يحبه ويرضاه وإخلاص ذلك لله، هل يتصور أن يكون دين أحسن منه وأجل وأفضل.

ودين أمر بالإيمان بكل ما أوتيه الأنبياء والتصديق برسالاتهم والاعتراف بالحق الذي جاءوا به من عند ربهم، وعدم التفريق بينهم، وأنهم كلهم رسل الله الصادقون وأمناؤه المخلصون، يستحيل أن يتوجه إليه أي اعتراض وقدح، فهو يأمر بكل حق، ويعترف بكل صدق، ويقرر الحقائق الدينية المستندة إلى وحي الله لرسله، ويجري مع الحقائق العقلية الفطرية النافعة، ولا يرد حقاً بوجه من الوجوه، ولا يصدق بكذب، ولا يروج عليه الباطل، فهو مهيمن على سائر الأديان، يأمر بمحاسن الأعمال ومكارم الأخلاق ومصالح العباد، ويحث على العدل والفضل والرحمة والخير، ويزجر عن الظلم والبغي ومساوئ الأخلاق. ما من خصلة كمال قررها الأنبياء والمرسلون إلا وقررها وأثبتها، وما من مصلحة دينية ودنيوية دعت إليها الشرائع إلا حث عليها، ولا مفسدة إلا نهى عنها وأمر بمجانبتها.

والمقصود أن عقائد هذا الدين هي التي تزكو بها القلوب وتصلح الأرواح، وتتأصل بها مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال.

وقال محمد بن عبد الرحمن بن أحمد أبو عبد الله البخاري الملقب بالزاهد العلامة في كتابه محاسن الإسلام وشرائع الإسلام: أول ما يفترض على العبد الإيمان بالله تعالى، وهو الإقرار باللسان والتصديق بالقلب، فنبدأ بذكر محاسنه، فنقول: إذا عرف العبد أن له صانعاً صنعه وخالقاً خلقه فلابد من عقد القلب بتصديقه ومعرفة ذلك بتوفيقه ومعرفة أن صانعه محسن إليه بتخصيصه، فإن معرفة المحسن وإحسانه من محاسن الأمور، وتوجيه الشكر إليه أحسن الأحاسن عند الجمهور، وانظر إلى من لم يعرفه مع مساواته إياك في آلة المعرفة وحرمانه، لتعرف من الله إنعامه وإحسانه إليك وبضدها تتبين الأشياء.

نور منور الإيمان قلبك حتى أبصرت بضيائه منافعه، وأبصرت في ضده معاطبه ومهالكه، فليس هذا من موجبات ذاتك ووجودك، إذ لو كان كذلك ما اختلفت الحالة، وما افترقت المقالة، خصك بالجمال والجلالة، وترك غيرك في الضلالة والجهالة، فله الحمد على ما أولى.

الإسلام

الإسلام هو الدين الحق الذي ارتضاه الله ﷻ ليكون خاتم الأديان، كما أخبرنا الله سبحانه عن ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]. وكما قال سبحانه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥]. وكما قال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[١] فالإسلام هو دين الفطرة السليمة، ولذا نجد أن حالات القلق والاضطراب تنتاب كل معتنق ديانة غير الإسلام، وفي المقابل نجد الطمأنينة والاستقرار والانشراح النفسي في حياة المسلم، لأن الإسلام هو الأصل والمنبت وغير الإسلام هو الدخيل. ولسمو رسالة الإسلام وعظمته لا يجبر أحداً على الدخول فيه كما أمرنا الله سبحانه بقوله: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة: ٢٥٦]،

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٣٨٥)، ومسلم (رقم ٢٦٥٨).

وسر عظمة الإسلام أن محمداً ﷺ بعث للناس كافة بخلاف الرسل والأنبياء، الذين أرسلوا إلى قومهم خاصة، يقول الله سبحانه: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**﴾ [النحل: ٣٦]، ويقول سبحانه: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا**﴾ [سبأ: ٢٨]، فكان الدين الإسلامي والكتاب المنزل على محمد ﷺ خاتم الأديان والمهيمن على سائر الكتب من قبله، أتمه الله وأكمله وارتضاه لعباده ديناً.

الإسلام يقدم للبشر منهجاً متكاملاً شاملاً جميع نواحي الحياة دقيقها وجليلها، إذ يعرض العقيدة الصافية بتصور سهل مقبول، ويشرع العبادات بتوازن دقيق لربط المرء بربه برباط وثيق، ففي الإسلام نجد النظام الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الأمثل لصلاح البشر وسير حياتهم، مجملاً بقواعد عامة وخطوط عريضة ينبثق منها كل فلاح وحياة هانئة، فجاء الإسلام متكامل الجوانب شامل التصور، ويأسف الذين كانوا يعبدون غير الله، ويسخرون من أنفسهم كيف سمحوا لعقولهم أن تعبد أصناماً لا تتحرك ولا تتكلم يسمونها آلهة؟

فلم يجدوا لحالة القلق والتوتر وعدم الإشباع الروحي سبيلاً إلا في عقيدة التوحيد والإيمان بوحدانية الله «لا إله إلا الله».

يقول أحدهم ممن منَّ الله عليهم في الدخول في الإسلام بعد ما ذاق حلاوة الإيمان وخالط سويداء قلبه: لقد أثر الإسلام في حياتي تأثيراً كبيراً، فهو الدين الذي ينظم علاقات الفرد بربه وعلاقته مع الآخرين وحياته وسلوكه الفردي، كما أنني أشعر وأنا مسلم بأن حياتي أكثر ارتقاءً وسمواً، أشعر أن هدفي في الحياة أصبح أكثر تحديداً، وأن أخلاقي وطموحاتي خط واحد منسجم.

لقد اقتنع هؤلاء بمحض إرادتهم وباقتناع تام بأن الدين الإسلامي هو الخلاص لهم وهو الدين الحق، تركوا لأنفسهم فرصة الاطلاع والتأمل والتفكير، قارنوا وتدبروا وشاهدوا على الواقع الفرق بين الإسلام وغيره من الأديان والمعتقدات، فمن الصعب على الإنسان أن يغير من عقيدته بسهولة، فهي أصعب شيء في حياة المرء، أنها أشبه بتغيير دم الإنسان إلا من فتح الله قلبه للإيمان وأسعده بالطاعة ويسر له الدخول في دين الله، وتلك منة الله يمن بها على من يشاء من عباده.

نعمة الإيمان والهداية إلى دين الإسلام نعمة كبرى عميقة المغزى، لا يدركها إلا من كان يعيش في الضلال والضياع، ثم هداه الله إلى طريق الحق، نعمة يعيشها هؤلاء المسلمون الجدد في لحظة إيمانية تتوقف عندها مآرب الدنيا، لحظة يعيشها هؤلاء بكل جوارحهم وأفئدتهم، لحظة نتوقف عندها

لنتدبرها ونتأملها ونعيشها مع هؤلاء الذين دخلوا في دين الله أفواجاً، راضين مقتنعين بما قدموا عليه.

إن المتأمل في دين الإسلام وواقع المسلمين في الماضي والحاضر يجد أن الإسلام كان له القوة والعزة والمنعة، حينما كان المسلمون يتمسكون بأهدافه ويحكمونه في جميع شئون حياتهم الدينية والدنيوية، وكلما انحسر الناس عن هذا الدين دب إليهم الضعف والهوان والذلة بحسب انحسارهم عن الدين وتلك سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، وصدق من قال:

يقولون في الإسلام ظلماً بأنه　　　يبعد ذويه عن طريق التقدم
فإن كان ذا حقاً فكيف تقدمت　　　أوائله في عصرها المتقدم
وإن كان ذنب المسلم اليوم جهله　　　فماذا على الإسلام من جهل مسلم

الدين الإسلامي

إن المنصفين من عقلاء الشرق والغرب والذين درسوا هذا الدين وعلموا ورأوا ما يشتمل عليه هذا الدين من محاسن وخصائص ومزايا لا توجد في أي دين غيره. وفي ذلك يقول الشيخ أحمد بن حجر آل بو طامي: يعجبني أن يكتب بماء الذهب وفي سويداء القلب ما قاله عبد الفتاح الإمام في كتابه «التفسير العصري القديم» ما يلي:

- لا يوجد دين من الأديان يؤاخي العقل والعلم في كل ميدان إلا الإسلام.
- ولا يوجد دين روحي مادي إلا الإسلام.
- ولا يوجد دين يدعو إلى الحضارة والعمران إلا الإسلام.
- ولا يوجد دين شهد له فلاسفة العالم المتحضر إلا الإسلام.
- ولا يوجد دين يسهل إثباته بالتجربة إلا الإسلام.
- ولا يوجد دين من أصوله الإيمان بجميع الرسل والأنبياء والكتب الإلهية إلا الإسلام.

- ولا يوجد دين جامع لجميع ما يحتاجه البشر إلا الإسلام.
- ولا يوجد دين فيه من المرونة واليسر الشيء الكثير إلا الإسلام.
- ولا يوجد دين يشهد له الاكتشافات العلمية إلا الإسلام.
- ولا يوجد دين صالح لكل الأمم والأزمان إلا الإسلام.
- ولا يوجد دين يسهل العمل به في كل حال إلا الإسلام.
- ولا يوجد دين لا إفراط فيه ولا تفريط إلا الإسلام.
- ولا يوجد دين حفظ كتابه المقدس إلا الإسلام.
- ولا يوجد دين صرح كتابه المنزل بأنه عام لكل الناس إلا الإسلام.
- ولا يوجد دين يأمر بجميع العلوم النافعة إلا الإسلام. والحضارة الحاضرة قبس من نور الإسلام، وهذه الحضارة مريضة ولا علاج لها إلا الإسلام، وما شهد التاريخ حضارة جمعت بين الروح والمادة إلا حضارة الإسلام، والسلام العالمي لا يتم إلا بالإسلام.
- ولا يوجد دين يسهل إثباته بالتحليل العلمي إلا الإسلام.
- ولا يوجد دين وحد قانون المعاملات بين البشر إلا الإسلام.
- ولا يوجد دين أزال امتياز الطبقات إلا الإسلام.
- ولا يوجد دين حقق العدالة الاجتماعية إلا الإسلام.
- ولا يوجد دين لا يشذ عن الفطرة في شيء إلا الإسلام.

- ولا يوجد دين منع استبداد الحكام وأمر بالشورى إلا الإسلام.
- ولا يوجد دين أمر بالعدالة مع الأعداء إلا الإسلام.
- ولا يوجد دين بشرت به الكتب السماوية إلا الإسلام.
- ولا يوجد دين أنقذ المرأة في أدوارها أماً وزوجة وبنتاً إلا الإسلام.
- ولا يوجد دين ساوى بين الأبيض والأسود والأصفر والأحمر إلا الإسلام.
- ولا يوجد دين أمر بالتعليم وحرم كتمان العلم النافع إلا الإسلام.
- ولا يوجد دين قرر الحقوق الدولية إلا الإسلام.
- ولا يوجد دين توافق أوامره ما اكتشفه الطب الحديث إلا الإسلام.
- ولا يوجد دين أنقذ الرقيق من المعاملات الوحشية وأمر بمساواته لسادته وحض على إعتاقه إلا الإسلام.
- ولا يوجد دين ينقذ الفقراء والأغنياء بفرض جزء من مال الأغنياء يعطى للفقراء إلا الإسلام.
- ولا يوجد دين قرر من الأخلاق مقتضى الفطرة والحكمة الإلهية، فللشدة موقف وللرحمة موقف إلا الإسلام.
- ولا يوجد دين أمر بالإحسان والرفق بجميع الخلق إلا الإسلام.
- ولا يوجد دين قرر أصول الحقوق المدنية على قواعد فطرية إلا

الإسلام.

- ولا يوجد دين اعتنى بصحة الإنسان وثروته إلا الإسلام.
- ولا يوجد دين أثر في النفوس والأخلاق والعقول كالإسلام.

انتهى كلامه، فهذه إشارات تبين شمول الإسلام وصلاحيته لكل زمان ومكان، وتحتاج كل كلمة إلى محاضرة، ولكن اللبيب بالإشارة يفهم.

شريعة الإسلام

إن الناظر إلى هذا الدين يجد أنه حوى جميع ما يحتاجه الناس في أمور دينهم ودنياهم ومعاشهم ومعادهم، عرف ذلك من فقه في دين الله، واستنبط الأحكام من مواقعها، وعرف أسرارها ودقائقها من خلال استقرائه لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فهذا الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله يبين محاسن الإسلام فيقول: إن هذه الشريعة جاءت بإصلاح الدين وإصلاح الدنيا، والجمع بين مصلحة الروح والجسد.

وهذا الأصل في الكتاب والسنة منه شيء كثير، يحث الله ورسوله ﷺ على القيام بالأمرين، وإن كل واحد منهما ممد للآخر ومعين عليه، والله تعالى خلق الخلق لعبادته والقيام بحقوقه، وأدر عليهم الأرزاق ونوَّع لهم أسباب الرزق وطرق المعيشة، ليستعينوا بذلك على عبادته، وليكون ذلك قياماً لداخليتهم وخارجيتهم ولم يأمر بتغذية الروح وحدها وإهمال الجسد، كما أنه نهى عن الاشتغال باللذات والشهوات وتقوية مصالح القلب والروح، ويتضح هذا بأصل آخر، وهو أن الشرع جعل العلم والدين والولاية والحكم

متآزرات متعاضدات. فالعلم والدين يقوم الولايات وتنبني عليه السلطة والأحكام، والولايات كلها مقيدة بالعلم والدين الذي هو الحكمة، وهو الصراط المستقيم، وهو الصلاح والفلاح والنجاح، فحيث كان الدين والسلطة مقترنين متساعدين فإن الأمور تصلح والأحوال تستقيم، وحيث فصل أحدهما من الآخر اختل النظام، وفقد الصلاح والإصلاح، ووقعت الفرقة، وتباعدت القلوب، وأخذ أمر الناس في الانحطاط، يؤيد هذا أن العلوم مهما اتسعت والمعارف مهما تنوعت والاختراعات مهما عظمت وكثرت، فإنه لم يرد منها شيء ينافي ما دل عليه القرآن، ولا يناقض ما جاءت به الشريعة فالشرع لا يأتي بما تمليه العقول، وإنما يأتي بما تشهد العقول الصحيحة بحسنه أو بما لا يهتدي العقل إلى معرفته جملة أو تفصيلاً، وهذا ينبغي أن يكون مثالاً آخر، وهو أن الشرع لا يأتي بما تمليه العقول ولا ينقضه العقل الصحيح، وهذا من أكبر الأدلة على أن ما عند الله محكم ثابت صالح لكل زمان ومكان، وهذه الجمل المختصرة تعرف على وجه التفصيل بالتتبع والاستقراء لجميع الحوادث الكونية وحوادث علوم الاجتماع وتطبيق ذلك إذا كان من الحقائق الصحيحة على ما جاء به الشرع، فبذلك يعرف أنه تبيان لكل شيء، وأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها — انتهى كلامه رحمه الله —.

ومن محاسن الإسلام أنه قد عرف المحققون المنصفون أن كل علم نافع

ديني أو دنيوي أو سياسي فقد دل عليه القرآن دلالة لاشك فيها، فليس في شريعة الإسلام ما تمليه العقول، وإنما فيه ما تشهد العقول السليمة الذكية بصدقه ونفعه وصلاحه، وكذلك أوامره كلها عدل لا حيف فيها ولا ظلم، فما أمر بشيء إلا وهو خير خالص أو راجح، وما نهى عن شيء إلا وهو شر خالص أو ما تزيد مفسدته على مصلحته.

وكلما تدبر العاقل اللبيب أحكام الإسلام قوي إيمانه وإخلاصه، وعندما يتأمل ما يدعو إليه هذا الدين القويم يجده يدعو إلى مكارم الأخلاق، يدعو إلى الصدق والعفاف والعدل وحفظ العهود، وأداء الأمانات والإحسان إلى اليتيم والمسكين وحسن الجوار، وإكرام الضيف، والتحلي بمكارم الأخلاق، ويدعو إلى التمتع بلذائذ الحياة في قصد واعتدال، ويدعو إلى البر والتقوى وينهى عن الفحشاء والمنكر والإثم والعدوان، لا يأمر إلا بما يعود على العالم بالسعادة والفلاح، ولا ينهى إلا عما يجلب الشقاء والمضرة للعباد، إن ديناً هذه صفاته وسماته حريٌّ بالإنسانية جمعاء أن تحرص عليه وتلتزمه في كل شؤون حياتها منهاجاً وطريقاً للنجاة والفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة.

حماية الإسلام للدين والنفس والعرض والمال

نعم الله علينا كثيرة لا تعد ولا تحصى ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [النحل: ١٨]، فيجب علينا شكرها.

وإن من محاسن الإسلام ما أنعم الله به علينا من حماية الإسلام للدين والنفس، والعرض والمال، فلقد حمى الله سبحانه لنا الدين، بما أقام عليه من الآيات البينات على صحته للعمل به عن بصيرةٍ وبرهانٍ، كما حمى الله لنا الدين بما رتب على القيام به من الثواب لنرغب فيه ونستقيم عليه، كما حمى لنا الدين بما رتب على مخالفته من العقاب حتى لا نخرج عنه، ولقد حمى الله النفوس وأكد تحريمها وحرمتها في كتابه وسنة نبيه ﷺ، ليستقيم المجتمع ويحل فيه الأمن.

فلقد قرن الله سبحانه الاعتداء على النفس بالاعتداء على الدين — فقرن القتل بالشرك — قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الفرقان: ٦٨]، وقال ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا

بالحق»(١)، وقال ﷺ: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»(٢)، وقال: «لن يزال المؤمن في فسحةٍ من دينه ما لم يُصب دماً حراماً»(٣)، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [النساء: ٩٣].

ومن أجل حماية النفس شرع الله القصاص، فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ﴾ [البقرة: ١٧٨]، هذا في هذه الأمة، وقال سبحانه في بني إسرائيل: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقال ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»(٤).

وخفف الله سبحانه هذه الفريضة بأن جعل لأولياء المقتول الخيرة بين القصاص والدية والعفو إذا كان خيراً، فقال سبحانه: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ ﴾ [البقرة: ١٧٨].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٧٦٦)، ومسلم (رقم ٨٩).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٨)، ومسلم (رقم ٦٤).
(٣) أخرجه البخاري (رقم ٦٨٦٢).
(٤) أخرجه البخاري (رقم ٦٨٧٨)، ومسلم (رقم ١٦٧٦).

ولقد حمى الله سبحانه الأموال بما أحاطها من العقوبات في الاعتداء عليها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [البقرة: ١٨٨].

وأوجب الله قطع يد السارق حماية للأموال، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المائدة: ٣٨]، إن قطع يد السارق هو الحكمة البالغة والمصلحة الظاهرة.

أما حماية الأعراض فقد أتقنها الإسلام من كل ناحية، سواء من الناحية الخلقية والاجتماعية، فمن الناحية الخلقية أوجب الله الحد على من هتك الأعراض بالزنا، وذلك برجمه بالحجارة حتى يموت إذا كان محصناً وهو المتزوج، سواءً كان رجلاً أو امرأة، وأما غير المحصن فجلد مائة جلدة، ويبعد عن البلد سنة كاملة رجلاً أو امرأة، وأما اللواط وهو إتيان الذكر الذكر ففيه القتل بكل حالٍ، إذا كان بالغاً والتعزير البليغ لغير البالغ، فإن النبي ﷺ قال: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»(١).

وأوجب الله الحد على من قذف محصناً بالزنى، فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ

(١) أخرجه الترمذي (رقم ١٤٥٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٦٥٨٩).

يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ ﴾ [النور: ٤]، فمن قال لشخص عفيف: يا زاني. فعليه ثمانون جلدة إلا أن يأتي بأربعة شهداء أو يقر المقذوف بذلك.

وأما حماية الإسلام للأعراض من الناحية الاجتماعية، فقد حرم الله بين المسلمين السخرية واللمز والتنابز بالألقاب السيئة والغيبة وهي ذكرك أخاك بما يكره في غيبته، ذكر الله ذلك في سورة الحجرات في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ ﴾ [الحجرات: ١١].

يجب على المسلم أن يحمد الله سبحانه على ما أنعم به علينا من نعمة الإسلام، وما فيه من محاسن وفضائل، بالعمل بها وتطبيقها يكون المسلم آمناً مطمئناً على حماية الإسلام للدين والنفس والعرض والمال.

الإيمان بجميع الكتب والرسل

إن من محاسن الإسلام الكثيرة المتعددة والمتنوعة: تربية المسلمين على العقيدة، وتزكية نفوسهم، وصقل أفكارهم بها.

ومنها الإيمان بجميع الكتب والرسل، فلقد بعث الله سبحانه النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، فنحمده سبحانه على إحسانه الكامل، ونشكره على فضله الوافر.

ويجب على المسلمين أن يعرفوا نعمته على خلقه بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، فإن حاجة الناس بل ضرورتهم إلى ذلك أعظم من حاجتهم وضرورتهم إلى الطعام والشراء والهواء، فإن الله خلقهم أول ما خلقهم على الفطرة، وأوحى إلى أبيهم آدم بما تتوقف عليه مصلحتهم في ذلك الوقت، ثم لما طال الزمن، وكثر بنو آدم، اختلفوا فيما بينهم، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، فأول رسول بعثه الله سبحانه نوح عليه السلام، وما زال الله سبحانه يبعث الرسل

من حينٍ لآخر، بحسب ما تتطلبه مصلحة عباده، حتى ختم الله أنبياءه ورسله بخاتم النبيين محمد ﷺ وكان عِدَّةُ الأنبياء ستة وعشرين ألفاً، منهم ثلاثمائة وبضعة عشر رسولاً، فآمنوا بهذه الكتب، وآمنوا بهؤلاء الرسل، مصداق ذلك في قوله تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾[البقرة: ١٣٦].

الإيمان بالكتب هو التصديق بما سمَّى الله لنا وعيَّنه باسمه، فنؤمن بالصحف التي أنزلها الله على إبراهيم، وبالتوراة التي أنزلها على موسى، وبالزبور الذي آتاه الله داود، وبالإنجيل الذي أنزله الله على عيسى، والفرقان وهو القرآن الذي أنزله الله على محمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين، وأما ما لم يعينه الله لنا من الكتب، فنؤمن به على وجه الإجمال، أي نؤمن بكل كتابٍ أنزله الله على كل نبي من الأنبياء.

ومن الإيمان بالكتب الإيمان بأن هذا القرآن الذي أنزله الله على محمد ﷺ كلام الله، تكلم به حقيقة، وألقاه إلى جبريل القوي الأمين، ثم نزل به جبريل على قلب محمدٍ ﷺ، فوعاه لفظاً ومعنًى، وبلغه إلى الصحابة ﭫ، الذين هم أكمل هذه الأمة إيماناً، وأحفظهم أمانة، فلم يمض بعد

النبي ﷺ زمن الخلفاء الراشدين حتى جمعوه وحفظوه، وأدوه إلينا كاملاً من غير زيادة ولا نقصٍ، على الوجه الذي نقرؤه، حفظوه وجمعوه قبل زمن التفرق والأهواء، وهذا من عناية الله بكتابه المبين، فإنه سبحانه تكفل بحفظه حيث قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

أما الإيمان بالرسل والأنبياء فالواجب أن يؤمن العبد بكل نبي وبكل رسول أرسله الله، فمن سمَّاه الله لنا منهم آمنا به بعينه، ومن لم يسمه آمنا به عموماً. وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]، فالذين قص الله علينا محمداً وإبراهيم وموسى وعيسى ونوحاً وداود وسليمان وأيوب ويوسف وهارون وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس وإسماعيل واليَسَع، ويونس ولوطاً وهوداً وصالحاً وشعيباً، وإدريس وإسحاق ويعقوب.

ومن الإيمان بالرسل والكتب أن نصدق ونعتقد أنها حق، وأن نعمل بما أوجب الله علينا العمل به من أحكامها، ونعتقد أنها أحسن الأحكام وأنفعها للخلق في دينهم ودنياهم، فمن كذب رسولاً أو كتاباً أو كفر به فهو كافر بالجميع.

ومن حقق قول الله سبحانه في كتابه، وذلك في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ

ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥].

من حقق ذلك وآمن به كان من المؤمنين، وهكذا نجد أن من محاسن الإسلام تربية الإيمان بجميع الكتب والرسل، وذلك من أجل صلاح قلوبنا وأعمالنا في ديننا، ودنيانا فسبحانه من حكيمٍ حميدٍ، يدعو الناس إلى ما فيه صلاحهم وفلاحهم وسعادتهم في دنياهم وأخراهم.

الدعوة إلى الاستقامة والنهي عن الغلو في الدين

إن من الحقائق التي تظهر لكل من تتبع تاريخ دعوات الرسل عليهم الصلاة والسلام: أن الأمم تتفاوت في مقدار الاستجابة، وتتفاوت درجات المدعوين في سلوك طريق الحق والطريق المستقيم، فمن الناس المتمسك بالحق المستقيم على طريقه، ومنهم المفرط الزائغ والعياذ بالله المضيع لحدود الله، ومنهم الغالي الذي تجاوز حدود الله.

وكل أولئك وجدوا فيمن سبق أمة محمد ﷺ، وهم في أمته متوافرون، ولذلك جاءت النصوص الشرعية بالتحذير من سلوك طرق المغضوب عليهم والضالين، المضيعين لحدود الله، والمجاوزين لها. وجاءت داعيته إلى الاستقامة بأساليب عدة منها:

١ - تعليم المسلمين أن يدعوا الله أن يسلمهم من كلا الانحرافين وتشريع ذلك لهم في كل صلاة مرات متعددة فريضة ونافلة وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٦ - ٧] ولما

أمرنا الله سبحانه أن نسأله في كل صلاة أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم، كان ذلك مما يبين أن العبد يُخاف عليه أن ينحرف إلى هذين الطريقين.

٢ – التحذير من تعدي الحدود والأمر بلزومها، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢٩] والحدود هي النهايات لكل ما يجوز من الأمور المباحة: المأمور بها وغير المأمور بها، وتعديها هو تجاوزها وعدم الوقوف عليها، وهذا التعدي هو الهدف الذي يسعى إليه الشيطان.

إذ إن مجمل ما يريده تحقيق أحد الانحرافين: الغلو أو التقصير، فما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان: إما إلى تفريط وإضاعة، وإما إلى إفراط وغلو. ودين الله وسط بين الجافي عنه والغالي فيه: كالوادي بين جبلين والهدى بين ضلالتين والوسط بين طرفين ذميمين، فكما أن الجافي عن الأمر مضيع له، فالغالي فيه وضيع له بتقصيره عن الحد وهذا بتجاوزه الحد.

٣ – الدعوة إلى الاستقامة ولزوم الأمر وعدم الغلو والزيادة، قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ إِنَّهُۥ بِمَا

تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١١٢﴾ ﴾ [هود: ١١٢] فالله سبحانه يأمر بالاستقامة التي هي الاعتدال، والمضي على النهج دون انحراف، ويعقب بالنهي عن الطغيان مما يفيد أن الله سبحانه يريد الاستقامة، كما أمر بدون غلو، ولا مبالغة تحيل هذا الدين من يسر إلى عسر.

٤ – النهي عن الغلو وتوجيه الخطاب لأهل الكتاب على وجه الخصوص، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ ﴾ [النساء: ١٧١].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ٧٧] أي يا أهل الإنجيل لا تغلوا في دينكم فتتجاوزا الحق، فإن قولكم بأن عيسى ابن الله قول منكم بغير الحق، ولا ترفعوه إلى مقام الألوهية فتجعلواه ربًّا وإلهاً، والغلو

في النصارى كثير فإنهم غلوا في عيسى فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهاً من دون الله، يعبدونه كما يعبدون الله.

ومن هذا الغلو جاءت معظم الانحرافات في الديانة النصرانية، ومن ذلك غلوهم بابتداع رهبانية تعبدوا الله بها لم تكتب عليهم ولم يؤمروا بها، قال تعالى: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ ﴾ [الحديد: ٢٧] ولم يكن الغلو قاصراً على النصارى، بل هو موجود في اليهود.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: والنصارى أكثر غلواً في الاعتقادات والأعمال من سائر الطوائف، وإياهم نهى الله عن الغلو في القرآن.

وهذه النصوص وإن تعلقت بأهل الكتاب ابتداءً فإن المراد منها موعظة هذه الأمة، لتجتنب الأسباب التي أوجبت غضب الله على الأمم السابقة.

٥ – نهى الرسول ﷺ أمته عن الغلو، وذلك لئلا يقع المسلمون فيما وقع فيه من سبقهم من الأمم، التي بعث فيهم الرسل عليهم الصلاة والسلام.

ومع النهي عن الغلو بيَّن الرسول ﷺ عواقب الغلو وآثاره، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال، قال لي رسول الله ﷺ غداة جَمْع:

«هَلُمَّ إلقط لي الحصا» فلقطت له حصيات من حصى الخذف فلما وضعتهن في يده قال: «نعم بأمثال هؤلاء وإياكم والغلو في الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين»[1]، والنهي عام وإن كان سببه خاصاً فهو نهي عن كل غلو.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وهذا عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال، وسبب هذا اللفظ العام رمي الجمار، وهو داخل فيه مثل الرمي بالحجارة الكبار، بناءً على أنها أبلغ من الصغار، ثم علله بما يقضي مجانبة هديهم. أي هدي من كان قبلنا إبعاداً عن الوقوع فيما هلكوا به، وأن المشارك لهم في بعض هديهم يخافُ عليه من الهلاك.

٦ - بيان مصير الغالي وعاقبته، حيث وردت أحاديث تبين مآل من غلا، وأنه صائر إلى الهلاك، بل يرد ذلك مُكرراً ثلاث مرات في حديث واحدٍ مما يفيد عظم الأمر وخطره، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «هلك المتنطعون»[2] قالها ثلاثاً. قال النووي: هلك المتنطعون أي المتعمقون المغالون المجاوزون الحدود

(١) صححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٢٦٨٠).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٧٠).

في أقوالهم وأفعالهم.

كما جاء في أحاديث أخر: أن التشديد على النفس سبب لوقوع التشديد من الله، فعن أنس بن مالك ﵁ أن رسول الله ﷺ كان يقول: «لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم فإن قوماً شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فتلك بقاياهم في الصوامع والديار رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم»[١].

وهذا التشديد على النفس الذي هو ضرب من ضروب الغلو بينت السنة أن عاقبة صاحبه إلى الانقطاع، وأنه ما من مشاد لهذا الدين إلا ويُغلب وينقطع.

فعن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال: «إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وابشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة»[٢] «سير الليل» وفي لفظ: «والقصد القصد تبلغوا».

قال الحافظ ابن حجر: والمعنى لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيغلب، وحتى لا يقع ذلك جاء

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٤٩٠٤).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٩)، ومسلم (رقم ٢٨١٦).

ختام الحديث آمراً بالتسديد والمقاربة. والتسديد العمل بالسداد، وهو القصد والتوسط في العبادة، فلا يقصر فيما أمر به، ولا يتحمل منها ما لا يطيقه.

الدعوة إلى الله

إن ديـن الإسـلام الـذي جـاء بـه محمـد ﷺ أكمـل الأديـان وأفـضلها وأعلاهـا وأجلـها، وقـد حـوى مـن المحاسـن والكمـال والـصلاح والرحمـة والعدل والحكمة ما يشهد لله تعالى بالكمال المطلق، ويشهد لنبيه محمـد ﷺ أنه رسول الله حقاً، وأنه الصادق المصدوق الذي لا ينطق عـن الهـوى إن هـو إلا وحي يوحى.

فهـذا الـدين الإسـلامي أعظـم برهـان وأجـل شـاهد لله سـبحانه بـالتفرد بالكمال المطلق كله ولنبيه ﷺ بالرسالة والصدق.

إن الدعوة إلى الله تعالى واجبة على كل مسلم، كـل بحسبه، وإذا كـان هذا الدين الإسلامي هو الدين العالمي للثقلين، فهو يحتاج من أهلـه إلى زيـادة في التعريف به، وذكر محاسنه الـتي قـد تخفـى علـى كـثير مـن النـاس، لجهلـهم وإعراضهم عن دين الله تعالى، وانسياقهم وراء الشهوات والملذات، الـتي قـد تعمي وتصم آذان وأعين من حجبت عنهم الرؤيـة الـصحيحة للإسـلام وعـن التفقـه والعمـل بمـا فيـه مـن أحكـام جليلـة، في العبـادات، والمعـاملات،

والأخلاق وغيرها، فإن ذكر المحاسن كفيل – بإذن الله – بأن يؤدي إلى دخول الناس في دين الله أفواجاً، كما يؤدي إلى استمساك المسلمين بدينهم، فينال الداعي إلى الله والمعرِّف به الأجر والثواب العظيم من الله ﷻ.

يدل على ذلك قوله ﷺ: «الدال على الخير كفاعله»(1)، وقوله ﷺ: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجر فاعله من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً»(2).

إن المتأمل في هذا الدين الحنيف والمتفقه فيه والناظر فيه نظر تفكر وتدبر باصما عن الحق راغب فيه مما يزيد المؤمن إيماناً ويقيناً، ويرد الشارد عن هذا الدين رداً جميلاً؛ لما يرى من سماحة الإسلام ومحاسنه وشموله لمطالب الحياة الدنيا والآخرة، ولا غرابة في ذلك، فقد نزل من لدن حكيم خبير، يعلم السر وأخفى، يعلم ما يصلح العباد في أمر دينهم ودنياهم ومعاشهم ومعادهم، ولا يمكن أن يحاط بما في هذا الدين الإسلامي من محاسن

---

(1) أخرجه أحمد (٤/١٢٠)، والبزار (رقم ١٧٤٢)، والقضاعي (١/٨٦)، وأبو نعيم في الحلية (٦/٢٦٦)، والديلمي في الفردوس (رقم ٢٩٤٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٣٣٩٩).

(2) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٧٤)، وأبو داود (رقم ٤٦٠٩)، والترمذي (رقم ٢٦٧٤)، وابن ماجه (رقم ٢٠٦).

وفضائل، وإنما هي إشارات إلى ذكر بعضها في كل جانب من جوانب الحياة، ومن ذلك:

الحث على التعاون والتآلف في المجتمع المسلم، ليسود بينهم الأمن والأمان والاطمئنان والراحة النفسية بينهم، ومن ذلك حق الجار والوصية به، يقول ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»[1] ويقول ﷺ: «والله لا يؤمن» ثلاث مرات. قلنا: من يا رسول الله؟ قال: «من لا يأمن جاره بَوائقه»[2] أي: شروره. ويقول أبو هريرة رضي الله عنه: إن رسول الله ﷺ يقول: «لا يمنع جار جاره أن يغرز خشبه في جداره». ثم يقول أبو هريرة: ما لي أراكم عنها معرضين، أي عن هذه السنة والله لأرمين بها بين أكتافكم[3].

فهذا الحديث يدل على وجوب تعاون الجيران فيما بينهم، وأن للجوار حقوقاً منها غرز الخشب ونحوه في جدار الجار إذا احتاج إليه عند البناء.

وإنما أوجب الإسلام تلك الحقوق؛ لكونها مظهراً من مظاهر الإخاء في المجتمع الإسلامي وعوامل بنائه المثيرة، وقد لاحظ أبو هريرة رضي الله عنه

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٠١٤، ٦٠١٥)، ومسلم (رقم ٢٦٢٤، ٢٦٢٥).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٠١٦).
(٣) أخرجه البخاري (رقم ٢٤٦٣)، ومسلم (رقم ١٦٠٩).

إعراضاً عن بيان هذا الحق الشرعي، فأعلنها ﷺ مدوية بينهم: هذا حكم الله.

وهذا من محاسن الدين الإسلامي الاهتمام بالجار والتعاون معه من غير ضرر على أحد منهم، حتى يسود الأمن والاطمئنان بين أفراد المجتمع المسلم، ويشعروا بهذا الهدي النبوي الكريم أنه الطريق السليم إلى الحياة السعيدة بين المسلمين.

ويدل هذا الحديث - أيضاً - على أن الداعية إلى الله سبحانه إذا رأى المسلمين قد أعرضوا عن حكم من أحكام الشرع أن يبينه لهم ويدعوهم ويلفت أنظارهم إليه.

ومن محاسن الإسلام: الإحسان إلى الجار وزيارته وإجابة دعوته، لقد كان غير المسلمين يعيشون في المجتمع الإسلامي بكامل إنسانيتهم، ويتعامل معهم كما يتعامل مع أي فرد من المسلمين، فيزار مريضهم وتجاب دعوتهم ويحسن جوارهم، ولا ينقصون من المعروف شيئاً، بل مصانون على كل حال. ولم يقل أحد من المسلمين: إن في زيارتهم وإجابة دعوتهم وزيارة مرضاهم إخلالاً في الولاء والبراء، فهذا رسول الله ﷺ يدعوه يهودي فيجيب دعوته ويأكل من طعامه، ويُمَرض ولد جاره اليهودي فيسارع - عليه الصلاة والسلام - لزيارته، ويحرص على دعوته قبل خروج روحه

حتى يدعوه وينقذه من النار.

ولقد كان لزيارته موقف مؤثر؛ لأن أسرته تأثرت بذلك، فما أن وقف رسول الله ﷺ عليه وهو في سكرات الموت حتى طلب منه الإسلام والنطق بالشهادتين لينقذ نفسه من النار، وكان اليهود يعرفون أن رسول الله ﷺ حق وما جاء به حق، لكن الشقاء سبق عليهم، ولما دعاه الرسول ﷺ وهو في هذا الموقف العصيب أحب أن يستأمر أباه، فأشار إليه أبوه بطاعة رسول الله ﷺ فنطق الولد بالشهادتين، وخرج الرسول ﷺ فرحاً يكبر، لإنقاذ اليهودي نفسه من النار بسببه وهو يقول: «الحمد له الذي أنقذه من النار»[1]، فهل مثل هذا يقدح في الولاء والبراء أم هو منهج إسلامي يبين محاسن هذا الدين؟!.

ونحن المسلمين بحاجة إليه في التعامل مع غيرنا، لحفظ ثوابتنا وتعاملنا مع غيرنا، كما يأمرنا ديننا برفق وسماحة.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٣٥٦).

العدل

لقد امتن الله تعالى علينا بالإسلام، واختار لنا أفضل شريعة وإمام. هذا الدين القويم والمنهج السليم امتاز على غيره من الأديان، أنه خاتم الأديان، وأتمها وأعدلها وأحكمها: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣]، وإن المتأمل في هذا الدين والناظر فيه نظر تفقه وتفحص يجد أنه حوى جميع الفضائل والمحاسن، ولا غرو في ذلك فقد نزل من لدن حكيم خبير، يعلم السر وأخفى، يعلم ما يصلح العباد في أمور معاشهم ومعادهم في كل ما يحتاجه البشر.

ومن محاسنه: العدل وهو القصد في الأمور، والإنصاف والمساواة بين الناس. والعدل نقيض الظلم والجور. والعدل له مرادف هو القسط. وقد تكررت مادة العدل بمشتقاتها ما يقرب من ثلاثين مرة في القرآن الكريم. فحينما يحدثنا القرآن الكريم عن العدل، فيصف نفسه سبحانه بالعدل والقسط، كما في قوله سبحانه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾ [آل عمران: ١٨].

ومن محاسن الإسلام أن الله سبحانه في كتابه يأمر بالعدل في الحكم والفصل في القضايا والخصومات بين الناس، فيقول سبحانه: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ۝٥٨﴾ [النساء: ٥٨].

ومن محاسن الإسلام: أن الله سبحانه يأمر بالعدل في الكلام والمنطق، فيقول سبحانه: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، أي يجب عليكم أن تعدلوا في قولكم، فتكونوا صادقين إذا نطقتم بشهادة أو حكم على أحد، ولا يجوز أن تحيدوا عن طريق الحق والعدل متأثرين بعامل القرابة، فالله قد حرم الميل في النطق بالشهادة، ولو كان هذا لمحاباة أحد الأقرباء.

ويقول سبحانه: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾ [النحل: ٩٠].

يخبر تعالى أنه يأمر بالعدل والإحسان. فالعدل الذي أمر الله به يشمل العدل في حقه وفي حق عباده، فالعدل في ذلك أداء الحقوق كاملة موفرة، بأن يؤدي العبد ما أوجب الله عليه من الحقوق المالية والبدنية والمركبة منها في حقه وحق عباده، ويعامل الخلق بالعدل التام، فيؤدي كل وال ما عليه تحت

ولايته، سواء في ذلك الإمامة الكبرى وولاية القضاء ونواب القاضي، والعدل هو ما فرضه الله عليهم في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ وأمرهم بسلوكه.

ومن العدل في المعاملات أن تعاملهم في عقود البيع والشراء وسائر المعارضات بإيفاء جميع ما عليك، فلا تبخس لهم حقاً ولا تغشهم ولا تخدعهم وتظلمهم، فالعدل واجب في كل ذلك.

والسنة النبوية زاخرة بما يوضح محاسن الإسلام في كل شيء، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله إمام عادل»[1] الحديث.

ومن محاسن الإسلام العدل بين الأولاد في العطية والهبة وغيرها، فعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما أنه قال نحلني أبي نحلاً فقالت أمي عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تشهد عليه رسول الله ﷺ. فجاءه ليشهده على صدقتي فقال: «أكُلُّ ولدك نحلته مثله؟» قال: لا. فقال: «اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم»، وقال: «إني لا أشهد على جور» قال: فرجع أبي فردَّ تلك الصدقة[2].

ومن محاسن الإسلام العدل وعدم الشفاعة في حد من حدود الله أو

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٦٠)، ومسلم (رقم ١٠٣١).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٥٨٦، ٢٥٨٧)، ومسلم (رقم ١٦٢٣).

محاباة الشريف وترك الضعيف. وفي ذلك روت عائشة رضي الله عنها أن قريشاً أهمتهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ. فكلمه أسامة فقال رسول الله ﷺ: «أتشفع في حد من حدود الله تعالى؟» ثم قام فخطب ثم قال: «إنما أهلك من كان قبلكم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايْمُ الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[1].

ومن محاسن الإسلام في العدل - عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور، عن يمين الرحمن عز وجل وكلتا يديه يمين؛ الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وَلُوا»[2].

ومن محاسن الإسلام ما يظهر من وصايا السلف رحمهم الله من الحكم العظيمة في وجوب العدل وإظهاره بين الناس. يقول أبو بكر الصديق رضي الله عنه: ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له، وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه. ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأبي موسى الأشعري

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٧٨٨)، ومسلم (رقم ١٦٨٨).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٨٢٧).

ﷺ : سَوِّ بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك، حتى لا يطمع شريف في حكمك، ولا ييأس ضعيف في عدلك.

هذا غيض من فيض من مكنون كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأقوال السلف رحمهم الله.

العدل

من محاسن الإسلام ما ذكره الله تعالى عن العدل والحث عليه، وذلك في قوله سبحانه: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: ١٣٥]، أي أقيموا العدل على أتم الوجوه وأكمل الحالات، لأن القوَّام هو المبالغ في القيام بالشيء، وتحروا الحق في قولكم وشهادتكم، حتى لو كانت الشهادة على أنفسكم أو أقاربكم، فلا تحابوا الغني طمعاً فيه، ولا الفقير عطفاً عليه، فالله أولى من الجميع، فأخلصوا الشهادة، ولا تتبعوا أهواءكم كراهية منكم للتمسك بالعدل، فسواء عليكم أشهدتم بالحق أو كتمتم الشهادة فإن الله مطلع على أحوالكم، عليم بدقائق أموركم.

ومن محاسن الإسلام ما ذكره الله تعالى في كتابه حيث يأمر بالعدل في الكتابة، فيقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، أي ليكتب

كتاب المداينة أو البيع كاتب متصف بالقسط والإنصاف، فهو لا يزيد ولا ينقص في صفته أو مقداره، ولا يكتب شيئاً يضر بأحد المتعاقدين إلا بإذنه، فإن الكتابة هنا أمانة يجب أن يرعاها صاحبها وأن يتقي الله فيها.

ومن محاسن الإسلام عنايته بالعدل في الشهادة على الوصية، حيث يقول سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [المائدة: ١٠٦].

ومن محاسن الإسلام أن الله سبحانه أوجب العدل حين الإصلاح بين الطائفتين المتنازعتين من المؤمنين، فقال سبحانه: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجرات: ٩].

وهكذا نرى القرآن الكريم قد دعا إلى الاستمساك بالعدل في شتى مناحي الحياة. وأعلمنا أولاً أن العدل هو صفة الله ﷻ وهو مهمة رسوله

ﷺ، ثـم أمـر بالعـدل في الحكـم والعمـل، والقـول والكتابـة، والـشهادة والإصلاح بين المتنازعين وتقدير الجزاء، ومع الزوجة ومع الذين توجد بينهم عداوة، وهذا يعرف أن من محاسـن الإسـلام الـدعوة إلى العـدل دعـوة شـاملة واسعة النطاق.

ولقـد عـبر القـرآن الكـريم عـن العـدل بـثلاث كلمـات هـي: العـدل، والقسط، والميزان.

ولقد ضرب السلف الصالح من هذه الأمة المؤمنة أروع الأمثال في العدل: كعمر بن الخطاب رضي الله عنه وعمر بن عبد العزيز رحمه الله الذين علموا الدنيا كيف يكون الحكم بالعدل والوزن بالقسط والقضاء بإنصاف، مهتدين في ذلك كله بالنور الذي يهدي للتي هي أقوم، والذي يدعو إلى العدل ويأمر به ويجعل سبب الفوز فيه وعماد التقوى عليه ﴿ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ ﴾ [المائدة: ٨].

ومن محاسن الإسلام العدل مع الخصم، فهذا القرآن الكريم يرشد إلى العدل مع الخصم ويأمر به، ويحذر من الشطط ومجانبة الحق، وأن الخلاف لا يبيح الجور ولا يدعو إلى التعدي ﴿ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ ﴾ [المائدة: ٨].

وقد ربى رسول الله ﷺ أصحابه على ذلك، فهذا عبد الله بن رواحة

أرسله رسول الله ﷺ إلى يهود خيبر، ليخرص الثمار ويأخذ سهم النبي ﷺ، فخشى اليهود فأرادوا أن يرشوه كي يرفق بهم. فقال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه: والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إليَّ، ولأنتم أبغض إليَّ من أعدادكم من القردة والخنازير، وما يحملني حبي إياه وبغضي لكم على أن لا أعدل فيكم. فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض. فهل في هذا الموقف منقطع النظير تنازل ومجاملة أم فيه أداء للحقوق وبعد عن الولاء لغير المؤمنين؟

العدل في التصرفات

محاسن الإسلام كثيرة ومتعددة ومتنوعة دينية ودنيوية، وراعى الشرع العدل فيها وعدم الإجحاف، بل التوسط في جميع الأمور، فالله سبحانه اللطيف الخبير المنان المتفضل على عباده بأنواع الإحسان عَلِم حال الإنسان، فرحمه وشرع الشرع فيسره، ولم يكلف الإنسان فوق طاقته، وهذا غاية الفضل والإحسان.

فشرع سبحانه من العبادات التي يصل بها المسلم إلى أعلى الدرجات وأكمل المقامات، فقد شرع سبحانه لنا عبادات ميسرة فيها مصلحة للقلب والبدن والدين والدنيا، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

فلو تأملنا العبادات البدنية مثلاً لوجدناها لا تستغرق إلا القليل، ولو نظرنا إلى العبادات المالية لرأيناها لا تأخذ من مالنا إلا القليل، ومع ذلك فإن ثمرات هذه الأعمال القليلة والأموال المبذولة اليسيرة ثمراتها كثيرة وكبيرة، لأن ثمراتها صلاح الدنيا والآخرة.

وتلك من محاسن الإسلام العظيمة: أجور كثيرة على أعمال قليلة،

ولكن مع الأسف الشديد إذا فكرنا في أمرنا وجدنا أننا نفرط في هذه العبادات، ونبالغ في طلب اللذائذ والشهوات أعمال الدنيا نحرص على إدراكها وتحصيلها، مع علمنا الأكيد أن هذه الدنيا دار ممر وليست دار مقرٍّ، وأن الأعمال الصالحة هي التي ستبقى، ونسعد بحصول الأجر والثواب، فتجد كثيراً من الناس إلا من رحم الله يتوانى عن القيام إلى الصلاة مثلاً، وإذا قام إليها أداها بسرعةٍ مخلةٍ بها، لا يطمئن في صلاته، ولا يتمهل فيها، وربما كان بدنه حاضراً وقلبه غائباً، يجول في دنياه، فيخرج من صلاته لا يعقل منها شيئاً، ولو طلب منه أن يعمل لدنياه لتمهل وحَرِص وأشغل فكره وبدنه لذلك، ولو أضاع من أجله الوقت الكثير.

فمن محاسن الإسلام الإنصاف والعدل بين أمور الدين والدنيا، يقول سبحانه: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ ﴾ [القصص: ٧٧]، ويقول سبحانه: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الكهف: ٤٦].

ومثال آخر يوضح عدالة الإسلام وإنصافه، وتلك من ميزات الإسلام ومحاسنه: أنه يطلب من المسلم أن يؤدي زكاة ماله فيبخل في ذلك ويشح

عليه، وإذا أخرجها فربما يخرجها على وجهٍ ناقصٍ لا تبرأ به الذمة، ولكنه مع ذلك يسهل عليه غاية السهولة أن يبذل المال في أمور دنياه، التي ربما كانت وبالاً عليه ونقصاً في دينه.

فما أكثر ما يبذله الإنسان من ماله في الأمور الكماليات التي يترفه بها ويتنعم، وما أقل ما يبذله من ماله فيما يجب عليه من زكاة وكفارات ونفقات الأهل والأقارب، فهل هذا من العدل والإنصاف؟ بعض الناس هداهم الله يصعب عليه أن يبذل ماله وبدنه في الحج إلى بيت الله الحرام، ولكنه يسهل عليه أن يبذل ماله وجهده وبدنه في السياحة إلى البلاد يميناً وشمالاً، وربما كانت سياحةً يغيب بها عن أهله وولده، فيضيع عليهم فرصة وجوده عندهم وتأديبه لهم، وهكذا لاسيما إذا طالت المدة، وهذا ليس من العدل والإنصاف.

وهكذا كلما نظرنا في أمرنا وجدنا أن الكثير يقصرون في أعمال الآخرة، ويسرفون في أعمال الدنيا، ويغالون في ذلك، وليس هذا من العدل، وهذا يشوه محاسن الإسلام، بل لابد من العدل والإنصاف، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [النازعات: ٣٧ – ٤١]، وقال تعالى: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾

وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٦ – ١٧].

من محاسن الإسلام: أن الله سبحانه الحكيم الخبير لم يطلب من عباده أن يتركوا الدنيا، ولكن المطلوب هو عدم إيثار الدنيا على الآخرة، اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً، فالدنيا مزرعة للآخرة، وهي دار ممر وليست دار مقر، وهذا غيض من فيضٍ مما يزخر به كتاب الله وسنة رسوله وآثار السلف في ذكر محاسن الإسلام وشموله وصلاحيته لكل زمان ومكان.

رفع الحرج في الشريعة الإسلامية

رفع الحرج في الشريعة الإسلامية مقصد أسمى وغاية عظمى، لها ضوابط وقواعد، ذكرها الفقهاء والأصوليون، لابد من شرحها وتوضيحها، ليظهر المقصود من ذلك، فالحرج معناه: هو كل ما أدى إلى مشقة زائدة في البدن أو النفس أو المال: حالاً أو مآلاً – والمقصود برفع الحرج: إزالة ما يؤدي إلى هذه المشاق الموضحة في التعريف.

يقول د. صالح بن عبد الله بن حميد: حين النظر في مواطن التخفيف واليسر ورفع الحرج لابد من معرفة أمور لابد من اعتبارها:

الأول: أن رفع الحرج والسماحة والسهولة راجع إلى الاعتدال والوسط، فلا إفراط ولا تفريط، فالتنطع والتشديد حرج في جانب عسر التكليف، والإفراط والتقصير حرج فيما يؤدي إليه من تعطيل المصالح وعدم تحقيق مقاصد الشرع، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

فالتوسط هو منبع الكمالات، والتخفيف والسماحة ورفع

الحرج على الحقيقة هو في سلوك طريق الوسط والعدل.

الثاني: إن رفع الحرج واليسر في الإسلام وإن كان شاملاً لجميع أحكام الشريعة وفي كافة مجالاتها، إلا أنه ليس غاية في ذاته، وإنما هو وسيلة واقعة في طريق الامتثال لأوامر الله تعين على تحقيق الغاية.

فالإسلام هو الاستسلام لأوامر الله والانصياع لشرعه، فالمطلوب هو الطاعة وتحقيق العبودية لله وحده.

وتحقيق مراد الشرع كذلك: من جلب المصالح ودرء المفاسد، فإن المقصد العام من التشريع هو: حفظ نظام العالم واستدامة صلاحه بصلاح المستخلفين في عقيدتهم وعبادتهم وكافة شئون حياتهم، وما بين أيديهم من موجودات العالم، الذي يعيشون فيه.

وفي القرآن الكريم عن بعض رسل الله: ﴿ **إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ** ﴾ [هود: ٨٨]، ويقول تعالى مبيناً حال بعض المفسدين: ﴿ **وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾** ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، فالمطلوب هو الطاعة وتحقيق العبودية لله وحده، وبذل منتهى

الاستطاعة في الإصلاح، واستعمار الأرض وبنائها، فالذي يتلمس التخفيف ويتبع مواطن الرخص ورفع الحرج، بعيداً عن الغاية الحقيقية من تمام العبودية وخالص الخضوع والطاعة لله وحده.

والسعي في جلب المصالح ودرء المفاسد، وإنما عليه أن يأخذ بالسهل من الأمور – قد يؤدي إلى الانسلاخ من الأحكام، والابتعاد عن الشرع، والتهاون في مسائل الحلال والحرام في المطاعم والمشارب والمعاملات المالية وغيرها، مدعياً: لا حرج في الدين. فقد أخطأ وضل السبيل.

فلا يجوز أن تنقلب الوسائل غايات، أو أن تتغلب الوسائل على الغايات، فكل ما يتقرب في هذا الموضوع المذكور آنفاً من تخفيف ويسر يجب أن لا يطغى أو يشوش على المقصد الحقيقي من مقاصد الشرع، وهو الإصلاح في كافة مجالاته، وفي حدود ما رسم الشرع.

الثالث: إن الجزاء في الإسلام دنيوي وأخروي: والجزاء الأخروي يتناول كافة أعمال ابن آدم الظاهرة والباطنة، ومنها ما لا يمكن الوصول إليه من قبل الحكام والقضاة: كالجحود والكتمان

والغش والخداع، مما قد لا يتوصل إليه بالإجراءات القضائية، يضاف إلى ذلك أن أحكام الإسلام هي من عند الله، وليست من وضع البشر.

ومن أجل هذا فإن لها أهميتها واحترامها، والخوف من الجرأة على مخالفتها، ولهذا نجد عند المسلم وازعاً من نفسه، يدعوه إلى الاستقامة وعدم المخالفة، واحترام الأحكام الشرعية، لأنها من عند الله، الذي يعلم السر وأخفى، ويعلم المفسد من المصلح.

إذا كان الأمر كذلك فينبغي أن يكون عند المسلم من المانع ما يثنيه عن الإقدام على مواطن الرخص، والأخذ بالأيسر، وهو مما لا يسوغ له ذلك، أو أن يلبس على المفتي أو القاضي، فيحكي غير الواقع، وقد علم أنهما يجيبان على نحو مما يسمعان، والمستفتي أو المتقاضي هو الذي يعلم خفايا وقائعه وقضاياه، وهو الذي يرجو رحمة الله ويخشى عقابه.

هذه مقدمات ثلاث لابد من اصطحابها واستحضارها عند النظر في مواطن التخفيف ورفع الحرج.

الحرج: كل ما أدى إلى مشقةٍ زائدةٍ في البدن أو النفس أو المال: حالاً أو مآلاً، والمقصود برفع الحرج إزالة ما يؤدي إلى هذه المشاق الموضحة في التعريف.

أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: الحرج الضيق، لم يجعله ضيقاً، ولكنه جعله واسعاً، أحل لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع وما ملكت يمينك، وحرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير.

وعن مقاتل بن حيان: لم يضيق عليكم، ولكن جعله واسعاً لمن دخله، وذلك أنه ليس مما فرض عليهم فيه إلا وقد ساق إليهم عند الاضطرار رخصة.

فرض عليهم الصلاة في المقام أربع ركعات، وجعلها في السفر ركعتين، وعند الخوف من العدو ركعة، ثم جعل رخصة أن يؤتى إيماءً إن لم يستطع السجود في أي نحو كان وجهه.

وجعل في الوضوء رخصة إن لم يجد الماء أن يتمموا الصعيد.

وجعل الصيام على المقيم واجباً، ورخص فيه للمريض والمسافر عدةً من أيامٍ آخر فيمن لم يطق فإطعام مسكين مكان كل يوم.

وجعل في الحج رخصة إن لم يجد حملاناً أو حُبس دونه.

وجعل في الجهاد رخصة إن لم يجد حملاناً أو نفقة.

وجعل عند الجهد والاضطرار من الجوع الرخصة في الميتة والدم ولحم الخنزير قدر ما يرد نفسه، لا يموت جوعاً ف أشباره.

هذا في القرآن وسعه الله على هذه الأمة رخصة منه، ساقها إليهم، كما

فسر بأنه ما حُط من الأصر والأغلال عن هذه الأمة مما وضع على بني إسرائيل، وفسر كذلك بأنه حُط الجهاد عن الأعمى والمريض والعديم الذي لا يجد ما ينفق في غزوه والغريم ومن له والدان.

وكل هذه تفسيرات جزئية تؤخذ من سياق الآيات الوارد فيها ذكر الحرج، وكما يلاحظ فليس بينها تباين، بل إن مسمى الحرج يشملها، وأوسع منها من كل ما يدخل في معنى الضيق والإثم.

ويقول البقاعي في تفسيره نقلاً عن الحرائي – اليسر عمل لا يجهد النفس، ولا يثقل الجسم، والعسر ما يجهد النفس ويضر بالجسم، وبهذا يتبين سماحة الإسلام ومحاسن الشريعة الإسلامية في عدم تكليف النفس بما لا تطيقه، بل قد رفع الله سبحانه الحرج عن هذه الأمة في كثير من الأشياء.

وما تقدم يعتبر نماذج من جزيئات ذكرها الشارع في التخفيف عن هذه الأمة الإسلامية المرحومة، وتميزها عن غيرها من الأمم، بحيث وضع الله عنها الآصار والأغلال، وتلك نعمة من الله مَنَّ بها على هذه الأمة الإسلامية.

رفع الحرج في الشريعة الإسلامية

من محاسن الإسلام رفع الحرج، والحرج هو كل ما أدى إلى مشقة زائدة في البدن أو النفس أو المال حالاً ومآلاً.

والمقصود برفع الحرج إزالة ما يؤدي إلى هذه المشاق الموضحة في التعريف، ويتوجه الرفع والإزالة إلى حقوق الله ﷻ، لأنها مبنية على المسامحة، ويكون ذلك إما بارتفاع الإثم عند الفعل، وإما بارتفاع الطلب للفعل.

وحينما يرتفع كل ذلك ترتفع حالة الضيق التي يعانيها المكلف حينما يستشعر أنه يُقدم على ما لا يرضي الله، وهذا هو الحرج النفسي والخوف من العقاب الأخروي، كما يرتفع الحرج الحسي حينما يكون التكليف شاقاً، فيأتي العفو من الله ﷻ: إما بالكف عن الفعل الموقع في الحرج، وإما بإباحة الفعل عند الحاجة إليه.

ففي قوله ﷺ حينما سئل عن الترتيب بين أعمال يوم النحر من الرمي والحلق والطواف والنحر: «افعل ولا حرج»[1] إباحة لترك الترتيب بين

(١) أخرجه البخاري (رقم ٨٣)، ومسلم (رقم ١٣٠٦).

هذه الشعائر.

ورفع للإثم عمن لم يرتب كترتيب رسول الله ﷺ في نسكه، حينما قال: «خذوا عني مناسككم»[1]، بل إنه ما سئل ﷺ عن شيء يومئذ قُدِّم ولا أُخِّر إلا قال: «افعل ولا حرج» الحديث في الصحيحين، وفي قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾...الآية [التوبة: ٩١].

وقوله تعالى في سورة الفتح: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [الفتح: ١٧]، إباحة للتخلف والقعود لأصحاب هذه الأعذار من الضعف والمرض والعمى والعرج والعجز عن الإنفاق في الجهاد، لعدم غنائهم فيه، وتكليفهم ما يشق عليهم، وفيه أيضاً رفع الإثم عنهم في تخلفهم عن داعي الجهاد.

وكل نصوص الحرج من الكتاب والسنة فهي لا تكاد تخرج عن هذا المعنى، والمقصود بالرفع ما يشمل الإزالة بعد الوقوع والمنع قبل الحصول.

وقد جاء في الحديث: «رفع القلم عن ثلاثة: عن المجنون المغلوب على

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٢٩٧).

عقله حتى يبرأ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم»[1].

ومعلوم أن الصبي لم يتوجه إليه تكليف، ومثله المجنون إذا بلغ مجنوناً، إذ لم يتوجه إليه تكليف، وعليه فإن الرفع لا يستدعي تقدم وضع، وأما منع الحرج قبل حصوله فيظهر جلياً فيما شرع من الأحكام الشرعية مخففاً ابتداءً، إذ لا يطلق عليه الرفع من هذا الباب.

جاء في القرآن الكريم آيات كريمة منها النص على نفي الحرج عن هذا الدين آيتان منها تنفي الحرج عن الدين كله وبخاصة آية الحج، والآيات الأخرى تنفي الحرج عن فئات معينة وفي حالات خاصة، وهذا لا يعني أنها قاصرة في الدلالة على ما نصت عليهم الآيات.

كما سيتضح من كلام أهل العلم، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، قال تعالى في سورة المائدة: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦]، هذا جزء من آية كريمة في سورة المائدة جاء ختاماً للكلام عن أحكام الوضوء والغسل من الجنابة والتيمم عند فقد الماء أو العجز عن استعماله، مما يبين أن الغاية في هذه التشريعات ليس الإعنات والمشقة، وإنما هو تكليف مع تخفيف

(١) صححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٣٥١٢).

للتطهير وإتمام النعمة.

قال تعالى في سورة الحج: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ﴾ [الحج: ٧٨]، هذا جزء من آية كريمة جاء تعقيباً بعد ما أمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بالركوع والسجود والإتيان بمجمل الطاعات من العبادة، وفعل الخير، والمجاهدة في الله حق جهاده، حيث يقول عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ﴾ [الحج: ٧٧ – ٧٨].

يقول أهل التفسير في هاتين الآيتين من المائدة الحج: إن الله سبحانه وتعالى ما كلف عباده ما لا يطيقون، وما ألزمهم بشيء يشق عليهم، إلا جعل الله لهم فرجاً ومخرجاً، صح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إنما ذلك سعة الإسلام، وما جعل الله فيه من التوبة والكفارات، فليس هناك ضيق إلا وفيه مخرج ومخلص، فمنه ما يكون بالتوبة، ومنه ما يكون برد المظالم، فليس في دين الإسلام ما لا سبيل إلى الخلاص من عقوبته.

ولقد كانت الشدائد والعزائم في الأمم فأعطى الله هذه الأمة من المسامحة واللين ما لم يعط أحداً قبلها رحمةً من الله وفضلاً، فأعظم حرج

رفع المؤاخذة بما نبدي في أنفسنا ونخفيه وما يقترن به من أصرٍ وضع عنا، وتوبتنا تكون بالندم والعزم على ترك العودة والاستغفار بالقلب واللسان، أما من قبلنا فقيل لهم: ﴿ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾ [البقرة: ٥٤].

يقول ابن العربي: ولو ذهبت إلى تعديد نعم الله في رفع الحرج لطال المرام.

ويقول الطوفي الحنبلي: وذلك عام مطرد، لأن الله ﷻ لم يشرع شرعاً إلا وأوسع الطريق إليه، ويسره حتى لم يبق دونه حرج ولا عسر، قال: ويحتج بهذه الآية ونحوها من رأي أنه إذا تعارض في مسألة حكمان اجتهاديان: خفيف وثقيل، يرجح الخفيف دفعاً للحرج، وقوله تعالى: ﴿ لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩١﴾ ﴾ [التوبة: ٩١].

هذه الآية أصل في سقوط التكليف عن العاجز، فكل من عجز عن شيء سقط عنه، فتارة إلى بدل هو فعل، وتارة إلى بدل هو عزم، ولا فرق بين العجز من جهة القوة، والعجز من جهة المال، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقوله: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾[التوبة: ٩١]، تقرير لما سبق من نفي الحرج والإثم عليهم، وأنه لا سبيل عليهم، فهم بنصحهم لله ورسوله قد انتظموا في سلك المحسنين، والله غفور رحيم – تذييل مرشد لمضمون ما سبق من نفي الحرج والسبيل – غفور – يصفح عن عباده ما اقترفوه من الإثم، لضعفهم أمام هوى نفوسهم، ثم رجوعهم إلى الله بالتوبة والعمل الصالح – رحيم – في تشريعاته وأحكامه وتيسيره على عباده، فالدين كله يسر وسهولة في التشريع ابتداءً، وفتح أبواب الرحمة والمغفرة حين اقتراف المنهيات إذا أعقبتها التوبة الصادقة.

الآيات في رفع الحرج في الشريعة الإسلامية

كان الكلام سابقاً عن الآيات التي فيها النص على نفي الحرج عن هذا الدين، وعمن يصيبهم الحرج بسبب الأمراض أو العاهات أو الحالات الخاصة، وأن ذلك من محاسن الإسلام في رفع الحرج عنهم، ونتكلم عن آيات التيسير والتخفيف والرحمة.

وهذه الأوصاف لا يمكن أن تجامع الحرج فهي جلية بحمد الله في الدلالة على ما نحن بصدده من بيان رفع الحرج ونفيه عن هذه الشريعة، وهي آيات كثيرة، ولكن نقتصر على طائفة منها واضحة في الدلالة مع تقريرات أهل العلم عليها:

يقول تعالى في أحكام الصيام: ﴿ **يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [البقرة: ١٨٥] تبين هذه الآية الكريمة أن الله ﷻ أراد بتشريعه الأحكام اليسر، واليسر كل ما لا يجهد النفس ولا يثقل الجسم، أما العسر فهو ما يجهد النفس أو يضر الجسم، وقوله تعالى: ﴿ **وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ** ﴾ [البقرة: ١٨٥]، تأكيد

لإرادة اليسر، ويقول سبحانه: ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ [الأعلى: ٨]، أي الحنيفية السمحة السهلة، التي هي أيسر الشرائع، وأوفقها بحاجة البشر مدى الدهر، وقوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النساء: ٢٨]، والآية الكريمة وردت بعد بيان المحرمات في النكاح، وما أبيح من نكاح الإماء عند العجز، لذا فقد رأى بعض العلماء أن المراد من التخفيف إباحة نكاح الإماء عند الضرورة، وأن الضعف في الإنسان هو الضعف أمام الشهوة الجنسية.

والقول الصحيح الذي صرح به كثير من المفسرين أن المراد عموم التخفيف في الشريعة، وذلك ينبني على ضعف الإنسان أمام رغباته ومغريات الحياة، فالله سبحانه يريد لهذا المخلوق الضعيف التخفيف والرحمة واليسر، ورفع الحرج والمشقة، وإزالة الضرر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وفي هذه الآية الكريمة بيان أن الله سبحانه وتعالى لا يكلف النفس إلا في حدود

قدرتها الميسرة دون بلوغ غاية الطاقة، والوسع ما يسع الإنسان فلا يعجز عنه، ولا يضيق عليه ولا يحرج فيه. وقد عرف الله عباده المؤمنين مواقع نعمه من دعاء رتبه على الأخف فالأخف على سبيل التعليم إعلاماً بأنه لم يؤاخذهم بما اجترحوه نسياناً، ولا بما قارفوه خطأ، ولا حمل عليهم ثقلاً، بل جعل شريعتهم خفيفة سمحة، ولا حملهم فوق طاقتهم، مع أنه له جميع ذلك، وأنه عفا عنهم في سترهم، فلم يخجلهم بذكر سيئاتهم.

وقد ذكر الله سبحانه عن أصحاب الجنة في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأعراف: ٤٢]، فقوله تعالى: ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ ﴾ [الأعراف: ٤٢] بيان للعمل الصالح الموصل إلى الجنة، وأنه سهل وميسر في حدود وسع البشر.

قال الرازي: وفيه تنبيه على أن الجنة مع عظم محلها يوصل إليها بالعمل الصالح من غير تحمل الصعب، ولاشك أن في ذلك ترغيباً في اكتساب ما يؤدي إلى النعيم المقيم ببيان سهولة مناله وتيسر حصوله، فإذا علم أن مبنى التكليف على الوسع زادت الرغبة في ذلك الاكتساب لحصوله على وجه اليسر دون العسر.

ويقول سبحانه في الآية الأخرى بعد أن ذكر أعمال المؤمنين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [المؤمنون: ٥٧ – ٦٢]، وذلك لبيان أن هذه الأوصاف من فعل الطاعات المؤدية إلى نيل الخيرات، هي طريق سهل غير خارج عن حد الوسع والطاقة المعتادة، فسنة الله جارية على أنه لا يكلف النفوس إلا ما في وسعها، لا ما يحرجها ولا ما يعجزها.

ولاشك أن الأحكام الشرعية إذا كانت مطلوبة في حدود الوسع والاستطاعة دون بلوغ غاية الطاقة، ففي ذلك الدلالة الظاهرة على أن الحرج مرفوع، وأن الشريعة مبنية على التيسير وعدم التعسير، فهي حنيفية سمحة سهلة، فلله الحمد والمنة.

يضاف إلى ذلك ما ورد في القرآن الكريم مما يجل عن الحصر وخاصة في مثل هذا المقام من النص والإشارة والتنبيه على أن هذا القرآن رحمة وشفاء، وأن الشريعة رحمة للعالمين، وأن هذا النبي هو نبي الرحمة، ودينه دين الرحمة، وهو قد جاء ليخفف ويضع الإصر عن أتباعه مما كان على الأمم السابقة.

وهذا إشارة إلى طائفة من الآيات الكريمة في هذا الموضوع، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝﴾ [يونس: ٥٧ – ٥٨]، ويقول سبحانه عن نفسه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩]، ويقول في وصف نبيه ﷺ: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال سبحانه: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧]، وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ۝﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فالله سبحانه وصف نفسه بالرحمة وكتابه قد نزل بالرحمة، ونبيه عليه الصلاة والسلام رؤوف رحيم يعز عليه ما يشق على أمته، أرسله ربه رحمة للعالمين، لاشك أن كل ذلك لا يمكن أن يجامع الحرج والأمر به كل ذلك بين ظاهر.

من خلال هذه الآيات السابقة يتبين سماحة الإسلام وحسنه وشموله لجميع مطالب الحياة، وأنه يشتمل على التيسير، ويجانب العنت والمشقة

والحرج، فلا إفراط ولا تفريط، ولا غرابة في ذلك، فقد نزل من لدن خبير يعلم مصالح العباد في دينهم ودنياهم ومعاشهم ومعادهم، فلله الحمد رب العالمين.

نماذج من الأدلة من السنة النبوية
في رفع الحرج في الشريعة الإسلامية

تقدم فيما مضى أن من محاسن الإسلام رفع الحرج والعنت عن هذه الأمة الإسلامية المرحومة، وبيان يسر الإسلام وسماحته ورفع الحرج في توسط، فلا إفراط ولا تفريط في كلا الأمرين، كما تقدم نماذج من الآيات في ذلك مع شرح المفسرين رحمهم الله لذلك.

وسنلقي الضوء بإذن الله تعالى بنماذج من الأدلة من السنة النبوية، فلقد نعت الله سبحانه نبيه ﷺ بأنه رحيم بأمته، يعز عليه كل ما فيه مشقة عليهم، وكما ثبت ذلك في كتاب الله عز وجل، وظهر ذلك واضحاً في السنة النبوية المطهرة في أقواله عليه الصلاة والسلام وأفعاله، وجميع جوانب سيرته ﷺ، بل كان عليه الصلاة والسلام يخشى أن يكون قد أمر أمته أو سلك بهم طريقاً فيه مشقة أو إعنات.

كما كان عليه أفضل الصلاة والسلام ينهى أصحابه عن سلوك طريق التعمق والتشديد، وقد وردت أحاديث عن المصطفى ﷺ تبين أن الدين كله يسر لا عسر فيه ولا حرج، وفيه ما يتعرض لقضايا جزئية كبعض أحكام

الصلاة والصيام ونوافل العبادات، ولاشك أن كل ذلك يدل بمجموعه دلالة قاطعة على رفع الحرج عن هذا الدين، وبعده عن العسر والمشقة.

كما تبين هذه الأحاديث التي سنعرضها منهجاً عاماً تسير عليه الشريعة الإسلامية في معالجة أمور الناس وقضاياهم حسب قدراتهم وأحوالهم وحاجاتهم ومشاغلهم والبداءة في حقوقهم وحقوق غيرهم بالأهم فالمهم.

في بيان يسر هذا الدين وسماحته ورفع الحرج عنه أحاديث منها ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده والطبراني والبزار وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قيل: يا رسول الله أي الأديان أحب إلى الله؟ قال: «الحنيفية السمحة»[1] وأخرجه البزار من وجهٍ آخر بلفظ أي الإسلام؟ قال ابن حجر: إسناده حسن وقد أخرجه البخاري في صحيحه تعليقاً ووصله في الأدب المفرد.

وعن أسامة بن شريك رضي الله عنه قال: شهدت الأعراب يسألون النبي صلى الله عليه وسلم أعلينا حرج في كذا؟ أعلينا حرج في كذا؟ فقال: «عباد الله وضع الله الحرج إلا امرءًا اقترض امرءًا ظلما، فذاك يحرج ويهلك»[2] الحديث أخرجه الإمام

(١) أخرجه البخاري معلقاً في كتاب الإيمان، باب الدين يسر، ولفظه: «أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة» ص (٣١) طبعة بيت الأفكار الدولية.

(٢) صححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٣٩٧٣).

أحمد وابن ماجه والترمذي وصححه والنسائي والبخاري في الأدب المفرد وصححه أيضاً ابن خزيمة والحاكم.

فهذه الأحاديث تبين سماحة شريعة الله، وأن الله سبحانه قد وضع الحرج عن هذه الأمة، وقد أجاب النبي ﷺ في حديث عروة عن نفي الحرج باليسر، وأن دين الله هو اليسر، مما يوضح أن الحرج واليسر لا يجتمعان.

فكل ما جاء في شريعة الله من يسر فهو رفع للحرج، وكل ما فيه حرج فهو العسر المنفي من هذا الدين وأحكامه.

ويقول ﷺ في حديث محجن بن الأدرع: «إن الله تعالى رضي لهذه الأمة اليسر، وكره لها العسر»[1].

ويقول ﷺ: «إن الله لم يبعثني معنتاً ولا متعنتاً ولكن بعثني معلماً ميسراً»[2].

وقال ﷺ لمعاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري لما بعثهما إلى اليمن: «يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا»[3].

---

(١) صححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ١٧٦٩).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٤٧٨).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣٠٣٨)، ومسلم (رقم ١٧٣٣).

ويقول ﷺ في الحديث الآخر: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وابشروا»(١).

وفي حديث محجن بن الأدرع عند أحمد: «أنكم لن تنالوا هذا الأمر بالمغالبة وخير دينكم اليسرة»(٢).

والمعنى لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز وانقطع، فيغلب، وليس المراد منع طلب الأكمل في العبادة، فهذا من الأمور المحمودة، وإنما الممنوع الإفراط المؤدي إلى الملال، ولذا قال: «فسددوا» أي ألزموا السداد، وهو الصواب بدون إفراط ولا تفريط، وقاربوا أي اعملوا بما يقرب من الأكمل وإن لم تبلغوا.

ثم قال: «وابشروا» أي بالثواب على العمل الدائم وإن قل، فطريق الجنة ليس في التعمق والتشدد، وهو يفسر المراد من قوله سبحانه في وصف أصحاب الجنة الذين عملوا الصالحات: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ [الأعراف: ٤٢].

وروى الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً: «إن الله شرع الدين فجعله سهلاً سمحاً واسعاً ولم يجعله ضيقاً»(٣)، وفي مسند أحمد من حديث

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٩)، ومسلم (رقم ٢٨١٦).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٣٣٧).

(٣) لم أجده.

الأعرابي بسندٍ صحيحٍ «إن خير دينكم أيسره – إن خير دينكم أيسره»[1]، وهو عليه الصلاة والسلام ما خُير بين أمرين إلا أختار أيسرهما ما لم يكن إثماً.

هناك بعض القضايا الخاصة في مسائل الأكل والشرب ومناسبات الأعياد، بَين فيها النبي ﷺ الفسحة في الدين والتمتع بالمباحات، خلافاً لما عليه اليهود والنصارى، الذين سلكوا مسلك التشدد والرهبانية والبقاء في الصوامع، وما رعوا ذلك حق رعايته.

فقد جاء في مسند أحمد وغيره أن عليًّا الطائي سأل رسول الله ﷺ عن طعام النصارى، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا يختلجن في صدرك طعام ضارعت فيه النصارى»[2]، وفي رواية أخرى عن عدي بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله إني أسألك عن طعام لا أدعه إلا تحرجاً قال: «لا تدع شيئاً ضارعت فيه نصرانية»، وفي رواية: «ما ضارعت فيه نصرانية فلا تدعه».

ومعنى الحديث: لا يدخل في قلبك ضيق وحرج، لأنك على الحنيفية السمحة السهلة، فإذا شككت وشددت على نفسك بمثل هذا شابهت

(١) أخرجه أحمد (٤/٣٣٨) (٥/٣٢).

(٢) حسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٦٦٣).

فيه الرهبانية.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فجمع بين كونها حنيفية في التوحيد وسمحةً في العمل. قال: وضد الأمرين الشرك وتحريم الحلال، وعن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا تحدث أن حبشاً كانوا يلعبون بحرابٍ لهم قالت: فكنت انظر من بين أذني رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعاتقه، حتى كنت الذي صددت. وفي رواية: انصرفت قالت: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «العبوا يا بني أرفدة، ليعلم اليهود والنصارى إن في ديننا فسحة، إني بعثت بحنيفية سمحةٍ»[1]، وبنو أرفدة لقب للأحباش.

فالنبي عليه الصلاة والسلام قد صرح بالقصد إلى الفسحة والتوسعة والسهولة، مشيراً إلى ما كانت عليه شرائع اليهود والنصارى من الأغلال والآصار، التي منبعها تشديدهم على أنفسهم وتعنتهم على أبنائهم، أما نحن فعلى الملة الحنيفية في التوحيد، السمحة في العمل.

وفي خشية المصطفى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يكون قد شق على أمته ثبت عنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جملة أحاديث تدل على شفقته التامة على أمته، وخشيته أن يكون قد جلب عليها ما يعنتها أو يشق عليها، وتجنبه كل طريق يؤدي إلى ذلك، يقول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إني لأقوم إلى الصلاة، وأنا أريد أن أطول فيها،

(١) أخرجه مسلم (١١٦/٦، ٢٣٣.

فأسمع بكاء الصبي، فأتجوز كراهية أن أشق على أمه»[1]، وعن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك»[2].

(١) أخرجه البخاري (رقم ٨٦٨).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٨٨٧)، ومسلم (رقم ٢٥٢).

من مناهج الصحابة ﭫ في رفع الحرج

صحابةُ رسولِ اللهِ ﷺ هم الفئةُ الذين اختارَهمُ اللهُ ليشاهدِوا تنزُّلَ الوحي، ويسمعُوا من رسولِ الله ﷺ أقوالَه، ويشاهدُوا أفعالَه، ويأتمروا بأوامرِه مباشرةً، ويسترشدُوا بتوجيهاتِه ويقتدُوا بتطبيقاتِه، فهم الذين عاشوا عصرَ النبوةِ كما عاشُوا الإسلامَ خالصاً نقيّاً؛ لذا فإنَّ أفعالَهم وأقوالَهم نماذجُ عمليةٌ تُحتَذَى لإرادةِ تطبيقِ الإسلامِ النقي الصافي يظهرُ فيهِ سماحةُ الإسلامِ ويسرُهُ ومحاسنُهُ الكثيرةُ المتعددةُ.

يقولُ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ ﭬ في وصفِ منهجِ إخوانِهِ من الصحابةِ والاقتداءِ بهم: من كانَ منكمْ مستنًّا فليستنَّ بمن قدْ ماتَ، فإن الحيَّ لا تؤمنُ عليهِ الفتنةُ، أولئكَ أصحابُ محمدٍ ﷺ كانوا أفضلَ هذهِ الأمةِ، وأبرَّها قلوباً، وأعمقَهَا علمَاً، وأقلَّها تكلفَاً، اختارهمُ اللهُ لصحبةِ نبيهِ ولإقامةِ دينهِ، فاعرفُوا لهم فضلَهُم واتبعُوهم على أثرِهِم وسيرتِهم، فإنَّهم كانُوا عَلى الهُدَى المستقيمِ(١).

---

(١) قال الألباني טּ: أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/٩٧)، =

ويقولُ أيضاً: (إياكم والتعمَّقَ وعليكم بالعتيقِ)، يعني ما كانَ عليهِ رسولُ اللهِ ﷺ وأصحابُهُ.

ويقولُ أنسُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه: كنَّا عندَ عمرَ رضي الله عنه فسمعتُه يقولُ: نُهينَا عن التَّكَلُّفِ، وهذه الصيغةُ وإن كانَ لهَا حكمُ المرفوعِ كمَا هو معلومٌ في مصطلحِ الحديثِ غيرَ أنَّها تدلُّ على أنَّ البعدَ عن التكلفِ هوَ منهجُ عمرَ رضي الله عنه وغيرِه منَ الصحابةِ، يقولُ بهِ ويدعُو إليهِ اقتداءً بالقدوةِ والأسوةِ الحسنةِ محمدٍ ﷺ، الذي أوحى إليه ربُّه ﴿ **قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾** ﴾ [ص: ٨٦].

وقالَ ابنُ أبي شيبةَ: «حدثنَا أبو أسامةَ عن مسعرَ قال: أخرجَ إليَّ معنُ ابنُ عبدِ الرحمنِ كتاباً وحلفَ باللهِ أنَّه خطُّ أبيهِ، فإذا فيهِ: قال عبد الله — يعني ابنَ مسعودٍ —: «واللهِ الذي لا إلهَ غيرُهُ ما رأيتُ أحداً كانَ أشدَّ خوفاً عليهم من أبي بكرٍ، وإني لأظنُّ عمرَ رضي الله عنه كانَ أشدَّ أهلِ الأرضِ خوفاً عليهم، هؤلاءِ همْ أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ.

وهذا هو منهجُهم، صلاحٌ في القلوبِ، ورسوخٌ في العلمِ، وبعدٌ

=والهروي (ق ١/٨٦) من طريق قتادة عنه، فهو منقطع. انظر: مشكاة المصابيح (١/٦٧ — ٦٨ رقم ١٩٣).

عنِ التكلفِ، ومقاومةٌ للتنطعِ والتشددِ، لقدْ كانوا على الهدى المستقيمِ والطريقِ الواضحِ.

يقولُ ابنُ مسعودٍ ﵁: «أيُّها الناسُ من سُئِلَ عنْ علمٍ يعلمُهُ فليقل بهِ، ومن لم يكنْ عندَهُ علمٌ فليقل: اللهُ أعلمُ، فإنَّ منَ العلمِ أن يقولَ لما لا يعلمُ: اللهُ أعلمُ، فإنَّ اللهَ تباركَ وتعالىَ قالَ لنبيهِ ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [ص: ٨٦].

فالتنطُّعُ والتكلُّفُ والتصدي للإجابةِ عن كلِّ شيءٍ لإظهارِ العلمِ والفقهِ في الدينِ ليسَ من الدينِ في شيءٍ، لأنَّهُ قد يؤدي إلى تحريمِ حلالٍ أو تحليلِ حرامٍ.

وأعظمُ المسلمينَ جرْمَاً من سألَ عن شيءٍ لم يحرَّمْ فحُرِّمْ من أجلِ مسألتِهِ، كما جَاءَ في الحديثِ.

ومن هنا كان الصحابةُ يجتنبونَ الفتوى كما يجتنبونَ الاستفصالَ عن أمورٍ قد توقعُ في لبسٍ وإشكالٍ، والأمرُ في الإسلامِ أيسرُ من ذلكَ.

جاءَ في موطأِ الإمامِ مالكٍ ﵀ أن عمرَ ﵁ خرجَ في ركبٍ فيهم عمرو بن العاص حتى وردُوا حوضاً، فقال عمرو: يا صاحبَ الحوضِ هل تردُ حوضكَ السباعُ؟، فقال عمرُ ﵁: لا تخبرنَا، فإنا نردُ على السباعِ وتردُ

علينَا[1]. وحادثةٌ أخرى مع عمرَ ﷺ فقد مرَّ معَ صاحبٍ له فسقطَ عليهِ شيءٌ من ميزابٍ فقالَ صاحبُه: يا صاحبَ الميزابِ ماؤُكَ طاهرٌ أو نجسٌ؟ فقال عمرُ: يا صاحبَ الميزابِ لا تخبرنَا، ومضى، ذكره أحمد.

ويُحمَلُ تركُ الاستفصالِ في هذا لأنه لم يرَ ما يدعُو إلى ذلكَ من تغيرٍ في لونِ الماءِ أو رائحتِهِ أو نحوِ ذلكَ، وعمرُ طرحَ الشكَّ وعملَ بالأصلِ وهو الطهارةُ.

وجاءَ في الصحيحين وغيرِهما عن أنسِ بنِ مالكٍ ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ رأى شيخاً يهادَى بينَ ابنيه، قال: «ما بالُ هذا؟!» قالوا: نذرَ أن يمشيَ، قال: «إن اللهَ عن تعذيبِ هذا نفسَه لغنيٌّ» وأمرَهُ أن يركبَ[2]، وفي روايةٍ لمسلمٍ وأبي داود: «اركبْ أيُّها الشيخُ، فإنَّ اللهَ غنيٌّ عنكَ وعن نذرِكَ».

حينمَا علِمَ ﷺ بقصدِ الرهطِ الذين جاءُوا إلى بيوتِ النبي ﷺ يسألونَ عن عبادته ﷺ كأنَّهم تقالُّوها، فقالَ أحدُهم: أمَّا أنَا فأصومُ ولا أفطرُ، وقالَ الآخرُ: أمَّا أنَا فأصلي الليلَ أبداً، وقال الآخرُ: لا أتزوجُ النساءَ، فقال عليه الصلاةُ والسلامُ: «أأنتم الذين قلتمْ كذَا وكذَا؟!! أمَا

---

(١) أخرجه مالك (رقم ١٤/٤٧) وقال الألباني في تحقيق المشكاة (رقم ٤٨٦): إسناده صحيح.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٨٦٥)، ومسلم (رقم ١٦٤٢).

واللهِ إني أخشَاكُم للهِ واتقاكُم له، لكنِّي أصومُ وأفطرُ، وأصلي وأرقدُ، وأتزوجُ النساءَ، فمن رغبَ عن سنتي فليسَ منِّي»[1].

هذه نماذجُ من سنةِ المصطفى ﷺ مما يؤكدُ سيرَ الشريعةِ على هذا الطريقِ السهلِ، وعلى السماحةِ التامةِ والبعدِ عن التكلفِ والتعمقِ وكلِّ ما يورثُ المسلمَ شكّاً في دينِهِ وشريعتِهِ وحرجاً نابعاً عن هذا التعمقِ والتنطُّعِ المؤدي إلى الوسوسةِ والضيقِ، فشريعةُ اللهِ ميسرةٌ، وطريقُ تحصيلِ الثوابِ والأجرِ لا يكونُ بالقصدِ إلى المشاقِّ وتحمُّلِ الصعبِ من الأمورِ، ولكن بالإخلاصِ في الامتثالِ، والاقتداءِ بنبي الرحمةِ عليه أفضلُ الصلاةِ وأزكى التسليمِ.

وتوجيهاتُ رسولِ اللهِ ﷺ في هذا مما يُعجِزُ عن الحصرِ في مثلِ هذا المقامِ، فالسهولةُ والرفقُ والأخذُ بالأيسرِ ومراعاةِ الأحوالِ ديدنُه ﷺ.

بعدَ مَا ذكرنَا منهجَ الرسولِ ﷺ وصحابتَهُ الكرامِ في عدمِ الغلوِّ والتشدُّدِ، والأخذِ بالأيسرِ والأسهلِ وأنَّ ذلكَ من محاسنِ الإسلامِ نُلقِي الضوءَ على شيءٍ من مناهجِ التابعينَ رضي الله عنهم، فقد نهجَ التابعون رضي الله عنهم منهجَ رسولِ اللهِ ﷺ وصحابتِه الكرامِ علماً وعمَلاً وتوجُّهاً وإرشَاداً واقتدَاءً.

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٠٦٣)، ومسلم (رقم ١٤٠١).

ولقد كانَ من طريقتِهم البعدُ عنِ الشدَّةِ والتكلُّفِ والأخذِ باليسيرِ منَ الأمرِ، يقولُ الإمامُ الشعبيُّ: إذا اختلفَ عليكَ أمرانِ فإنَّ أيسرَهُما أقرَبُهما إلى الحقِّ؛ لقولِه تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال معمرُ وسفيانُ الثوري: إنما العلمُ أن تسمعَ بالرخصةِ من ثقةٍ، فأمَّا التشديدُ فيحسِنُه كلُّ أحدٍ.

وقال إبراهيمُ النخعيُّ: إذا تخالَجكَ أمرانِ فظُنَّ أنَّ أحبَّهُمَا إلى اللهِ أيسرُهُمَا.

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ ومجاهدُ وقتادةُ: أفضلُ الأمرينِ أيسرُهمَا، لقولِهِ تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وبعدَ هذا البيانِ والإيضاحِ من كتابِ اللهِ وسنةِ رسولهِ ﷺ وطريقةِ أصحابِهِ والتابعينَ لهم بإحسانٍ رضي الله عنهم أجمعين يظهرُ بجلاءٍ لا خفاءَ فيه أن رفعَ الحرجِ مقصدٌ من مقاصدِ الشريعةِ وأصلٌ مقطوعٌ به من أصولِها ذلكَ أن مجموعَ هذه الأدلةِ متضافرة على ذلكَ.

الاجتباء

من محاسن الإسلام ومحاسن محمد ﷺ وأمته ما ذكره ابن القيم رحمه الله في كتاب مدارج السالكين، تحت عنوان منزلة «الاجتباء» كلاماً جميلاً نقتطف منه ما تيسر، يقول رحمه الله: فمن اجتباء الأنبياء أن الله سبحانه ألقى إلى رسوله محمد ﷺ كتابه وخصه بكرامته وأهله لرسالته ونبوته من غير أن يكون ذلك على رجاء أو ناله بكسب أو توسل إليه بعمل، بل هو أمر أريد به.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ﴾ [القصص: ٨٦]، ثم قال: وأكمل من اجتباه الله تعالى من الأنبياء محمد ﷺ حيث كان ﷺ في مظهر الكمال الجامع لتلك القوة والعدل والشدة في الله واللين والرأفة والرحمة. وشريعته أكمل الشرائع فهو نبي الكمال، وشريعته شريعة الكمال، وأمته أكمل الأمم وأحوالهم ومقاماتهم أكمل الأحوال والمقامات، ولذلك تأتي شريعته بالعدل إيجاباً له وفرضاً، وبالفضل ندباً إليه واستحباباً، وبالشدة في موضع الشدة، وباللين في موضع اللين،

ووضع السيف موضعه، ووضع الندى موضعه، فيذكر الظلم ويحرمه، والعدل ويوجبه.

والفضل يندب إليه في بعض آيات كقوله تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ ﴾ [الشورى: ٤٠]، فهذا عدل ﴿ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾ [الشورى: ٤٠]، فهذا فضل ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الشورى: ٤٠]، فهذا تحريم للظلم، وقوله: ﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ ﴾ [النحل: ١٢٦]، فهذا إيجاب للعدل وتحريم للظلم، وقوله: ﴿ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ [النحل: ١٢٦]، ندب إلى الفضل، وقوله: ﴿ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٩]، تحريم الظلم ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ ﴾ [البقرة: ٢٨٠]، عدل ﴿ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨٠]، فضل – وأمة محمد الكاملة – خير الأمم.

وكذلك تحريم ما حرم على أمته صيانة وحمية حرم عليهم كل خبيث وضار، وأباح لهم كل طيب ونافع، فتحريمه عليهم رحمة، وعلى من قبلهم لم يخل من عقوبة. وهداهم لما ضلت عنه الأمم قبلهم، ووهب لهم من علمه وحلمه، وجعلهم خير أمة أخرجت للناس، وكمل لهم من المحاسن ما فرقه في الأمم قبلهم – كما كمل لنبيهم ﷺ من المحاسن ما فرقه في الأنبياء

قبلهم، وكمل لهم من المحاسن ما فرقها في الكتب قبله، وكذلك في شريعته، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، انتهى كلامه رحمه الله.

ومن محاسن الإسلام العدل، فقد وردت آيات وأحاديث كثيرة تقدمت، ومن ذلك ما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»[(1)].

ومن محاسن الإسلام العدل في الوصية والتحذير من الحيف فيها، يبين ذلك المصطفى ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة، فإذا أوصى حاف في وصيته، فيختم له بشر عمله فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشَّر سبعين سنة فيعدل في وصيته فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة»[(2)]، قال أبو هريرة رضي الله عنه: اقرءوا إن شئتم: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٨٢٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه بلفظه (رقم ٢٧٠٤)، وبمعناه أبو داود (رقم ٢٨٦٧)، والترمذي (رقم ٢١١٧) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء: ١٣ – ١٤].

ومن محاسن الإسلام العدل في الغضب والرضا، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث كفارات، وثلاث درجات وثلاث منجيات، وثلاث مهلكات، فأما الكفارات: فإسباغ الوضوء في السبرات، وانتظار الصلوات بعد الصلوات، ونقل الأقدام إلى الجماعات. وأما الدرجات: فإطعام الطعام، وإفشاء السلام، والصلاة بالليل والناس نيام. وأما المنجيات: فالعدل في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنى، وخشية الله في السر والعلانية. وأما المهلكات: فشح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه»(١).

(١) أخرجه الطبراني في معجمه الأوسط (رقم ٥٧٥٠)، والبزار (رقم ٨٠)، وابن شاهين في الترغيب والترهيب (٢/٢٦٤)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٣٠٤٥).

البر معناه وأثره وصور منه

محاسن الإسلام عظيمة وكبيرة، ولا يدرك فضلها إلا من فَقه في دين الله، وكان من دعاء رسول الله ﷺ لابن عباس: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»(١).

وقد تكلمنا عن التعاون وأثره على المسلم في الدنيا والآخرة، وذلك من خلال قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾[المائدة: ٢] وهنا نتكلم عن البر معناه وأثره وصور منه.

فالبر: اسم جامع للخير، ويأتي بمعنى الإحسان إلى الوالدين والأقربين، كما يأتي بمعنى الصلة، وهو في استعمال الشرع (كلمة جامعة لأصناف الخير، ويراد منه ما هو زائد عن حدود التقوى، فهو مرتبة فوق التقوى ودون مرتبة الإحسان) ذكر ذلك ابن الجوزي رحمه الله.

(١) أخرجه الحاكم (رقم ٦٢٨٠) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، والطبراني في معجمه الكبير (١١/ ١١٠ رقم ١١٢٠٤).

والرجل البار رجل عطوف مخلص في محبته، ويظهر أثر بره في تعامله مع والديه وأقاربه وجيرانه وضيوفه ومعارفه ومعارف والديه وأيتام المسلمين، ويتميز سلوك البار بالمداومة على الصلة بالزيارة وبشاشة الوجه والاستمرار في بذل المعروف والإنفاق على الأرحام والمعارف والإيثار على النفس.

وقد جعل رسول الله ﷺ البر في مقابل الإثم في نصوص عديدة، مفسرة باطمئنان النفس إلى الحلال الطيب، الذي لا شبهة فيه، فقال: «البر ما اطمأنت إليه النفس»، وفي رواية: «البر ما سكنت إليه النفس، وأطمأن إليه القلب، والإثم ما لم تسكن إليه النفس، ولم يطمئن إليه القلب»(١).

ووصف ابن حجر رحمه الله النفس البارة بأنها المطمئنة الموهوبة نوراً، يفرق بين الحق والباطل والصدق والكذب، كما فسر البر في السنة بحسن الخلق كقوله ﷺ: «البر حُسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك»(٢).

وقيل في شرحه «أي التخلق بالأخلاق الحسنة مع الخَلق والخالق، والمراد هنا المعروف وهو: طلاقة الوجه، وكف الأذى، وبذل الندى، وأنه يحب للناس ما يحب لنفسه، ولأن درجة البر من أعلى الدرجات، فلا يصل

(١) صححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٢٨٨١).
(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٥٣).

إليها المسلم إلا بعد مجاهدة النفس، وإيثار للآخرة على علائق الدنيا وزينتها، ولذلك يقول سبحانه: ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: ٩٢].

والناس رجلان: رجل بر تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله، كما جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال: «فالبُر تقي كريم على الله، ومن كان كريماً على الله كان كريماً على عباده الصالحين.

ولذلك يقول الحكماء: لا تصادق عاقاً فإنه لن يبرك، وقد عَقَّ من هو أوجب حقاً منك عليه، ومن أوجب البر الإحسان إلى الأقرب فالأقرب، وليس أقرب من الوالدين، وقد أمرنا بالإحسان إليهما، وبمصاحبتهما بالمعروف، وبشكرهما، والصبر عليهما، وعدم التضجر منهما، وبالتواضع لهما، وحسن الحديث معهما، والدعاء لهما.

وقد دعا الرسول ﷺ بالذل والهوان على من فاتته فرصة البر بوالديه فقال: «رغم أنفه، ثم رغم أنفه، ثم رغم أنفه» — قيل مَن؟ قال: «من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كلاهما ثم لم يدخل الجنة»[١] — وعد رسول الله ﷺ من الثلاثة الذين لا يدخلون الجنة «العاق لوالديه»[٢] —.

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٥١).

(٢) أخرجه الحاكم (١/ ٧٢) وصححه ووافقه الذهبي.

كما وصفه في حديث آخر بأنه: «ممن لا يقبل الله منهم صرفاً ولا عدلاً»[1]، ولا يسلم العاق من عذاب الله حتى في الدنيا، لقوله ﷺ: «بابان معجلان عقوبتهما في الدنيا: البغي والعقوق»[2]، بالإضافة إلى أن العقوق من الكبائر، وكما أنه كبيرة شرعاً فإنه من أكبر صور الجحود وعدم الوفاء في نظر العقلاء.

وقد جعل الله البر بالوالدين باباً للفوز برضاه سبحانه، كما في قوله ﷺ: «رضا الرب من رضا الوالدين، وسخطه من سخطهما»[3]، وهو من أحب الأعمال إلى الله كما قال ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله الصلاة لوقتها ثم بر الوالدين ثم الجهاد في سبيل الله»[4].

وفي قصة الثلاثة الذين حبسهم المطر في غار وانسد عليهم الغار بصخرة كبيرة مثل بليغ لتنزل رحمة الله وتفريج الكروب، حيث توسل كل منهم بصالح عمله، ومنهم الحريص على رضا والديه والمقدم لهما على أهله

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (رقم ٧٥٤٧)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٣٠٦٥).

(٢) أخرجه الحاكم (٤/١٧٧) وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ١٨٩٩)، والحاكم (٤/١٥٢) وصححه وافقه الذهبي.

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٥٢٧)، ومسلم (رقم ٨٥).

وولده، فكانت تنفرج الصخرة كلما دعوا، حتى خرجوا من الغار سالمين.

ومن أبلغ البر بالوالدين وأصدقه وأخلصه ما يداوم عليه البار في حضور الوالدين وفي غيبتهما وفي حياتهما وبعد موتهما، ومن صور هذا البر: إكرام أصدقائهما، فقد قال ﷺ: «إن أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولي الأب»[1].

ومن إكرام الأب إكرام العم لقوله ﷺ: «إن عم الرجل صنو أبيه»[2]، ومن البر بالأم الإحسان إلى الخالة، فقد ورد أن رجلاً أذنب ذنباً كبيراً، وتساءل إن كان له توبة، فدله رسول الله ﷺ على باب من البر، فقال له: «ألك والدان؟» قال: لا. قال: «فلك خالة؟» قال: نعم. قال رسول الله ﷺ: «فبرها إذن»[3].

وصاحب البر يتعدى بره الوالدين والأبناء إلى الأرحام والأقارب، ولذا يقول ﷺ: «اتقوا الله وصلوا أرحامكم»[4]، وهي باب من أبواب الجنة لقوله ﷺ: «أطب الكلام، وافش السلام، وصل الأرحام، وصل

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٥٢).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٩٨٣).

(٣) الترمذي الجهاد (٢).

(٤) حسنه الألباني في صحيح الجامع (١٠٩/١).

بالليل والناس نيام، ثم أدخل الجنة بسلام»(١).

والصلة من أسباب البركة في العمر، كما قال ﷺ: «من سره أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه»(٢)، وهذا بالإضافة إلى أثرها الاجتماعي في التأليف والمحبة، وقد قال ﷺ: «صلة القرابة مثراة في المال، محبة في الأهل، منسأة في الأجل»(٣).

وقد يقابل الواصل بالجفاء مما قد يغريه بالقطيعة، ولكن الله سبحانه ظهيره إذا داوم على الصلة، جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يقول: يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إليَّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليَّ. فقال: «لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم الملَّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك»(٤).

هذا قليل من كثير وغيض من فيض، مما يزخر به كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من محاسن الإسلام في البر.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٤٥١).

(٢) البخاري البيوع (١٢، ١٣).

(٣) صححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٣٧٦٨).

(٤) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٥٨).

البر

البر خلق من أخلاق القرآن الكريم والهدي النبوي، وهو اسم لفضيلة جامعة لأنواع الخير والتوسع فيه، فهو كما يقول العلماء: فعل الواجبات، والبعد عن المحرمات، والبشاشة مع الناس، والعطف عليهم، والإحسان إليهم، وتحمل الأذى منهم.

كما أن البر في لغة العرب تدل على السعة والصدق والطاعة، وهي التوسع في فعل الخير. والبر في القرآن الكريم يفيد معنى الإيمان وما يتبعه من أعمال، كما يشمل صحة الاعتقاد والاستقامة، ولذلك يقول سبحانه في سورة البقرة: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وسئل النبي ﷺ عن البر؟ فقال هذه الآية، ويقول ﷺ: «البر حسن

الخلق، والإثم ما حاك في صدرك «أي تردد» وكرهت أن يطلع عليه الناس»[1]، ويقول في حديث آخر: «البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما لم تسكن إليه النفس ولم يطمئن إليه القلب وإن أفتاك المفتون»[2].

لقد ذكر الله سبحانه البر في مواطن كثيرة في كتابه، ولمكانتها في الإسلام نجد أن الله سبحانه جعل لذاته المقدسة اسماً مشتقاً من مادته، وهو اسم البر فقال سبحانه في سورة الطور: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ [الطور: ٢٨]، أي العطوف على عباده الشامل لهم ببره ولطفه ورعايته.

كما جعل سبحانه فضيلة البر صفة من صفات الأنبياء والمرسلين، فقال في سورة مريم عن يحيى عليه السلام: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾ [مريم: ١٤]، وقال في موضع آخر على لسان عيسى عليه السلام ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ [مريم: ٣٢].

كما وصفت السنة المطهرة ملائكة الرحمن، وهم عباد مكرمون لا

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٥٣)، وأحمد (١٨٢/٤)، والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٢٩٥).

(٢) أخرجه أحمد (١٩٤/٤)، والخطيب البغدادي في تاريخه (٤٤٥/٨)، وأبو نعيم في الحلية (٣٠/٢)، وصححه الألباني (رقم ٢٨٨١).

يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون بأنهم بررة، فقال عليه الصلاة والسلام: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة»[1] يعني الملائكة.

والبر يتفرع إلى ألوان وأنواع، فمنها البر بالإنفاق لوجه الله تعالى، وفيه يقول سبحانه: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾ [آل عمران: ٩٢].

ولقد ضربت الصحابة ﷺ أروع الأمثال في برهم بإنفاق أموالهم في سبيل الله، وكان منهم أبو بكر ﷺ الذي بذل ماله كله في سبيل الله، وكان منهم عثمان بن عفان ﷺ مجهز الجيوش، وكان منهم عبد الرحمن بن عوف، وفي قمة الأبرار الأجواد يأتي رسول الله ﷺ الذي كان أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان، فهو في وجوده حينئذ كالريح المرسلة[2].

هناك بر الوالدين بعدم عقوقهما أو الإساءة إليهما وبالإحسان إليهما كل الإحسان، ولذلك يقول سبحانه: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٩٣٧)، ومسلم (رقم ٧٩٨).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٩٠٢)، ومسلم (رقم ٢٣٠٨).

وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٣ – ٢٤].

وهناك بر الأقارب وذوي الرحم، يقول الله سبحانه: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥]، وجاء في الحديث القدسي: «إن الرحم قالت لربها: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، فقال لها: ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك. قالت: بلى. قال: فذاك لكِ»(١) وفي الأثر: «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مثراة في المال، منسأة في الأثر»(٢).

والبر في الكلام والحديث فإن الكلمة الطيبة نوع من البر، والله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المجادلة: ٩].

ولقد حبب القرآن الكريم ورغب في البر بالكلام، وذلك في قوله سبحانه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٩٨٧)، ومسلم (رقم ٢٥٥٤).

(٢) أخرجه أحمد (٣٧٤/٢)، والترمذي (رقم ١٩٧٩)، والحاكم (٨٩/١)، والطبراني في الأوسط (رقم ٨٣٠٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٢٩٦٥).

﴿٢٤﴾ تُؤْتِيَ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤ – ٢٥]، ويقول سبحانه: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحج: ٢٤].

ومن محاسن الإسلام أن القرآن الكريم قد طالب المسلم بأن يكون باراً بالمسلمين، ومع ذلك وجهه إلى البر مع غير المسلمين ما داموا عادلين، فقال سبحانه: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة: ٨]، ثم يعمم القرآن الكريم الدعوة إلى المشاركة في إشاعة البر بين أرجاء المجتمع، فيقول سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

كما قرر سبحانه ثواب أهل البر وسمو مكانتهم في أكثر من آية من كتابه، ففي سورة آل عمران قال سبحانه: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨]، وفي سورة الإنسان يقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾﴾ [الإنسان: ٥]، وفي سورة المطففين: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾﴾ [المطففين: ١٨]، وفي سورة الانفطار ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ

﴿لَفِي نَعِيمٍ ۝١٣﴾ [الانفطار: ١٣].

ومن لطائف البر أن الإنسان لا يكون باراً إلا إذا كان صادقاً، ولذلك فسروا البر بالصدق. وتقول لغة العرب: بَرَّ فلان في يمينه. أي صدق فيها، وبر فلان بوعده إذا وفاه، وبر فلان بكلامه إذا صدقه بالعمل. ويقال حجة مبرورة أي مقبولة قبول العمل الصادق المتمثل لأوامر الله المجتنب لنواهيه.

والقرآن الكريم يقول موبخاً الكذبة من بني إسرائيل وذلك في قوله سبحانه: ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٤٤﴾ [البقرة: ٤٤]، ويقول ﷺ: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً»[١].

والبر يولد البر والصلة تستدعي مزيداً من الصلة، وبالبر تلتحم أواصر الأسر، وتتوثق العلاقات الاجتماعية، فإلى مزيد من البر والصلة، والله المستعان.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٠٧)، وأحمد (٣٨٤/١)، والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٣٨٦)، والترمذي (رقم ١٩٧١).

الصلاة

تأمل محاسن شرائع الإسلام الكبار التي هي إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان، وحج البيت، والتي سنتناول الحديث عنها مستمدين العون من الله:

فعندما تأمل الصلاة التي هي صلة بين العبد وبين ربه تجد فيها الإخلاص لله، والإقبال عليه والأدب والاحترام، والثناء والدعاء والخضوع له، ومظهر الإجلال من العبد لربه يؤدي واجب الإكبار والتعظيم والتقديس لسيده ومولاه، شأن العبد بين يدي سيده، يقف المرء بين يدي ربه فيبتدئ بالاعتراف لله بأنه أكبر من كل شيء، وأنه مستحق لأن يعُظم ويُجل ويُقدر: (الله أكبر) ثم يأخذ في الثناء على إلهه بما هو أهله، ويخصه بالعبادة وطلب المعونة ضارعاً إليه بأن يهديه الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم بالتوفيق والهداية، وأن يجنبه طريق المغضوب عليهم، لانحرافهم عن سواء السبيل، بعد أن عرفوه وأن يبعده عن طريق الضالين المنحرفين الذين عبدوا أهواءهم وشياطينهم، وعندئذ تمتلئ النفس من عظمة الله وهيبته وجلاله،

فيخر المرء ساجداً لله على أشرف أعضائه، مظهراً للذلة والمسكنة إلى من بيده مقاليد السموات والأرض.

مزايا الصلاة من ناحية الدين خضوع لرب العالمين، وخشوع واعتراف بعظمة القاهر القادر، ومتى استشعر القلب ذلك وامتلأت النفس من هيبة الله كف عن المحرمات، ولا عجب من ذلك، فإن الله يقول عن الصلاة: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وهي أكبر عون للعبد على مصالح دينه، فلأن العبد إذا داوم على الصلاة وحافظ عليها قويت رغبته في الخير، وسهلت عليه الطاعات وبذل الإحسان بطمأنينة نفس واحتساب ورجاء للثواب، وأما عونها على مصالح الدنيا فإنها تهون المشاق وتسلي عن المصائب، والله سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملاً، فيجازيه بتيسير أموره، ويبارك في ماله وأعماله.

وفي تأديته الصلاة جماعة يحصل التعارف والتواصل والتواد والتعاطف والتراحم، ويسود الوقار والمحبة بين الصغير والكبير، ويحصل بذلك تعليم فعلي لصفة الصلاة.

وقال الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله في ذكر محاسن الإسلام: إن الله سبحانه شرع للناس عبادات تصلهم بالله وتقربهم لديه، وتزكيهم وتقوي في قلوبهم محبته والتوكل عليه والأنس بمناجاته وذكره والتلذذ بطاعته سبحانه وتعالى

وشرع لهم الطهارة من الحدث الأصغر والأكبر بما في ذلك استشعار تعظيم الذي شرع هذه العبادة التي بها تطهرهم من ذنوبهم، وتطهيرهم من أحداثهم وتنظيفهم وتنشيطهم على العمل.

وجعل هذه الطهارة مفتاحها التي هي أعظم عبادة وأكبر عبادة بعد الشهادتين، وشرع لهم الصلاة في أوقات معينة خمسة، وكانت في الأصل خمسين فالله جل وعلا قد لطف بعباده ويسر ورحم، فجعلها خمساً بدل خمسين، وكتب لهم سبحانه أجر الخمسين، وجعلها في أوقات متعددة حتى لا يغفل العبد عن ذكر ربه، وحتى لا ينسى ربه.

الفجر أول النهار بعد قيامه من النوم وعند فراغ قلبه يقبل على آيات الله وسماعها، ويستمع للإمام في صلاة الفجر وهو يقرأ جهراً وينتفع بذلك، ويبدأ نهاره بذكر الله وطاعته سبحانه وتعالى، فيكون في هذا عون له على ملاحظة حق الله، وعلى تعظيم حرمات الله في صحوته، وفي أعماله وفي بيعه وشرائه، وغير ذلك.

ثم يجيء وقت الظهر فيعود إلى الصلاة وإلى الذكر، وإلى العبادة وإن كان هناك غفلة زالت بعودته إلى هذه العبادة.

ثم كذلك العصر بينما هو قد اشتغل بأعمال داخلية وخارجية فإذا الوقت الآخر قد حضر، فينتبه ويرجع إلى ذكر الله وطاعته عز وجل.

ثم يأتي المغرب، ثم يأتي العشاء، فلا يزال في عبادة وذكر فيما بين وقت وآخر، يذكر فيها ربه ويحاسب فيها نفسه، ويجاهدها لله ويتقرب إليه بالأعمال التي يحبها الله سبحانه.

وشرع له مع ذلك عبادات أخرى بين هذه الأوقات: كصلاة الضحى، وراتبة الظهر والمغرب والعشاء والتهجد بالليل إلى أنواع من العبادات.

والصلاة والأذكار والاستغفار والدعاء تذكره بالله وتعينه على طاعته وذكره ﷻ، هذا كله من فضله جل وعلا وعظيم إحسانه، ثم جعل الله تعالى لهذه الصلاة نداء عظيماً على رؤوس الأشهاد، ليتضمن تعظيم الله سبحانه بالتكبير والشهادة له بالوحدانية ونبيه بالرسالة، وفيه الدعوة إلى هذه الصلاة بقوله: حي على الصلاة، حي على الفلاح. ثم التكبير لله، ثم الشهادة له بالوحدانية ﷻ، فجعل أصل الدين الذي هو الإقرار بالشهادتين، دعوة للصلاة ونداء لها، فالعباد ينتبهون لهذه العبادة ولحق الله وعظمته بهذا النداء العظيم، الذي لا يسمعه شجر ولا مدر ولا شيء إلا شهد لصاحبه يوم القيامة[1]، كما جاء بذلك الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ.

ومن محاسن الإسلام أن جعل الله سبحانه الاستغفار وهو طلب المغفرة

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٨٢٨).

والصفح عن الذنوب والمعاصي جعله الله سبحانه ختاماً للعبادات، فبعد الصلاة يستغفر العبد ربه كما كان ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر، وجعله سبحانه ختاماً للصوم، وختاماً للحج، وذلك لما له من أثر كبير في رفع الدرجات ومحو السيئات. قال قتادة: إن هذا القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم، فأما داؤكم فالذنوب، وأما دواؤكم فالاستغفار. وقال الحسن: أكثروا من الاستغفار في بيوتكم وعلى موائدكم وفي طرقاتكم، وفي أسواقكم وفي مجالسكم، فإنكم لا تدرون متى نزول المغفرة.

الصلاة

لقد حبانا الله بالإسلام وأكرمنا بالإيمان، ولقد امتازت شريعة الإسلام بالشمول والكمال، فشملت العبادات المتنوعة من صلاة وصوم وزكاة وحج، وتميزت كل عبادة من هذه العبادات بأسرار وفوائد، فيها صلاح للفرد والجماعة في أمور الدين والدنيا.

ومن هذه العبادات الصلاة التي هي عمود الدين، ففيها من الأسرار والفوائد ما يعجز عنه الحصر والعدُّ، فلقد ذكر العلماء رحمهم الله تعالى أموراً كثيرة في الصلاة، والتي تعتبر بحقٍّ من محاسن الإسلام العظيمة.

فيقول ابن القيم رحمه الله: وللصلاة من المزايا ما ليس لغيرها من سائر العبادات، فمنها إن الله سبحانه وتعالى تولى فرضيتها على رسوله صلى الله عليه وسلم بمخاطبته له ليلة المعراج من غير واسطة الملك جبرائيل كسائر العبادات، وأن الصلاة أكثر ذكراً في القرآن، فتارة يخصها بالذكر، وتارة يقرنها بالزكاة، وتارة يقرنها بالصبر، وتارة يقرنها بالنسك، وتارة يفتح بها أعمال البر، ويختمها بها كما في آيات المعراج، وكما في أول سورة المؤمنين.

وأن الصلاة أول ما أوجب الله على عباده من العبادات العملية، فإن وجوبها قبل وجوب الزكاة والصيام والحج، وأن وجوبها عام على الذكر والأنثى، والحر والعبد، والغني والفقير، والمقيم والمسافر، والصحيح والمريض، فلا تسقط الصلاة عنه ما دام عقله ثابتاً، وأنها أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة، وآخر ما يفقده من دينه، وأنها قوام الدين وعماده، فلا يستقيم دينٌ إلا بها، كما في الحديث «رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة»[(١)] فمتى سقط العمود ذهب الدِّين. وأن الرسول ﷺ اهتم بها اهتماماً عظيماً، فهي آخر ما أوصى به أمته عند مفارقته الدنيا، جعل يقول: «الصلاة الصلاة، وما ملكت إيمانكم»[(٢)].

وأن الله أوجبها في اليوم والليلة خمس مرات بخلاف غيرها من بقية الأركان، وبالجملة فأمر الصلاة عظيم وشأنها كبير، فقبول سائر الأعمال موقوف على فعلها، فلا يقبل الله من تاركها صوماً ولا حجاً ولا صدقة ولا جهاد ولا شيئاً من الأعمال، فيجب على المسلمين الاعتناء بها والمحافظة عليها في أوقاتها مع الجماعة في المساجد، ليفوزوا بعظيم الأجر والثواب

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٦١٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه ابن ماجه (رقم ١٦٢٢، ٢٦٩٧، ٢٦٩٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٣٨٧٣).

المترتب عليها، وليسلموا من الإثم والعقاب المعدِّ لمن ضيعها.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المعارج: ٣٤ – ٣٥].

الصلاة وفوائدها

إن الله سبحانه حين أنزل شريعته، وأرسل نبيه محمداً ﷺ من أجل إصلاح هذه الإنسانية، وهدايتها وتحقيق أمنها واستقرارها، وإنقاذها من الظلمات إلى النور بإذن ربها، قال تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة: ١٥ – ١٦].

ومن الأركان الهامة والفرائض الأساسية التي شرعها الله إلى كل من ينتمي إلى أمة الإسلام العبادات بتقسيماتها البدنية والمالية، وعلى رأسها وعمدتها الصلاة، هذه العبادة مهما أراد أن يكشف علماء الشريعة والطب والصحة عن حكمتها وأسرارها وانتفاع المسلم منها، فإن الذي يجهلونه عن الحكمة والأسرار أكثر مما يعرفونه، وصدق من قال:

وقل للذي يدعي في العلم معرفة   عرفت شيئاً وغابت عنك أشياءُ

بل نجد أن علماء الأحياء ورجالات الطب والصحة في عصر الذرة والكهرباء والعلم يكشفون كل يوم شيئاً جديداً عن فوائد الصلاة الجسمية وثمراتها الصحية ؛ وهذا مما يؤكد تأكيداً جازماً أن شريعة الإسلام في أنظمتها ومبادئها وأوامرها هي المعجزة الربانية من حين تشريعها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها — والمستقبل كفيل عن إظهار كثير من محاسن الإسلام في الصلاة — وصدق الله القائل : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت : ٥٣].

وانطلاقاً من إظهار معجزة الإسلام ومحاسنه في العبادات والمعاملات والأخلاق ومنهج الحياة وإظهار الأسرار العبادات الاجتماعية والأخلاقية والصحية وعلى رأسها الصلاة التي هي عمود الدين ليكشف لكل ذي عقل وبصيرة عن أسرار الصلاة في النظافة وقوة الجسم وحيوية البدن والوقاية من الأمراض وآثارها في المناعة والصحة العامة ظهر على الساحة والحمد لله نخبة من الأطباء المتخصصين والعلماء الإسلاميين أبرزوا معجزة القرآن العلمية وآيات الله الكونية وأسرار العبادات الطبية وغيرها.

إن الصلاة التي هي بحق أكبر نعمة أنعمها الله تبارك وتعالى على المسلمين وأعظم منحة منحهم إياها لما تحتوى من حكم وفوائد لا يمكن

حصرها ولن نستغرب إذا علمنا أن أول ما أهدى الله ﷻ لنا من فرائض العبادات الصلاة وإن ذلك كان عند سدرة المنتهى عندما عرج به ﷺ إلى السموات العلى ووصل إلى ذلك المقام الرفيع الذي لم يصل إليه أحد من الخلق من قبل أما سائر العبادات فقد فرضها الله عليه وهو في الأرض لذلك كانت الصلاة أكرم منزلة شرف الله بها المسلم وأعظم فريضة فرضها الله وهي الفارقة بين الإسلام والكفر كما قال ﷺ: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر»[1].

لأهمية الصلاة في الإسلام لا نستغرب التركيز والتكرار المحبب على إقامتها في أوقاتها والمحافظة عليها وتأديتها حق الأداء، وذلك لعلم علام الغيوب ما لها من أهمية وما فيها من فوائد، تنعكس على من يؤديها بانتظام، كما تنعكس على بيئته ومجتمعه وبالتالي على الأمة بأسرها.

لقد تكرر لفظ الصلاة ومشتقاتها في القرآن الكريم (٩٩ مرة) مما يدل على أهميتها ووجوب العناية بها، لما لها من فضل كبير وأجر عظيم عند الله سبحانه.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/٣٤٦)، والترمذي (رقم ٢٦٢١)، وابن ماجه (رقم ١٠٧٩)، والنسائي (رقم ٤٦٢)، والحاكم (١/٦)، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٤١٤٣).

يقول د. فارس علوان في كتابه: وفي الصلاة صحة ووقاية مبيناً الفوائد المستفادة من الصلاة تحت عنوان «الصلاة والوقاية من الأمراض» أن الصلاة وما يسبقها من طهارة تلعب دوراً كبيراً في الوقاية من الأمراض، وتعد من أنجح الطرق في التخلص من كثير من الآفات والعلل، فالصلاة نفسها وما تضيفه على المسلم من طمأنينة وأمن واستقرار نفسي وانسجام عقلي، كلها ممزوجة براحةٍ في الضمير، وشعور بالسعادة، وإشباع في العاطفة، ولذة في الروح، لا تعدلها لذة. هذه المعاني السامية في الحقيقة وفقها الله سبحانه على من أراد له الخير وخصه بالفضل، فآتاه مسحةً من إيمانٍ، ولمسة من يقين، فأقام الصلاة قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٧﴾ [البقرة: ٢٧٧].

وهذه النفحات الطبية تقي المسلم بإذن ربه من معظم الأمراض النفسية والعلل العصبية والآفات العقلية كالقلق النفسي والهمود الإكتئابي والخوف المرضي والهرع وتقي أيضاً من الأمراض الأكثر تعقيداً واستعصاء على العلاج مثل الزور والفصام وغيرها.

وإذا نظرنا إلى الصلاة من الناحية الحركية وما فيها من قيام وركوع وسجود وقعود نرى أن فيها من الفوائد ما يعجز القلم عن حصره، فهذه

التمارين الدائمة والحركات المتكررة حيث في الفرائض فقط (٥١) ركوعاً وسجوداً في اليوم الواحد تكون بمثابة علاج طبيعي مستمر لعضلات الجسم المختلفة ومفاصله الكثيرة، فهي تمنح العضلات قوة ومرونة ونمواً، وتكسب المفاصل عزماً ودعماً وحماية، فيستغني بالصلاة عن طرق للعلاج متعددة منها التدليك والتأهيل، وتكون الصلاة واقية أيضاً من أمراض كثيرة تنتج عن الكسل والخمول وقلة النشاط.

يضاف إلى ذلك أن الصلاة وما فيها من سكينة وخشوع وتعلق بالخالق سبحانه ورجاء رحمته وطمع في مغفرته وأمل في لقائه في الجنة ولاسيما وأنها تبدأ بكلمة الله أكبر التي يرددها مع كل حركة ميمونة من حركاتها هذا الشعور كفيل بأن يباعد المتاعب الشخصية والمشاكل الدنيوية والأفكار المادية.

هذا قليل من كثير مما تتميز به الصلاة من فوائد جسمية وصحية ولا غرابة في ذلك فإن هذا التشريع نزل من لدن حكيم خبير يعلم مصالح العباد في أمور دينهم ودنياهم وصحتهم والمسلم عليه التسليم بكل تشريعات الإسلام سواءً علم حكمتها أو لم يعلم ولكن كلما علم من الحكم ازداد يقيناً وإيماناً وثباتاً.

الصلاة

الصلاة أحد أركان الإسلام، ومبانيه العظام ذكرها الله سبحانه في كتابه وذلك في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء: ١٠٣]، وأوصى بها المصطفى ﷺ في آخر رمقٍ من حياته، حيث قال: «الصلاة وما ملكت أيمانكم»(١).

قال البخاري رحمه الله في كتابه محاسن الإسلام وشرائع الإسلام: فأما محاسن الصلاة فتفسير الصلاة الثناء على الله تعالى بما يستحقه هذا هو الصلاة لغة، فالثناء قد يكون بما يليق وبما لا يليق، وأما الصلاة فلا تكون إلا بما يستحق ويليق، ثم الصلاة بناء عجيب ركب من القيام والقراءة والركوع والسجود، فكل ركن في الصلاة بمنزلة لَبنٍ وخشبٍ في البناء، فكما أن الجنة قصورها لبنة من ذهبٍ، ولبنة من فضةٍ وملاطها المسك. فالصلاة بناؤها لبنة من قيام، ولبنة من قراءة، ولبنة من ركوع، ولبنة من سجود وملاطها التسبيح والتحميد والتهليل.

---

(١) صححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٣٨٧٣).

وقال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه الرياض الناضرة مبيناً محاسن الصلاة وفضائلها وفوائدها: فمن فضائلها أنها أعظم عبادةٍ يحصل فيها الخضوع والذلة لله سبحانه، وامتلاء القلب من الإيمان به وتعظيمه، وذلك مادة سعادة القلب الأبدية ونعيمه، ولا يمكن تغذيته بمثل الصلاة.

والصلاة أعظم غذاءٍ وسقي لشجرة الإيمان، والصلاة تثبت الإيمان وتنميه وتنمي ما يثمره الإيمان من فعل الخير والرغبة فيه، وكذلك تنهى عن الشر، قال تعالى: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾[العنكبوت: ٤٥].

فأخبر سبحانه أن فيها الغذاء بذكر الله والشفاء بنهيها عن الفحشاء والمنكر، وأي شيء أعظم من هذا وأجل وأكمل.

ومن فضائلها أنها أكبر عون للعبد على مصالح دينه ودنياه، قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾[البقرة: ٤٥]، أي على كل الأمور، أما عونها على المصالح الدينية.

فإن العبد إذا داوم على الصلاة وحافظ عليها قويت رغبته في الخيرات وسهلت عليه الطاعات، وبذل الإحسان بطمأنينة نفس واحتساب ورجاء للثواب وتذهب أو تضعف داعيته للمعاصي، وهذا أمر محسوس مشاهد،

فإنه لا تجد محافظاً على الصلاة فروضها ونوافلها إلا وجدت تأثر ذلك في بقية أعماله.

ولهذا كانت الصلاة عنواناً على الفلاح، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾...الآية [التوبة: ١٨] والمراد عمارتها بالصلاة والقربات.

وأما عونها على المصالح الدنيوية فإنها تهون المشاق وتسلي عن المصائب، ويجازي الله صاحبها بتيسير أموره ويبارك له في ماله وأعماله وجميع ما يتصل به ويباشره ومن فضائلها إن من أكملها وأتقنها فقد فاز وسَعد.

ومن فوائد الصلاة الطبية البدنية وهي مصلحة نابعة لغيرها لما فيها من الرياضة المتنوعة النافعة للبدن المقوية للأعضاء والحركة المذيبة للأخلاط الغليظة، وذلك من وجهين:

أحدهما: ما في الصلوات ووسائلها وتوابعها من المشي والذهاب والمجيء والقيام والقعود والسجود المتكرر، وكذلك الطهارة المتكررة، كل هذه الحركات نفعها محسوس مشاهد، لا يماري فيه إلا جاهل.

والوجه الثاني: أن روح الصلاة ومقصودها الأعظم حضور القلب بين يدي الله ومناجاته بكلامه وذكره والثناء عليه ودعائه والتضرع إليه وطلب

القربة عنده ورجاء ثوابه، وذلك بلا ريب ينير القلب ويشرح الصدر ويفرح النفس والروح.

ومعلوم عند جميع الأطباء أن السعي في راحة القلب وسكونه وفرحه وزوال غمه وهمه من أكبر الأسباب الجالبة للصحة الدافعة للأمراض المخففة للآلام، وذلك مجرب مشاهد، وخصوصاً صلاة الليل أوقات الأسحار، فإن النبي ﷺ ذكر في الحديث الصحيح: «أن العبد إذا قام من الليل فذكر الله تعالى وتوضأ ثم صلى ما كتب له انحلت عنه عقد الشيطان كلها، فأصبح طيب النفس نشيطاً وإلا أصبح خبيث النفس كسلان»[1].

وللصلاة خمس فوائد كل واحدة خير من الدنيا وما عليها. منها تكميل الإسلام التي هي أكبر أركانه، وتكفير السيئات، وزيادة الحسنات، ورفعة الدرجات، وزيادة القرب من رب الأرض والسموات، وزيادة الإيمان في القلب ونوره، ومصالح الصلاة الدينية والاجتماعية والبدنية لا تعد ولا تحصى.

(١) أخرجه البخاري (رقم ١١٤٢)، ومسلم (رقم ٧٧٦).

صلاة الجماعة وفضلها

محاسن الإسلام كثيرة ومتعددة ومتنوعة في العبادات والمعاملات وغيرها، ولا غرابة في ذلك، فالله سبحانه الذي خلق الخلق وأوجدهم يعلم ما يصلح لهم في أمور دينهم ودنياهم، فهو سبحانه حكيم يضع الأشياء في مواضعها، رحيم بعباده يدلهم على ما فيه خيرهم في معادهم ومعاشهم وفي دنياهم وأخراهم، لذا فقد فرض الله سبحانه على عباده الصلاة جماعة لحكم وفوائد كثيرة، فلقد شرع الله تعالى لهذه الأمة الاجتماع في المساجد في أوقات معلومة: منها ما هو في اليوم والليلة كالصلوات الخمس، ومنها ما هو في الأسبوع وهو صلاة الجمعة، ومنها ما هو في السنة وهو صلاة العيدين لجماعة كل بلد، ومنها ما هو اجتماع عام في السنة وهو الوقوف بعرفة، لأجل التواصل والإحسان والتعاطف والرعاية، ولإقامة ذكر الله، ولأجل نظافة القلوب ومعرفة أحوال المسلمين، فيقومون بتفقد بعضهم البعض، فيعاد المريض، وتشيع الجنازة، ويساعد المحتاج.

وهذه الفوائد علاوة على كونها عبادة لله ففيها تكفير السيئات وزيادة

الحسنات ورفع الدرجات.

ومن فوائد الجماعة ومحاسن الإسلام في ذلك قيام نظام الألفة وتعلم الجاهل من العالم واقتداؤه به وعموم البركة ومضاعفة الثواب وزيادة العمل وغير ذلك من الحكم والمحاسن العظيمة في مشروعية صلاة الجماعة والفوائد التي لا تحصى، وحقيقة صلاة الجماعة ربط صلاة المأموم بصلاة الإمام.

ومن فوائدها أنه في كل خطوة يخطوها الرجل إلى المسجد رفع درجة وحط خطيئة، وهو في عبادة من حين يخرج من بيته إلى المسجد حتى يرجع، ويحصل في الاجتماع أيضاً التعارف وتبادل التحية والسلام، ولا يزال المسلم في صلاة ما انتظر الصلاة، والملائكة تصلي عليه وتستغفر له وتدعو له بالمغفرة والرحمة ما دام في مصلاه، قال ﷺ: «صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة»[1]، وقال ﷺ: «صلاة الرجل في الجماعة تضعف على صلاته في بيته وفي سوقه خمساً وعشرين ضعفاً، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة وحط عنه بها خطيئة، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه، تقول: اللهم صلِّ عليه، اللهم اغفر

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٤٥)، ومسلم (رقم ٦٥٠).

له، اللهم ارحمه. ولا يزال أحدكم في صلاة ما انتظر الصلاة»[1].

يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : من سره أن يلقى الله غداً مسلماً فليحافظ على هؤلاء الصلوات الخمس حيث ينادي بهن، فإن الله شرع لنبيكم ﷺ سنن الهدى، وإنهن من سنن الهدى، ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق أو مريض، ولقد كان الرجل يؤتى به يهادي بين الرجلين حتى يقام في الصف[2].

وهذا وغيره من الأدلة الكثيرة دليل ظاهر على وجوب صلاة الجماعة في المساجد، كما شرعت صلاة الخوف جماعة أمام العدو في ميدان القتال، فلو كان في التخلف عن الجماعة رخصة لرخص للمجاهدين أمام العدو في تلك الساعة الحرجة، فكيف بالآمن والمطمئن، وفي فضلها وتأكد ذلك يقول ﷺ : «من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى العشاء والفجر في جماعة فكأنما قام الليل كله»[3]، وقال تعالى: ﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾[البقرة: ٤٣]، أي صلوا مع المصلين.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٤٧)، ومسلم (رقم ٦٤٩).

(٢) أخرجه النسائي (رقم ٨٤٧).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٦٥٦).

مشروعية صلاة الجماعة

ديننا الإسلامي لم يترك شأناً من شؤون الآخرة ولا أمراً من أمور الدنيا إلا بيَّنه ووضَّحه.

وإن من محاسنه – وكله محاسن – مشروعية الاجتماع في يوم الجمعة، وفرضيتها على الأعيان، ما عدا المرأة والمسافر والصبي والعبد والمريض وسكان البادية، وما أحلاه من اجتماع وأعظمه من شعار عظَّم الله به الإسلام وخصَّ به المسلمين، تتجلى فيه مظاهر الوحدة، ويتجدد فيه التعارف بين المسلمين، وتستعيد الروح فيه بهجتها وسرورها، هذا اليوم الشريف والعيد الأسبوعي المبارك ما طلعت الشمس على يوم أفضل منه، ففيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، وفيه تقوم الساعة، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم قائم يصلي يسأل الله شيئاً إلا أعطاه الله إياه. فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة»[1].

(١) أخرجه مسلم (رقم ٨٥٤).

هذا اليوم دعيت إليه الأمم مثلنا فضلت عنه وهدانا الله إليه، ففي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «نحن الآخرون الأولون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله به، والناس لنا تبع، اليهود غدا، والنصارى بعد غد»(1).

وكان من هدي النبي ﷺ تعظيم هذا اليوم وتشريفه وتخصيصه بعبادات يختص بها عن غيره.

لقد دعانا الله سبحانه إلى يوم الجمعة، وذلك في قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾ [الجمعة: ٩]، والمراد بالسعي إلى ذكر الله هو الاهتمام بصلاة الجمعة وما تتطلبه وقصدها بخشوع وطمأنينة، كما نهانا المصطفى ﷺ عن التكاسل عنها، لئلا تتعرض للطبع على قلوبنا عياذاً بالله، فقد قال ﷺ: «لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات أو ليطبعن الله على قلوبهم، ثم ليكونن من الغافلين»(2) وقال: «من ترك ثلاث جمع متهاوناً طبع الله على قلبه»(3).

(١) أخرجه البخاري (رقم ٨٧٦)، ومسلم (رقم ٨٥٥).
(٢) أخرجه مسلم (رقم ٨٦٥).
(٣) أخرجه أبو داود (رقم ١٠٥٢)، والترمذي (رقم ٥٠٠)، والنسائي (رقم ١٣٦٨)، =

لقد شرع الله سبحانه في هذا اليوم المبارك يوم الجمعة من العبادات ما فيه ترويض للنفوس، وتزكية للأرواح، وصقل للعقائد، ومحو للذنوب، وتقوية للروابط بين المسلمين، يقول ﷺ: «لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من طهر، ويدّهن من دهنه أو يمس من طيب بيته، ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين، ثم يصلي ما كتب له، ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى»(١)، وفي لفظ «وزيادة ثلاثة أيام»، وفي حديث آخر: «غسل الجمعة واجب على كل محتلم، وسواك، ويمس من الطيب ما قدر عليه»(٢).

والمراد بالذنوب الصغائر أما الكبائر فلا تكفر إلا بالتوبة منها، وكان من هديه ﷺ قراءة سورتي: ﴿الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ﴾ [السجدة: ١ – ٢]، ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ [الإنسان: ١]، وإنما كان ﷺ يقرأ هاتين السورتين في فجر الجمعة لأنهما تضمنتا ما كان وما يكون في يومها، فإنهما اشتملتا على خلق آدم وذكر يوم القيامة وحشر العباد. ومن خصائص يوم الجمعة الإكثار من الصلاة

=وابن ماجه (رقم ١١٢٥)، وأحمد (٣/٤٢٤)، والحاكم (٣/٦٢٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٦١٤٣).

(١) أخرجه البخاري (رقم ٨٨٣).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٨٨٠).

على النبي ﷺ فيه وفي ليلته.

ومن خصائص يوم الجمعة التبكير بالذهاب إليها كما تقدم، فكثير من الناس هداهم الله زهدوا في هذا الأجر العظيم، فصار لا يأتي لصلاة الجمعة إلا في آخر لحظة، فمنهم من يأتي وقت الخطبة فقط، ومنهم من يتأخر إلى الإقامة، ومنهم من يأتي في آخر الصلاة، وهذا حرمان عظيم وخذلان وتثبيط من الشيطان.

الصدقة

محاسن الإسلام كثيرة ومتعددة في جميع مناحي الحياة، ومنها الصدقة وأثرها الكبير في دفع البلاء.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: فإن للصدقة تأثيراً عجيباً في دفع البلاء، ولو كانت من فاجر أو ظالم بل من كافر، فإن الله يدفع بها عنه أنواعاً من البلاء، وهذا أمر معلوم عند الناس خاصتهم وعامتهم، وأهل الأرض كلهم مقرون به لأنهم جربوه، وقال أيضاً: وقد دل النقل والعقل والفطرة وتجارب الأمم على اختلاف أجناسها ومملها ونحلها: على أن التقرب إلى الله رب العالمين، وطلب مرضاته، والبر والإحسان إلى خلقه من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير. وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة لكل شر، فما استجلبت نعم الله تعالى واستدفعت نقمه بمثل طاعته والتقرب إليه. وقال أيضاً مبيناً أثر الأخلاق الفاضلة على العباد: من رفق بعباد الله رفق الله به، ومن رحمهم رحمه، ومن أحسن إليهم أحسن إليه، ومن جاد عليهم جاد عليه، ومن عامل خلقه بصفة عامله الله تعالى بتلك الصفة بعينها في الدنيا

والآخرة، فالله تعالى لعبده حسب ما يكون العبد لخلقه.

وقال أيضاً مبيناً: إن الصدقة سبب للنجاة من عذاب الله، فإن الصدقة تفدي من عذاب الله تعالى، فإن ذنوب العبد وخطاياه تقتضي هلاكه فتجيء الصدقة تفدي من العذاب وتفكه منه، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح لما خطب النساء يوم العيد: «يا معشر النساء تصدقن ولو من حليكن، فإني رأيتكن أكثر أهل النار»[1]، وكأنه حثهن ورغبهن على ما يفدين به أنفسهن من النار، وقال أيضاً مبيناً أثر الصدقة في انشراح الصدر: والمتصدق كلما تصدق بصدقة انشرح لها قلبه، وانفسح لها صدره وقوي فرحه وعظم سروره، ولو لم يكن في الصدقة إلا هذه الفائدة لكان العبد حقيقاً بالاستكثار منها والمبادرة إليها، وقال عبد العزيز بن عمير: الصلاة تبلغك نصف الطريق، والصوم يبلغ باب الملك، والصدقة تدخلك عليه، وقال عبيد بن عمير: يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا قط، وأعطش ما كانوا قط، فمن أطعم لله أشبعه الله، ومن سقى لله سقاه الله، ومن كسا لله كساه الله.

ومن محاسن الإسلام في الصدقة: أنها تطفئ غضب الرب وتدفع ميتة

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٠٤)، ومسلم (رقم ٨٠).

السوء، والصدقة دليل على الإيمان بالله والثقة به وإحسان الظن به، وهي دليل على الرحمة والشعور بالآخرين ومحبة الخير لهم، وهي سبب لتيسير الأمور وتفريج الكربات، وإعانة الرب للعبد، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه، والصدقة سلامة من الشح، قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، والصدقة تجلب المودة والتعاون، وتقوي الأواصر بين المسلمين، والسخي قريب من الله، ومن خلقه ومن أهله، وقريب من الجنة، بعيد عن النار، والبخيل بعكس ذلك.

والسخاء والجود يستر العيوب والنقائص وإن كثرت، قال الشافعي رحمه الله:

وإن كثرت عيوبك في البرايا ... وسرك أن يكون لها غطاء

تستر بالسخاء فكل عيب ... يغطيه كما قيل السخاء

والصدقة مدعاة لزيادة المال، ونزول الخيرات، وحلول البركات، وهي سبب للاستظلال في ظل عرش الرحمن يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله.

ومن محاسن الإسلام في الصدقة ما قاله ﷺ: «ما من يوم يصبح فيه العباد إلا وملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً»[1]، وقال خالد العشري: تنافسوا في المغانم،

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٤٤٢)، ومسلم (رقم ١٠١٠).

وسارعوا إلى المكارم، واكتسبوا بالجود حمداً، ولا تكتسبوا بالمال ذماً، ولا تعدوا بمعروف ولم تعملوه، واعلموا أن صوابح الناس نعمة من الله عليكم فلا تملوها فتعود نقماً.

عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما يسرني أن عندي مثل أحد هذا ذهباً تمضي عليَّ ثلاثة أيام وعندي منه دينار إلا شيئاً أرصده لدين، إلا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا»(١)، فهذا من خلق رسول الله ﷺ الجود والكرم، فكان يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة، بل يعطي الشيء وهو أحوج ما يكون إليه، وذلك كما في حديث سهل بن سعد ﵁ في قصة المرأة التي نسجت ثوباً للنبي ﷺ، ثم جاءت فقالت له: نسجتها بيدي، فجئت لأكسوكها، فأخذها النبي ﷺ محتاجاً إليها قال سهل: فخرج علينا وإنها إزاره، فقال رجل: ألبسنها يا رسول الله ما أحسنها، فقال القوم للرجل: ما أحسنت، لبسها النبي ﷺ محتاجاً إليها، ثم سألته وقد علمت أنه لا يرد سائلاً؟! فقال الرجل: إني والله ما سألته لألبسها، إنما سألته لتكون كفني، قال سهل: فكانت كفنه(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٤٤٤)، ومسلم (رقم ٣٢/٩٤) من كتاب الزكاة بعد (ورقم ٩٩١).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٢٧٧).

هـذا غـيض مـن فـيض ممـا يزخـر بـه كتـاب الله وسـنة رسـوله ﷺ من محاسـن الإسـلام في الـصدقة وفـضلها، وأثرهـا عـلـى المتـصدق في الـدنيا والآخرة.

الصيام

نِعم الله علينا كثيرة لا تعد ولا تحصى ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨]، وإن من النعم ما أسداه علينا سبحانه بهذا الدين القويم والمنهج المستقيم، الذي كله محاسن وفضائل، ومنها الصيام وما فيه من المحاسن التي منها: أنه يبعث في الإنسان فضيلة الرحمة بالفقراء والعطف على البائسين، فإن الإنسان إذا جاع تذكر الفقير الجائع. ومنها أنه بامتناعه عن الأكل يعرف فضل نعمة الله عليه فيشكرها، ومنها أن الصيام يقوي النفس على الصبر والحلم، وهما تجنب كل ما من شأنه إثارة الغضب، لأن الصوم نصف الصبر، والصبر نصف الإيمان. ومنها أنه ينقي الجسم من الأخلاط الرديئة، ومنها أنه مهذب للنفس، ومصفٍّ للأرواح، ومطهر للأجسام، فله الأثر العجيب في حفظ القوى الباطنة وحمايتها مما يضرها، ثم هو عبادة وامتثال لأمر الله سبحانه، والمشقة الحاصلة من الصوم ليست بشيء في جانب رضى الله سبحانه، طمعاً في الثواب والزلفى والأجر العظيم.

يقول الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله: كل مسلم يعلم ما في الصوم من

الخير العظيم والمصالح الكبيرة، التي منها تطهير النفس من شرها وبطرها وشحها وبخلها وكبرها، ومن ذلك أن الصائم يعرف بالصيام حاجته وضعفه وشدة ضرورته إلى ما أباح الله له من الطعام والشراب وغيرهما.

ومنها تذكير العبد بإخوانه الفقراء والمحاويج حتى يواسيهم ويحسن إليهم، ومنها تمرين للعبد على مخالفة الهوى وتعويده الصبر عما يوافق هواها من مأكل ومشرب ومنكح في طاعة ربها ومولاها ﷻ، وفي الصوم من الفوائد والحكم والأسرار ما لا يحصيه إلا الله جل وعلا.

وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كل عمل ابن آدم له الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، يقول الله ﷻ: إلا الصيام، فإنه لي وأنا أجزئ به، إنه ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجلي، للصائم فرحتان: فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه، ولخلوف فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك»[1].

ومن محاسن الإسلام في الصوم ما قاله أحد الأطباء: لقد بحث الأطباء مسائل الصيام الطبية بحثاً مستفيضاً، بحيث لم يكن هنالك جديد يمكن أن يقال. وقد خرجنا من كل ما نُشر أو أُذيع بنقاط أساسية، تتلخص في أن

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٩٠٤)، ومسلم (رقم ١١٥١).

الصيام لا ضرر فيه على السليم مطلقاً، بل فيه فائدة لبعض الأشخاص صحياً، وإذا لحق الصائم ضرر يكون من صيام من لا ينبغي لهم الصيام شرعاً أو طبياً، والآيات في ذلك بينات، والحديث الشريف يقول: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه»(١) وقد يكون الضرر من عدم مراعاة النظم الصحية في تناول الطعام، وإفراط الصائم في تناوله بكميات كبيرة، يعسر هضمها أو إفراطه في تناول المواد العسرة الهضم والمهيجة للمعدة.

وقد جاء في الحديث: «ما ملأ بنو آدم وعاء شراً من بطنه»(٢)، والصيام ينبغي أن يكون صياماً عن النهم والجشع اللذين يلحقان بالجسم ضرراً محققاً، ولكي يتلافى الصائم الضرر يجب أن يفطر على قليل جداً من الطعام، ليكسر حدة الجوع، ثم بعد أن يؤدي فريضة الصلاة يتناول طعام الإفطار باعتدال، وفي سيرة المصطفى ﷺ أنه كان يفطر على رطبات، فإن

---

(١) أخرجه أحمد (١٠٨/٢)، والبيهقي في سننه (رقم ٥٤١٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ١٨٨٥).

(٢) أخرجه أحمد (١٣٢/٤)، والترمذي (رقم ٢٣٨٠)، وابن ماجه (رقم ٣٣٤٩)، والحاكم (٣٣١/٤) وصححه وكذا الترمذي والألباني في صحيح الجامع (رقم ٥٦٧٤).

لم يجد رطبات فعلى تمرات، فإن لم يجد تمرات حسا حسوات من ماء، على أن الطب لم يعد مقصوراً على الأجسام، بل يتناول الأحوال الشخصية والاجتماعية، وكل منهما يعتبر مكملاً ومتمماً للآخر.

ويعتبر رمضان من الناحية النفسية شهر صبر واحتمال وبعد عن الغضب والانفعالات النفسية وسمو بالنفس إلى المثل العليا، فيكون شهر صفاء نفس وهدى ويقظة للضمير وتدريباً على قوة الإرادة والبعد عن الرياء، إذ لا يوجد ما يمنع الصائم من أن يأكل سراً ويتظاهر بالصوم رياء، وقوة إرادته وحسن طاعته يمنعانه من ذلك.

أما أثر الصوم من الناحية الأخلاقية فإنه يستلزم حسن معاملة الخلق بعضهم للبعض وعدم الشحناء والغضب، فإن ساب الصائم شخصٌ فليجبه بأنه صائم، ويستدعي الصيام البعد عن الزور والبهتان والتحلي بالفضائل يقول ﷺ: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»(١) وقال ﷺ: «رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش»(٢) ولاشك أن المقصود من هذا الحديث هم الذين لم يتحلوا بالأخلاق الفاضلة قولاً وعملاً.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٩٠٣).

(٢) أخرجه ابن ماجه (رقم ١٦٩٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٣٤٨٨).

وأثر الصوم من الناحية الاجتماعية واضح وجلي في التزاور والبر والتعاطف وصلة الأقارب والأصدقاء وانتشار روح الود والتعاون والتآلف بين الناس، والنشاط في أعمال الخير كالصدقة وقراءة القرآن والذكر والتسبيح والتهليل وغير ذلك من أعمال الخير، التي هي مطلوبة في كل وقت، ولكنها تكثر في رمضان، لشرف الزمان، وطلب الأجر من الله سبحانه.

الصوم علاج لكثير من الأمراض، فله فوائد كثيرة لأجل ذهاب كثير من الأمراض التي تذهب بحياة الإنسان في قليل من الزمن، فالصوم من وجهة نظر الطب الرياضي هو وسيلة لتطهير الجسم بإزالة ما يمكن أن يكون به من زيادات في السموم الضارة أو غذاء لا لزوم له، ونجده في الطب الرياضي تحت باب العلاج بالغذاء، وذلك أن الجسم ليس مجرد مستودع للغذاء، وإنما هو مجموعة متزنة متوافقة من المواد والعمليات (الكيميائية)، وهذه المجموعة تتعرض للاختلال ليس بنقص المواد الغذائية فقط، بل بزيادتها أيضاً.

ومن مزايا الصوم إلى جانب هذا التنظيف والتطهير، إراحة أعضاء الهضم والامتصاص وإراحة أعضاء الإفراز، حيث يعطيها فرصة لأن تعوض أي تقصير سابق في عملها.

وفي الصوم عامل من عوامل تجديد الشباب، وذلك بإعطاء الخلايا حياة ونشاطاً متجددين، وتلك حقيقة معروفة من حقائق علم الحياة.

ويتميز الصوم بخاصية النسبة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ من بين سائر الأركان والأعمال، إذ يقول تعالى فيما يرويه عنه نبيه ﷺ: «كل عمل ابن آدم له الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزئ له»(١).

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٩٠٤) ومسلم (رقم ١١٥١).

الصيام

الصيام ركن من أركان الإسلام ومبانيه العظام، وقد فرضه الله سبحانه على عباده، كما قال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة: ١٨٣].

ومحاسن الإسلام في الصيام كثيرة وكبيرة وظاهرة، فمنها التقوى، فالصيام وسيلة للتقوى، كما ذكر الله ذلك سبحانه في كتابه.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: إن رسول الله ﷺ قال: «كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله ﷻ: إلا الصوم، فإنه لي وأنا أجزي به، يدع شهوته وطعامه من أجلي، وللصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه، ولَخَلوفُ فم الصائم أطيب عند الله من رائحة المسك»(١).

وفي هذا الحديث فوائد منها: أن الصائمين يُوَفوَّن أجُورهم بغير

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٨٩٤)، ومسلم (رقم ١١٥١).

حساب، فإن الأعمال يضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصيام، فإنه لا ينحصر تضعيفه في هذا العدد، بل يضاعفه الله ﷻ أضعافاً كثيرة، لأن الصيام من الصبر. وقد قال الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، قال الأوزاعي رحمه الله: (ليس يُؤزن لهم، ولا يكال، إنما يغرف لهم غرفا).

ومن خصائص وفضائل رمضان أن مردة الشياطين يصفون بالسلاسل والأغلال، فلا يصلون إلى ما يريدون من عباد الله الصائمين، من الإضلال عن الحق والصد عن الخير وهذا من معونة الله أن حبس عنهم عدوهم الذي يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير. ولذلك نجد عند الصائمين من الرغبة في الخير والعزوف عن الشر في هذا الشهر أكثر من غيره.

ومن محاسن الإسلام وخصائصه في الصوم: أن الله اختص لنفسه الصوم من بين سائر الأعمال، وذلك لشرفه عنده ومحبته له وظهور الإخلاص لله سبحانه وتعالى فيه، لأنه سِرّ بين العبد وربه، ولا يطلع عليه في خلوته، وقد حرم عليه ذلك فيتركه لله خوفاً من عقابه ورغبة في ثوابه، فمن أجل ذلك أقامه الله على ذلك الإخلاص، واختص صيامه لنفسه من بين سائر الأعمال، ولهذا قال في الحديث القدسي: «يدع طعامه وشرابه وشهوته من

أجلي»(١) وتظهر فائدة هذا الاختصاص يوم القيامة بالأجر الجزيل والعطاء الطيب من الله ﷻ.

ومن محاسن الإسلام في الصوم: أنه جُنَّة أي وقاية وستر، يقي الصائم من اللغو والرفث، ولذلك قال ﷺ: «إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب»(٢) وهو يقي الصائم من النار، ومن فضائل الصيام ومحاسنه أن الله تعالى اختص الصائمين بباب من أبواب الجنة لا يدخله منه غيرهم، إكراماً لهم، فقد روى سهل بن سعد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة باباً يقال له الريان يدخل منه الصائمون يوم القيامة، لا يدخل منه أحد غيرهم، فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل منه أحد»(٣).

هذه الخصائص والفضائل والمزايا المتقدمة لا تكون إلا لمن أخلص لله ﷯ في ترك شهواته وحفظ جوارحه من اللغو والآثام.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٨٩٤)، ومسلم (رقم ١١٥١).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٩٠٤)، ومسلم (رقم ١١٥١).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ١٨٩٦)، ومسلم (رقم ١١٥٢).

هديه ﷺ في الصيام

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ ﴾ [البقرة: ١٨٣] ينادي الله سبحانه عباده المؤمنين بلفظ الإيمان: يا أيها الذين آمنوا.

يقول عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إذا سمعت الله سبحانه يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ١٨٣] فأرع لها سمعك، فإنه خير تؤمر به أو شر تنهى عنه. ثم يقول سبحانه أنه فرض على هذه الأمة الصيام، كما فرضه على الأمم السابقة، ثم قال: ﴿ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣] الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

فالصيام ركن من أركان الإسلام ومبانيه العظام، وهو من محاسن الإسلام، لما فيه من الفضائل والأمور العظيمة والحكم المفيدة.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ مبيناً الفوائد والحكم في الصوم في هديه ﷺ في الصوم: لما كان المقصود من الصيام حبس النفس عن الشهوات، وفطامها

عن المألوفات، وتعديل قوتها الشهوانية، لتستعد لطلب ما فيه غاية سعادتها ونعيمها وقبول ما تزكو به مما فيه حياتها الأبدية.

ويكسر الجوع والظمأ من حدتها وسورتها، ويذكرها بحال الأكباد الجائعة من المساكين، وتضييق مجاري الشيطان من العبد بتضييق مجاري الطعام والشراب، وتحبس قوى الأعضاء عن استرسالها لحكم الطبيعة فيما يضرها في معاشها ومعادها.

ويُسكن كل عضو منها وكل قوة عن جماحه، وتلجم بلجامه، فهو لجام المتقين، وجنة المحاربين، ورياضة الأبرار والمقربين، وهو لرب العالمين من بين سائر الأعمال، فإن الصائم لا يفعل شيئاً، وإنما يترك شهوته وطعامه وشرابه من أجل معبوده، فهو ترك محبوبات النفس وتلذذاتها إيثاراً لمحبة الله ومرضاته.

وهو سر بين العبد وربه لا يطلع عليه سواه، والعباد قد يطلعون منه على ترك المفطرات الظاهرة، وأما كونه ترك وطعامه وشرابه وشهوته من أجل معبوده، فهو أمر لا يطلع عليه بشر، وذلك حقيقة الصيام.

وللصيام تأثير عجيب في حفظ الجوارح الظاهرة والقوى الباطنة، وحميتها عن التخليط الجالب لها المواد الفاسدة التي إذا استولت عليها أفسدتها، واستفراغ المواد الرديئة المانعة لها من صحتها.

فالصوم يحفظ على القلب والجوارح صحتها، ويعيد إليها ما استلبته منها أيدي الشهوات، فهو من أكبر العون على التقوى، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [البقرة: ١٨٣][1] وقال ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال الله عز وجل: «كل عمل ابن آدم له إلا الصيام، فإنه لي وأنا أجزي به، والصيام جنة فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل: إني امرؤ صائم. والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، للصائم فرحتان يفرحهما إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقى ربه فرح بصومه»[2].

ثم قال ابن القيم رحمه الله: وأمر ﷺ من اشتدت عليه شهوة النكاح ولا قدرة له عليه بالصيام وجعله وجاء هذه الشهوة فمن حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[3]، والباءة كناية عن النكاح والوجاء الخصاء والمراد أنه

---

(١) زاد المعاد (٢/٢٨ – ٢٩).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٩٠٤)، ومسلم (رقم ١١٥١).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٥٠٦٥)، ومسلم (رقم ١٤٠٠).

يقطع شهوة الجماع.

ثم قال ابن القيم رحمه الله: والمقصود أن مصالح الصوم لما كانت مشهودة بالعقول السليمة والفطر المستقيمة شرعه الله لعباده رحمة بهم وإحساناً إليهم وحمية لهم وجنة. وكان هدي رسول الله ﷺ فيه أكمل الهدي، وأعظم تحصيل للمقصود، وأسهله على النفوس. ولما كان فطم النفوس عن مألوفاتها وشهواتها من أشق الأمور وأصعبها، تأخَّر فرضه إلى وسط الإسلام بعد الهجرة، لما توطنت النفوس على التوحيد والصلاة، وألفت أوامر القرآن، فنقلت إليه بالتدريج.

وكان فرضه في السنة الثانية من الهجرة فتوفي رسول الله ﷺ وقد صام تسع رمضانات، وفرض أولاً على وجه التخيير بينه وبين أن يطعم عن كل يوم مسكيناً، ثم نقل من ذلك التخيير إلى تحتم الصوم، وجعل الإطعام للشيخ الكبير والمرأة إذا لم يطيقا الصيام، فإنهما يفطران ويطعمان عن كل يوم مسكيناً، ورخص للمريض والمسافر أن يفطرا ويقضيا، وللحامل والمرضع إذا خافتا على أنفسهما كذلك، فإن خافتا على ولديهما زادتا مع القضاء إطعام مسكين لكل يوم، فإن فطرهما لم يكن لخوف ومرض، وإنما كان مع الصحة، فجبر بإطعام المسكين كفطر الصحيح في أول الإسلام[1].

(١) زاد المعاد (٢/ ٣٠ – ٣١).

ثم قال ابن القيم رحمه الله: وكان من هديه ﷺ في شهر رمضان الإكثار من أنواع العبادات، فكان جبريل عليه السلام يدارسه القرآن في رمضان، وكان إذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة، وكان أجود الناس، وأجود ما يكون في رمضان[(1)]، يكثر فيه من الصدقة والإحسان وتلاوة القرآن والصلاة والذكر والاعتكاف. وكان يخص رمضان من العبادة بما لا يخص غيره به من الشهور، حتى إنه كان ليواصل فيه أحياناً ليوفر ساعات ليله ونهاره على العبادة.

وكان ينهى أصحابه عن الوصال، فيقولون له: إنك تواصل فيقول: «لست كهيئتكم إني أبيت» وفي رواية: «أظل عند ربي يطعمني ويسقيني»[(2)(3)].

وكان ﷺ يعجل الفطر ويحض عليه ويتسحر ويحث على السحور ويؤخره ويرغب في تأخيره فعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر»[(4)] وعن أنس

(1) أخرجه البخاري (رقم ٦)، ومسلم (رقم ٢٣٠٨).
(2) أخرجه البخاري (رقم ١٩٢٢)، ومسلم (رقم ١١٠٢).
(3) زاد المعاد (٢/٣٢).
(4) أخرجه البخاري (رقم ١٩٥٧)، ومسلم (رقم ١٠٩٨).

مرفوعاً: «تسحروا، فإن في السحور بركة»[1] وعن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال: «فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر»[2].

ثم قال ابن القيم رحمه الله: وكان ﷺ يحض على الفطر بالتمر، فإن لم يجد فعلى الماء، وهذا من كمال شفقته على أمته ونصحهم، فإن إعطاء الطبيعة الشيء الحلو مع خلو المعدة أدعى إلى قبوله وانتفاع القوى به، ولاسيما القوة الباصرة، فإنها تقوى به، وحلاوة المدينة التمر، ومرباهم عليه، وهو عندهم قوت وأدم، ورطبه فاكهة، وأما الماء فإن الكبد يحصل لها بالصوم نوع يبس، فإذا رطبت بالماء كمل انتفاعها بالغذاء بعده، ولهذا كان الأولى بالظمآن الجائع أن يبدأ قبل الأكل بشرب قليل من الماء، ثم يأكل بعده، هذا مع ما في التمر والماء من الخاصية التي لها تأثير في صلاح القلب لا يعلمها إلا أطباء القلوب[3].

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٩٢٣)، ومسلم (رقم ١٠٩٥).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٠٩٦).

(٣) زاد المعاد (٢/ ٥٠ – ٥١).

صيام الست ونوافل العبادات

إن من محاسن الإسلام أن عمل المؤمن لا ينقضي قبل الموت قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝﴾ [الحجر: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وقال ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به بعده، أو ولد صالح يدعو له»[١] فلم يجعل سبحانه لانقطاع العمل غاية إلا الموت، فلئن انقضى صيام شهر رمضان فإن المؤمن لن ينقطع من عبادة الصيام بذلك، فالصيام لا يزال مشروعاً ولله الحمد في العام كله، ففي صحيح مسلم من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال «من صام رمضان وأتبعه ستاً من شوال كان كصيام الدهر»[٢]، وصيام ثلاثة أيام من كل شهر قال فيها النبي ﷺ: «ثلاث من كل شهر ورمضان إلى

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٦٣١).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١١٦٤).

رمضان فهذا صيام الدهر كله»[1]، والأولى أن تكون أيام البيض وهي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر، لحديث أبي ذر ﵁ أن النبي ﷺ قال: «يا أبا ذر إذا صمت من الشهر ثلاثة فصم ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة»[2]، ومن صيام النفل يوم عرفة وشهر الله المحرم ويوم الاثنين والخميس.

ولئن انقضى قيام شهر رمضان فإن القيام لا يزال مشروعاً ولله الحمد في كل ليلة من ليالي السنة، ثابتاً من فعل الرسول ﷺ وقوله، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﵁ أن النبي ﷺ قال: «أفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل»[3] وصلاة الليل تحل التطوع كله والوتر.

ومن محاسن الإسلام نوع من أنواع العبادة غفل عنها كثير من الناس وينبغي الاهتمام بها، نوع خيره كثير، وعمله يسير على من يسره الله عليه، ألا وهو الذكر، الذي هو جريان اسم الله تعالى أو صفاته على اللسان أو القلب أو كليهما، تعظيماً وتمجيداً وتقديساً وثناء عليه سبحانه بجميع محامده، ويشمل ذلك قراءة القرآن والصلاة والتسبيح والدعاء والشكر

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١١٦٢).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٧٦١) وقال: حديث حسن، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٧٨١٧).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ١١٦٣).

والتحميد والتوحيد والثناء، وتعدد ورود الذكر في كتاب الله في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢﴾ [البقرة: ١٥٢]، ففي هذه الآية يقول أحد السلف رضي الله عنهم: إنني أعرف متى يذكرني الله سبحانه. فلما سئل عن ذلك قال: حينما أذكره يذكرني، ألم تسمعوا إلى قوله تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٢].

والمتأمل في آيات الله يجد تكرار ذكر الله في كل موطن من مواطن العبادة، فعند المشعر الحرام يقول سبحانه: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٨]، وعند انقضاء مناسك الحج ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، وفي أيام الحج: ﴿۞وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، وفي حال لقاء العدو ومواجهته: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٤٥﴾ [الأنفال: ٤٥]، وعند انقضاء الصيام ﴿وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ولقد نبه سبحانه لذكر الله واستحضار عظمته ومحاولة إزالة النسيان ومغالبته بالذكر، فقال سبحانه: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤]، ولقد حذر الله سبحانه من الإعراض عن ذكر الله، وذلك في قوله سبحانه:

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

فمن أعرض عن ذكر الله وعمي عنه فجزاؤه أن قيَّض الله له شيطاناً يكون معه حيث يكون، يشاركه في حياته كلها، ويزين له الشر، ويغريه بالضلال حتى يؤدي به إلى جهنم وساءت منزلاً ومصيراً، قال تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩]، فأولئك أعرضوا عن ذكر الله، فاستولى عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله، فكانوا من حزب الشيطان، ومن كان من حزب الشيطان فهو الخاسر عياذا بالله من استحواذ الشيطان ونسيان الذكر.

ويقول سبحانه: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٧]، ففي هذه الآيات جزاء الإعراض عن ذكر الله في الدنيا والآخرة، فهو في الدنيا يعيش في ضنك من الحياة ولو ملك الدنيا بأجمعها، وهو في الآخرة في العذاب الشديد في جهنم، حيث يحشر أعمى، لأنه أعرض عن ذكر الله، وعمي عنه في الحياة الأخرى، فعليك أيها المسلم بالاجتهاد في الطاعة في رمضان وفي غير رمضان، فإن الاستمرار على ذلك من علامة قبول الحسنة لأن من علامة قبول الحسنة إتيان الحسنة بعدها، وعليك بالابتعاد عن الخطايا والسيئات.

هذا قليل من كثير من الآيات الدالة على فضيلة الذكر وأهميته، وها هي السنة زاخرة بذلك، مرغبة في ذكر الله سبحانه، وحاثة عليه، ومبية فضله وأجره ومكانته، فمنها عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه أن رجلاً قال: يارسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت عليَّ فأخبرني بشيء أتشبث به، قال: «لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله»[1]، أي دم على ذلك واستمر عليه، وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكره مثل الحي والميت»[2]، فالذي يذكر ربه حي القلب، والذي لا يذكر الله ميت قلبه، وقال صلى الله عليه وسلم: «مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحي والميت»[3].

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله في فوائد ذكر الله ومزاياه أكثر من مائة فائدة، فمنها أنه يرضي الرحمن ويطرد الشيطان، ويزيل الهم ويجلب السرور ويقوي القلب والبدن وينور القلب والوجه ويجلب الرزق ويكسب المهابة والحلاوة ويورث رحمة الله التي هي روح الإسلام ويورث المعرفة والإنابة

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٣٧٥) وقال: هذا حديث حسن غريب، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٧٧٠٠).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٤٠٧).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٧٧٩).

والقرب وحياة القلب وذكر الله للعبد هو قوت القلب وروحه ويجلو صدأه ويحط الخطايا ويرفع الدرجات ويحدث الأنس ويزيل الوحدة وينجي من عذاب الله ويوجب تنزل السكينة وغشيان الرحمة وصفوف الملائكة بالذاكر، ويسعد في الجنة ويؤمن من الحسرة يوم القيامة وهو «أي الذكر» مع البكاء سبب إظلال للذاكر، وبه تحصل العطايا والثواب المتنوع من الله. وهو أفضل العبادات وأيسرها، وهو غراس الجنة، هذا قليل من كثير من فوائد ذكر الله ومزاياه.

ولقد حذَّرنا النبي ﷺ من ترك الذكر، وبيّن لنا عقوبة من تركه، فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيهم إلا كانت عليهم ترة، فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم»[1]، ومعنى قوله ترة أي حسرة وندامة.

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه يرفعه إلى النبي ﷺ: «ليس يتحسر أهل الجنة على شيء إلا ساعة مرت بهم لم يذكروا الله عز وجل فيها»[2].

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٣٨٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٥٦٠٨).

(٢) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٣) وتردد الشيخ الألباني رحمه الله بين تصحيح الحديث وتضعيفه، فذكره في صحيح الجامع (رقم ٥٤٤٦) وذكره أيضاً في=

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله تعالى فيه إلا قاموا عن مثل جيفة حمار، وكان ذلك المجلس عليهم حسرة»(1).

بشرى للخطائين الذين يقعون في الفاحشة، ويظلمون أنفسهم بالوقوع في معاصي الله بإغواء الشيطان وضعف الأنفس، فهؤلاء ذكر الله سبحانه ينجيهم من عاقبة ما فعلوا، فحينما يذكرون الله ويستحيون منه بسبب ذنوبهم، ثم يستغفرونه ويتوبون إليه مما اقترفوه، فهؤلاء قريبون من رحمة الله، لأنهم يعلمون أنه لا يغفر الذنوب إلا الله، بخلاف أولئك المصرين على المعصية عن علم وإدراك، فأولئك بعيدون عن رحمة الله ناءون عن جنبه، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٥ – ١٣٦].

=ضعيف الجامع (رقم ٤٩٤٤).

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٤٨٥٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٥٧٥٠).

الشعائر التعبدية في شهر رمضان

إن من محاسن الإسلام في شهر رمضان بروز كثير من الشعائر التعبدية فيه، وذلك لشرف الزمان ومنها قراءة القرآن، وذلك لما ورد فيه من فضائل، حيث يقول المصطفى ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلّمه»[1] ويقول ﷺ: «اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه»[2] ويقول ﷺ: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرؤها»[3].

ومن الشعائر التعبدية في رمضان قيام الليل، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»[4]، والحديث دليل على فضل قيام رمضان، وأنه من أسباب

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٠٢٧).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٨٠٤).

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٢٩١٤) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٨١٢٢).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ١٩٠١)، ومسلم (رقم ٧٥٩، ٧٦٠).

مغفرة الذنوب، ومن صلى التراويح كما ينبغي فقد قام رمضان، والمغفرة مشروطة بقوله: «إيماناً واحتساباً» ومعنى إيماناً أي أنه حال قيامه مؤمنا بالله تعالى وبرسوله ﷺ ومصدقاً بوعد الله وبفضل الصيام وعظيم أجره عند الله تعالى. واحتساباً أي محتسباً الثواب عند الله تعالى لا بقصد آخر من رياء ونحوه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يرغب في قيام رمضان من غير أن يأمرهم بعزيمة، ثم يقول: «من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»[1].

فعلى المسلم أن يحرص على صلاة التراويح مع الإمام، ولا يفرط في شيء منها، ولا ينصرف قبل إمامه، لقول النبي ﷺ: «من قام مع الإمام حتى ينصرف كتب له قيام ليلة»[2] وما هي إلا ليال معدودة يغتنمها العاقل قبل فواتها.

وينبغي للإمام في صلاة التراويح أن يعنى بصلاته فيصلي صلاة الخاشعين يرتل القراءة ويطمئن بالركوع والسجود، ويحذر من العجلة؛ لئلا

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٩٠١)، ومسلم (رقم ٧٥٩، ٧٦٠).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٨٠٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح، والدارمي (رقم ١٧٨٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ١٦١٥).

يخل بالطمأنينة ويتعب من خلفه من الضعفاء وكبار السن والمرضى، لقول السائب بن يزيد: أمر عمر بن الخطاب أبي بن كعب وتميماً الداري أن يقوما للناس بإحدى عشرة ركعة. قال: وقد كان القارئ يقرأ بالمئين حتى يعتمد على العصي من طول القيام، وما كنا ننصرف إلا في بزوغ الفجر (أي انجلاء الشيء) وإذا سلم المصلى من الوتر قال: سبحان الملك القدوس. ثلاثاً يمد بها صوته، ويرفع في الثالثة، لثبوت ذلك عن النبي ﷺ، ولا بأس بحضور النساء صلاة التراويح إذا أمنت الفتنة وخرجن محتشمات غير متبرجات في ثياب زينة ولا طيب، وصلين بخشوع وخضوع وحضور قلب، والبعد عما حرَّم الله من الغيبة والنميمة ونحوها، فهذه محرمة في كل زمان ومكان، ويعظم الإثم إذا كان في المسجد وفي رمضان.

ومن الشعائر التعبدية في رمضان العمرة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال لامرأة من الأنصار يقال لها أم سنان: ما منعك أن تكوني حججت معنا؟ قالت: أبو فلان – تعني زوجها – كان له ناضحان، حج على أحدهما، والآخر يسقي أرضاً لنا. قال ﷺ: «عمرة في رمضان تقضي حجة أو حجة معي»[1] فالحديث دليل على فضل العمرة في رمضان.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٨٦٣)، ومسلم (رقم ١٢٥٦).

ومن الشعائر التعبدية في رمضان إطعام الطعام، كما قال ﷺ: «أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام»[1].

(1) أخرجه ابن ماجه (رقم ٣٢٥١)، والدارمي (رقم ١٤٦٨)، والترمذي (رقم ٢٤٨٥) وصححه. وكذا صححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٧٨٦٥).

هديه ﷺ في الاعتكاف

محاسن الإسلام كثيرة ومتعددة في العبادات وغيرها في الفرائض والنوافل، ومن النوافل التي غفل عنها كثير من الناس ولم يقم بها إلا القليل مع ما فيها من الأجر العظيم: الاعتكاف، الذي هو ملازمة المسجد للعبادة تقرباً إلى الله سبحانه، فقد كان النبي ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله[1].

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله هديه ﷺ في الاعتكاف حيث قال: لما كان صلاح القلب واستقامته على طريق سيره إلى الله تعالى متوقفاً على جمعيته على الله، ولم شعثه بإقباله بالكلية على الله تعالى، فإن شعث القلب لا يلمه إلا الإقبال على الله تعالى، وكان فضول الطعام والشراب وفضول مخالطة الأنام وفضول الكلام، وفضول المنام مما يزيده شعثاً، ويشتته في كل وادٍ، ويقطعه عن سيره إلى الله تعالى، أو لضعفه أو يعوقه ويوقفه اقتضت رحمة العزيز الرحيم بعباده أن شرع لهم من الصوم ما يذهب فضول الطعام

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٠٢٦)، ومسلم (رقم ١١٧٢).

والشراب، ويستفرغ من القلب أخلاط الشهوات المعوقة له عن سيره إلى الله تعالى وشرعه بقدر المصلحة، بحيث ينتفع به العبد في دنياه وأخراه، ولا يضره ولا يقطعه عن مصالحه العاجلة والآجلة.

وشرع لهم الاعتكاف الذي مقصوده وروحه عكوف القلب على الله تعالى وجمعيته عليه، والخلوة به والانقطاع عن الاشتغال بالخلق والاشتغال به وحده سبحانه، بحيث يصير ذكره وحبه والإقبال عليه في محل هموم القلب وخطراته، فيستولي عليه بدلها، ويصير الهم كله به، والخطرات كلها بذكره، والتفكر في تحصيل مراضيه، وما يقرب منه، فيصير أنسه بالله بدلاً عن أنسه بالخلق، فيعده بذلك لأنسه به يوم الوحشة في القبور حين لا أنيس له ولا ما يفرح به سواه.

فهذا مقصود الاعتكاف الأعظم، ولما كان المقصود إنما يتم مع الصوم شرع الاعتكاف في أفضل أيام الصوم وهو العشر الأخير من رمضان، ولم ينقل عن النبي ﷺ أنه اعتكف مفطراً قط بل قد قالت عائشة رضي الله عنها: «لا اعتكاف إلا بصوم[1]. ولم يذكر الله سبحانه الاعتكاف إلا مع الصوم، ولا فعله رسول الله ﷺ إلا مع الصوم».

(١) أخرجه الحاكم (رقم ١٦٠٥)، والدارقطني (١٩٩/٢ رقم ٤)، ومالك في الموطأ (رقم ٦٨٨).

فالقول الراجح في الدليل الذي عليه جمهور السلف: أن الصوم شرط في الاعتكاف، وهو الذي كان يرجحه شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية، وأما الكلام فإنه شُرع للأمة حبس اللسان عن كل ما لا ينفع في الآخرة، وأما فضول المنام فإنه شرع من قيام الليل ما هو من أفضل السهر وأحمده عاقبة، وهو السهر المتوسط الذي ينفع القلب والبدن، ولا يعوق عن مصلحة العبد، ومدار رياضة أرباب الرياضيات والسلوك على هذه الأركان الأربعة، وأسعدهم بها من سلك فيها المنهاج النبوي المحمدي، ولم ينحرف انحراف الغالين ولا قصَّر تقصير المفرطين.

هديه ﷺ في الاعتكاف حيث كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله واعتكف مرة في العشر الأول ثم الأوسط ثم العشر الأخير يلتمس ليلة القدر، ثم تبين له أنها في العشر الأخير، فداوم على اعتكافه حتى لحق بربه ﷻ، وكان يأمر بخباء فيضرب له في المسجد يخلو فيه بربه ﷻ.

وكان إذا أراد الاعتكاف صلى الفجر ثم دخله فأمر به مرة فضرب فأمر أزواجه بأخبيتهن فضربت فلما صلى الفجر نظر فرأى تلك الأخبية، فأمر بخبائه فقُوِّض، وترك الاعتكاف في شهر رمضان حتى اعتكف في العشر الأول من شوال.

وكان يعتكف كل سنة عشرة أيام فلما كان في العام الذي قبض فيه

اعتكف عشرين يوماً، وكان يعارضه جبريل بالقرآن كل سنة مرة، فلما كان ذلك العام عارضه به مرتين، وكان يعرض عليه القرآن أيضاً في كل سنة مرة فعرض عليه تلك السنة مرتين.

وكان إذا اعتكف دخل قبته وحده، وكان لا يدخل بيته في حال اعتكافه إلا لحاجة الإنسان، وكان يخرج رأسه من المسجد إلى بيت عائشة فترجله وتغسله وهو في المسجد وهي حائض، وكانت بعض أزواجه تزوره وهو معتكف، فإذا قامت تذهب قام معها يقلبها وكان ذلك ليلاً[(1)].

ويستحب لمن رؤي خالياً بامرأة أن يقول: هذه فلانة لحديث صفية قالت: كان النبي ﷺ معتكفاً فأتيته أزوره ليلاً فحدثته، ثم قمت لأنقلب، فقام معي ليقلبني، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد، فمر رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا فقال النبي ﷺ: «على رسلكما إنها صفية بنت حيي» فقالا: سبحان الله يا رسول الله قال: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شرّاً»[(2)] أو قال شيئاً.

ثم قال ابن القيم رحمه الله: ولم يباشر امرأةً من نسائه وهو معتكف لا بقبلة ولا غيرها، وكان إذا اعتكف طرح له فراشه، ووضع له سريره في

(1) زاد المعاد (٢/٨٦ – ٨٩).

(2) أخرجه البخاري (رقم ٢٠٣٨)، ومسلم (رقم ٢١٧٥).

معتكفه، وكان إذا خرج لحاجته مر بالمريض وهو على طريقه، فلا يعرج عليه ولا يسأل عنه، واعتكف مرة في قبة تركية، وجعل على سدتها حصيراً، كل هذا تحصيلاً لمقصود الاعتكاف وروحه عكس ما يفعله الجهال من اتخاذ المعتكف موضع عشرة ومجلبة للزائرين وأخذهم بأطراف الأحاديث بينهم، فهذا لون والاعتكاف النبوي لون[1].

المقصود بالاعتكاف انقطاع الإنسان عن الناس ليتفرغ لطاعة الله في مسجد من مساجده طلباً لفضله وثوابه وإدراك ليلة القدر، ولذلك ينبغي للمعتكف أن يشتغل بالذكر والقراءة والصلاة والعبادة، وأن يتجنب ما لا يعنيه من حديث الدنيا.

ويحرم على المعتكف الجماع ومقدماته من التقبيل واللمس، لشهوة لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ﴾[البقرة: ١٨٧] وأما خروجه من المسجد فإن كان ببعض بدنه فلا بأس به، لحديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يخرج رأسه من المسجد وهو معتكف فأغسله وأنا حائض[2] وإن كان خروجه بجميع بدنه فهو ثلاثة أقسام:

---

(١) زاد المعاد (٢/ ٩٠).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٠٤٦)، ومسلم (رقم ٢٩٧).

الخروج لأمر لابد منه طبعاً أو شرعاً: كقضاء حاجة البول والغائط والوضوء الواجب والغسل الواجب لجنابة أو غيرها والأكل والشرب، فهذا جائز إذا لم يمكن فعله في المسجد، فإن أمكن فعله في المسجد فلا، مثل أن يكون في المسجد حمام يمكنه أن يقضي حاجته فيه أو يكون له من يأتيه بالأكل والشرب فلا يخرج حينئذٍ لعدم الحاجة إليه.

الثاني الخروج لأمر طاعة لا تجب عليه: كعيادة مريض وشهود جنازة ونحو ذلك فلا يفعله إلا أن يشترط ذلك في ابتداء اعتكافه.

الثالث الخروج لأمر ينافي الاعتكاف كالخروج للبيع والشراء وجماع أهله ومباشرتهم ونحو ذلك، فلا يفعله لا بشرط ولا بغير شرط، لأنه يناقض الاعتكاف، وينافي المقصود منه.

العشر الأواخر

محاسن الإسلام كثيرة ومتعددة ومتنوعة في العبادات والمعاملات وغيرها.

ومنها في العبادات: أن الله سبحانه فتح مواسم الخيرات للعبد، للتزود من الطاعات والعبادات، ليرفع له به الدرجات ويحط عنه السيئات، كما في شهر رمضان المبارك الذي هو من أفضل الشهور، وأفضله عشره الأخيرة، فيها ليلة القدر أفضل ليالي العام، وفيها يقول سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝﴾ [القدر: ١ – ٥]، شهر رمضان شهر شرَّفه الله سبحانه بإنزال القرآن، فيه هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، فالقرآن حجة الله على خلقه، وقد حفظه سبحانه علينا، فلا يستطيع أحد أن يغير فيه أو يبدل، ولا أن يزيد فيه أو ينقص منه، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝﴾ [الحجر: ٩]، فالقرآن حجة لمن عمل به وأقام حدوده وحكَّمه في جميع شئونه صغيرها

وكبيرها، أو حجة عليه إن أعرض عنه واتخذه وراءه ظهرياً. شرَّف الله رمضان بليلة القدر، فهو أفضل شهور العام، وأفضله عشره الأخيرة فيها ليلة مباركة: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝﴾ [الدخان: ٤]، فيها ليلة القدر ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣]، لا يحرم خيرها إلا محروم، ليلة يصل فيها الرب ويقطع، ويعطي ويمنع، ويخفض ويرفع، ويميت ويحيي، ويسعد ويشقي، جاء في الأمر أن رسول الله ﷺ تقاصر أعمار أمته بالنسبة لأعمار الأمم الماضية، فرفعهم الله بليلة القدر التي هي خير من ألف شهر.

ما دام أن الله سبحانه منحنا هذه الليلة العظيمة المباركة في هذه العشر العظيمة، فأحيوها رحمكم الله بالقيام والذكر والصلاة والتسبيح، واسألوا ربكم المغفرة والعتق من النار، وتحروا ليلة القدر في أفراد العشر الأواخر من الشهر الذي كله خير وبركة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان»(١) وقالت: كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر أحيا ليله، وأيقظ أهله، وشد المئزر(٢).

وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٠١٧)، ومسلم (رقم ١١٦٩).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٠٢٤)، ومسلم (رقم ١١٧٤).

غفر له ما تقدم من ذنبه»(١) وفيه أن عائشة رضي الله عنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما تقول إذا وافقت ليلة القدر؟ فقال لها: «قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني»(٢).

قال ابن جرير: كانوا يستحبون أن يقوموا كل ليلة من ليالي العشر الأواخر، ومنهم من كان يغتسل ويتطيب في الليالي التي تكون أرجى ليلة القدر، روي عن أنس رضي الله عنه أنه إذا كان ليلة أربع وعشرين اغتسل وتطيب ولبس حلة وإزارا ورداء، فإذا أصبح طواهما فلم يلبسهما إلى مثله من قابل، فيستحب في الليالي التي ترجى فيها ليلة القدر التنظيف والتزين بالغسل والطيب واللباس الحسنة، كما شرع ذلك في الجمع والأعياد، وكذلك يشرع الزينة من الثياب في سائر الصلوات قال تعالى: ﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: ٣١]، قال ابن عمر رضي الله عنهما: الله أحق أن يتزين له، وروي عنه مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يكمل التزين الظاهر إلا بتزيين الباطن بالتوبة والإنابة إلى الله تعالى وتطهيره من أدناس الذنوب، فـ«إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٩٠١)، ومسلم (رقم ٧٦٠).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٣٥١٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٤٤٢٣).

وأعمالكم»[1]، فمن وقف بين يدي ربه فليتزين ظاهره باللباس وباطنه بلباس التقوى، قال سبحانه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ [الأعراف: ٢٦].

إن عشركم هذه التي تستقبلون هي العشر الأخيرة فيها الخيرات والأجور الكثيرة، تكمل فيها الفضائل، وتتم فيها المفاخر، ويطلع على عباده الرب العظيم الغافر، وينيلهم الثواب الجزيل الوافر، فيها تزكو الأعمال وتنال الآمال، وقد ذكر الله جل وعلا من محاسن الإسلام وأهل الإيمان أنهم ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦]، قال: هي قيام العبد أول الليل.

وعن أبي إمامة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم وهو قربة من ربكم ومغفرة للسيئات ومنهاة عن الإثم»[2].

إن من محاسن الإسلام أن الله سبحانه أخفى ليلة القدر ولم يعينها في

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٣٤/٢٥٦٤).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٣٥٤٩)، والبيهقي في سنن والكبرى (٥٠٢/٢)، والحاكم (٣٠٨/١). قال أبو عيسى الترمذي: غريب. وقال الحاكم: على شرط البخاري. ووافقه الذهبي. بينما ضعفه الألباني في ضعيف الجامع (رقم ٣٧٨٩).

ليلة معينة، رحمة من الله لعباده، وإنعاماً عليهم، ليكثروا من العبادة، ويتحروها في عدة ليال، وليجتهدوا في كل الشهر، ويتحروها في العشر الأواخر، قال البغوي رحمه الله: أبهم الله هذه الليلة على هذه الأمة، ليجتهدوا بالعبادة ليالي رمضان، طمعاً في إدراكها كما أخفى ساعة الإجابة في يوم الجمعة، وأخفى الصلاة الوسطى في الصلوات الخمس، واسمه الأعظم من الأسماء، ورضاه في الطاعات، ليرغبوا في جميعها، وسخطه في المعاصي، لينتهوا عن جميعها، وأخفى قيام الساعة ليجتهدوا في الطاعات حذروا من قيامها.

أخي المسلم اعلم رحمك الله أنه ينبغي لكل موفق مريد للكمال والسعادة الأبدية أن يبذل وسعه ويستفرغ جهده في إحياء ليالي العشر الأخيرة وقيامها؛ لعله أن يصادف تلك الليلة الجليلة التي اختص الله بها هذه الأمة المحمدية.

وآتاهم فيها من الفضل ما لا يحصره عدد، فاجتهدوا رحمكم الله بإخلاص الأعمال لله تعالى، وبادروا بالتوبة والاستغفار والابتهال إلى ذي الجلال والإكرام، واعلموا رحمكم الله أن الموتى في قبورهم يتحسرون على زيادة في أعمالهم بتسبيحة أو تحميدة أو ركعة. رؤي بعضهم في المنام فقال: ما عندنا أكثر من الندامة، وما عندكم أكثر من الغفلة، وأنتم تعلمون ولا

تعملون، والله لتسبيحة أو تسبيحتان أو ركعة أو ركعتان في صحيفة أحدنا خير من الدنيا وما فيها. وفي الترمذي: «ما من ميت يموت إلا ندم إن كان محسناً ندم ألا يكون ازداد، وإن كان مسيئاً ندم ألا يكون قد استعتب»(١)، عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله.

لقد رسم رسول الهدى ﷺ للأمة في هذه العشر خير نهج، يوصل إلى الغاية الحميدة ومنازل السعداء، بحرصه ﷺ على الاعتكاف للعبادة والتفرغ لها عن كل المشاغل، فكان يلزم المسجد لا يبرحه ويشتغل بالعبادة، وهذا هو الاعتكاف، يفعل ذلك المصطفى ﷺ اغتناماً للفرصة وسيراً على نهج الصالحين، فإن الفرصة إذا ولت كانت حسرة وندامة، وليس لأحد علم بطول العمر ليستدرك ما فاته في الماضي، ويشتغل بصالح العمل ليدرك الأمل، إنما هي أنفاس معدودة، وآجال محدودة، فمن اغتنم فيها الفرصة الحاضرة وتاجر في الأعمال الصالحة ربح المغنم، ألا وإن من الغبن الواضح البين أن ينصرف البعض عن العبادة في هذه العشر المباركة بضياع الوقت في الأسواق دون ما حاجة إلى ذلك، أو العكوف على آلات اللهو والتفكه بما

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٤٠٣)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (رقم ٥١٤٦).

حرم الله، وليس ذلك بالمسلك السديد ولا بالنهج الرشيد، عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً إلى النبي ﷺ: «أن الله ينظر ليلة القدر إلى المؤمنين من أمة محمد ﷺ ويعفو عنهم ويرحمهم إلا أربعة: مدمن خمر، وعاق، ومشاحن، وقاطع رحم»[1].

فاحذر أيها المسلم من مجالب سخط الله وعوائق العفو والرضوان، لتسعد وتفوز بالمغفرة والنجاة من النار.

(١) لم أجده بهذا اللفظ.

وماذا بعد رمضان

لقد كان من وافر حظ أمة الإسلام وعنوان سعادتها وكرامة الله لها تهيئة زمن الكسب المبرور، لصرف لحظات العمر وسويعات الحياة في سبيل الطاعات ومسالك الخيرات، سعي حثيث للتزود من الباقيات الصالحات.

ولقد كان شهر رمضان المبارك ميداناً للتنافس الشريف، اجتهد فيه أقوام جعلوا رضا الله فوق أهوائهم، وطاعته فوق رغباتهم، وأذعنوا لربهم في كل صغيرٍ وكبيرٍ، لقد صاموا شهرهم وحافظوا على صيامهم، فعظم في ربهم رجاؤهم، وقَصر آخرون فأضاعوا أوقاتهم، وخسروا أعمالهم ما حجبهم إلا الإهمال والكسل والتسويف وطول الأمل.

والأدهى من ذلك والأمر أن يوفق أناس لعمل الطاعات والتزود من فرص الخيرات، حتى إذا ما انتهى الموسم نقضوا ما أبرموا، وعلى أعقابهم نكصوا، أين دروس الصلاح والطهر والاستقامة والتقى من هذا الشهر الكريم.

إن استقامة العبد على النهج المستقيم والمداومة على الطاعة من غير

تقصيرٍ على وقتٍ بعينه أو شهر بخصوصه أو مكان بذاته من أعظم البراهين على القبول.

إن المسلم حقّاً من تكون تقوى الله شعاره طيلة عمره ولباسه مدة حياته، وإن المؤمن صادق الإيمان من يكون عمله بالطاعات واجتنابه للمعاصي والخطيئات ديدناً له ومنهاجاً إلى أن يتوفاه الله، فلا تزيده مواسم الخير إلا اجتهاداً في العبادة، وحرصاً على الطاعة، وترويضاً للنفس على الخير، فإذا انقضت هذه المواسم فإن آثارها تبقى متمثلة في حياته صوراً حية وواقعاً ملموساً وعملاً مشاهداً محسوساً.

لقد مر بنا هذا الشهر المبارك كطيف خيال مر بخيراته وبركاته، مضى من أعمارنا، وهو شاهد لنا أو علينا بما أودعناه فيه، فليفتح كل واحد منا صفحة المحاسبة لنفسه: ماذا عمل فيه؟ وما مدى تأثيره على العمل والسلوك؟ هل أخذنا بأسباب القبول بعده واستمررنا على العمل الصالح؟ أو أن واقع كثير من الناس خلاف ذلك، هل تأسينا بالسلف الصالح الذين توجل قلوبهم وتحزن نفوسهم عندما ينتهي رمضان؟ لأنهم يخافون ألا يتقبل منهم عملهم، ولذا كانوا يكثرون الدعاء بعد رمضان أن يتقبل منهم.

يقول سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠﴾ [المؤمنون: ٦٠] سألت عائشة رضي الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أهل هذه الآية:

أهم الذين يزنون ويسرقون ويشربون الخمر؟ قال: «لا يا ابنة الصديق، ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون ويخافون ألا يتقبل منهم»[1]. وقد قال الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

فحري بكل عاقل، وينبغي على كل مسلم أن ينظر في حاله، ويفكر في أمره، ويتعرف على علامات الربح والخسارة بعد العمل، وأهمها الاستمرار على العمل الصالح، واتباع الحسنة الحسَنة، فمن كانت حاله بعد رمضان أحسن منها قبله بأن كان مقبلاً على الخير، حريصاً على الطاعة، مواظباً على حضور الجمع والجماعات، تائباً منيباً ملتزماً مستقيماً صالحاً بعيداً عن المعاصي، فهذه أمارة قبول عمله إن شاء الله تعالى.

أما من كان حاله بعد رمضان: كحاله قبله فهو وإن أقبل على الله في هذا الشهر إلا أنه سرعان ما ينكص على عقبيه، ويعود إلى المعاصي ويهجر الطاعات، ويجترح ما حرم الله، ويضيع الصلوات، ويتبع الشهوات، ولا يصون سمعه وبصره وجوارحه وأقواله وأفعاله وأمواله عن المحرمات، هذا لا يزداد من الله إلا بعداً إن لم يرجع وينيب إلى ربه.

غريب من المسلمين أن يسيء أبناء هذا الدين الفهم لشعائر الإسلام،

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣١٧٥).

فلا يعملون الطاعات إلا في مواسم معينة وأوقات محدودة، فإذا انتهت كان ذلك آخر عهدهم بها، نعوذ بالله من العمى بعد الهدى، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا ﴾[النحل: ٩٢].

سئل بعض السلف عن أناسٍ يتعبدون في رمضان فإذا انسلخ رمضان تركوا، فقال: بئس القوم لا يعرفون الله إلا في رمضان. فيا من عرفتم الخير في رمضان: كيف تزهدون فيه بعده؟ أنسيتم أن رب الشهور كلها واحد؟ وهو على كل أحوالكم وأعمالكم رقيب وشاهد، فيا من عرفتم أن الصلاة واجبة في أوقاتها، وفي الجماعة في بيوت الله، كيف تجاهلتم ذلك بعد رمضان؟ ويا من علمتم أن الله حرم المعاصي، كيف رجعتم إليها؟ ويا من كنتم تقبلون على القرآن، كيف هجرتموه؟ فيا لعظم المصيبة! أن يرجع أناس بعد الخير إلى الشر، وبعد الهدى إلى الضلالة، وبعد طريق الجنة إلى طريق الجحيم عياذاً بالله من الخذلان.

أين آثار الصيام التي تركها في نفوس المسلمين؟ أين الدروس والعبر التي أُخذت من هذه الفريضة؟ أين التقوى والقوة والتضحية والصبر والمودة والعطف والتعاون الذين يجب أن يكون عليه المسلمون في كل وقت؟ ليتحقق فيهم وصف القرآن، وليكونوا كما أراد الإسلام، إن هذه الآثار يجب أن تبقى متمثلة في حياة المسلمين دائماً في كل وقت وحين.

قرأ الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩٩] فقال: إن الله لم يجعل لعمل المؤمن أجلاً دون الموت، وتلك من محاسن الإسلام عدم انقطاع العبادة. ومن ذلك ما بينه المصطفى ﷺ وحثّ عليه ورتب على ذلك الأجر العظيم والجزاء الكبير.

وصيام ستة أيام من شوال فعن أبي أيوب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «من صام رمضان ثم أتبع ستاً من شوال كان كصيام الدهر»(١) وقد يسر الإسلام في ذلك فلم يلزم تتابعها في الشهر، ولا بلزومها كل عام.

فالكيس من شمر في عبادة الله قبل أن يتوفاه الله وتذكر سرعة تقدم العمر، وقرب حلول الأجل. والعاجز من فتح على نفسه باب التسويف والتثاقل، واسترسل في الغفلات والشواغل، واكتفى بالآمال والأماني، فيندم حيث لا ينفعه الندم.

ينبغي لنا أن نسارع إلى عمل الخيرات في كل زمن وحين، فقد مدح الله تعالى من كان هذا شأنه، فقال تعالى مادحاً لأنبيائه الذين هم صفوة خلقه: ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠] وقال تعالى حاثّاً عباده على ذلك: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١١٦٤)، وأحمد (٥/٤١٧).

مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وأثنى على عباده المؤمنين، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥٧ – ٦١] وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «التؤدة في كل شيء خير إلا في عمل الآخرة»(١) قال الطيبي: معناه أن الأمور الدنيوية لا يعلم أنها محمودة العواقب، لقوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ [البقرة: ١٤٨] وقوله: ﴿ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [الحديد: ٢١].

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٤٨١٠)، والحاكم (١/ ٦٤)، وصححه ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٣٠٠٩).

الحج

شريعة الإسلام شريعة شاملة كاملة، وأسرارها عظيمة في العبادات والمعاملات وغيرها، ومن جملة هذه الشرعية بل هو الركن الخامس من أركان هذا الدين العظيم: الحج إلى بيت الله الحرام، وفيه من الأسرار والحكم العظيمة ما الله به عليم، فمن فوائده العظيمة: الصلة بالله والتقرب إليه، ومفارقة الأوطان والأهل والعشيرة لأداء هذه الفريضة العظيمة، وزيارة البيت العتيق ما لا يحيط به العبارة، فإنه في هذه العبادة يركب الأخطار، ويقطع الفيافي والقفار، ويشق الأجواء، يرجو رحمة ربه ويخاف عقابه ﷻ، فما أحراه بالثواب الجزيل والأجر العظيم من المولى الكريم ﷻ وتقدست أسماؤه.

أما ما شرع الله سبحانه في هذه العبادة من الإحرام والتلبية واجتناب كثير من العوائد، وكشف الرجل رأسه، وخلع الثياب المعتادة، والطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، والوقوف بعرفات، ورمي الجمار، والتقرب إلى الله سبحانه بذبح الهدايا إلى غير ذلك مما شرع الله في الحج،

فمما شهدت العقول الصحيحة والفطر المستقيمة بحسنه، وأنه لا حكمة فوق حكمة من شرعه وأمر به عباده.

يضاف إلى ذلك ما في الحج من اتصال المسلمين بعضهم ببعض، وتشاورهم في كثير من أمورهم، وتعاونهم في مصالحهم العاجلة والآجلة، واستفادة بعضهم من بعض إلى غير ذلك من الفوائد، وكل ذلك من جملة منافع الحج التي أشار إليها سبحانه بقوله: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾[الحج: ٢٨]، فالحج مؤتمر إسلامي عظيم وفرصة للمسلمين ينبغي أن يستغلوها في شتى مصالحهم، وأن يستفيدوا منها لأمر دنياهم وأخراهم.

للحج أسرار عظيمة وحكم بليغة في جميع أعماله، ومنها ما ذكره الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد رحمه الله حيث قال: إن الحكمة في رمي الجمار وغيرها من المناسك — والله أعلم — أنه لما كان من العبادات ما هي عبادة روحية وأهمها العقيدة والإيمان وهو ما تضمنته شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ.

ومنها ما هي بدنية وهي ما شرعها الدين من الأعمال الظاهرة من صلاة وصيام، ومنها ما هي مالية بحتة كالزكاة والصدقات والنسك، ومنها ما هي متضمنة لجميع هذه العبادات الروحية والبدنية والمالية، وتلك فريضة الحج لما لهذه العبادة العظيمة من المنافع والفوائد الدينية والدنيوية، فإن الله

تعالى دعى أولياءه وأتقياءه من عباده على لسان خليله إبراهيم عليه السلام، فقال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝٢٧ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الحج: ٢٧ – ٢٨]، فلبى هذه الدعوة الجليلة من لبى من كل حدب وصوب، ليشهدوا هذه المنافع العظيمة والفوائد الجليلة، ويذكروا اسم الله تعالى ويشكروه على ما رزقهم من نعمة الصحة والعافية والسعة، وما تيسر لهم من نعمة الوصول إلى هذه البقاع المقدسة، يأتون شعثاً غبراً، وقد نزعوا من أنفسهم جميع دواعي الترف والزينة، مقبلين على الله تعالى بالخشوع والتذلل مرتدين أكفان الموتى، وهذا لا شك في منتهى الخضوع والتذلل للواحد الأحد، ثم يقفون في هذه المشاعر العظيمة في موقف عرفات داعين ملبين، ذاكرين بألسنتهم متوجهين إلى الله تعالى بوجوههم وأفئدتهم، ثم يفيضون إلى مزدلفة امتثالاً لأمر ربهم وخالقهم: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩٨]، يتقربون إلى الله تعالى بقضاء ليلتهم تلك بالطاعة والعبادة والذكر، وتلك إشارة بليغة بالإلحاح في الدنيا ورجاء القبول مستعملين في طاعته تعالى قلوبهم وألسنتهم، متعبين فيها أبدانهم وأرجلهم بالمشي والإفاضة إلى منى، ليدركوا مناهم وقصدهم وهو

القبول وغفران الذنوب، ولما وصلوا إلى منى وهم قد بذلوا كل غال ورخيص، واستعملوا قلوبهم وألسنتهم وأبدانهم وبعض جوارحهم، كل ذلك في طاعة مولاهم، لينالوا الفوز في الدنيا والآخرة، ناسب أن يستعملوا بقية جوارحهم في هذه العبادة، وذلك برجم ألدِّ أعداء الله وأخسهم إبليس اللعين، الذي تعرّض لأبيهم إبراهيم الخليل وأسرته عليهم صلوات الله وسلامه، ومن هذا كله يتضح أن هذه العبادة العظيمة قد تضمنت جميع أنواع العبادات الروحية والمالية والبدنية مجتمعة، حيث اجتمع فيها الإيمان وإقرار اللسان والعمل بالأركان.

والحاصل هو: أن المسلم حينما وقف بعرفات والمشعر الحرام مقبلاً على الله بقلبه، داعياً بلسانه، متبرئاً من كل ما يبعده عن الله، وحصل له بهذا عمل القلب واللسان والجوارح على أن الجميع كله لله ولأجل الله وإظهار البراءة من الشيطان والابتعاد عنه، كما أضيف إلى ذلك العبادة المالية التي هي الهدي، فيكون الحاج في هذا كله عمل بقلبه ولسانه وجوارحه وماله، انتهى كلامه رحمه الله.

ومن محاسن الإسلام تنوع الطاعات والعبادات، وفيها حكم عظيمة، فقد نوّع الشارع الحكيم في العبادات والطاعات، لئلا يفلت الإنسان من رحمة الله والإنابة إليه، وليفوز بمغفرته ومرضاته، فتكرار الطاعة في اليوم

الواحد مثل الصلاة المكتوبة: كالغذاء اليومي ليطهر النفس ويهذبها، فطاعة في كل أسبوع: كصلاة الجماعة، وطاعة في العام شهراً: كالصوم، وطاعة بين ذلك: كالزكاة، وطاعة ولو في العمر مرة واحدة: كالحج والعمرة، كل ذلك من أجل المسلم ليعمل بقدر ما استطاع، فينال المغفرة ويصلح ما فاته، فهذه الفرائض وغيرها من العبادات والطاعات اختبار امتحن الله بها عباده ليتبين المطيع من العاصي، كما قال تعالى: ﴿ **لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا** ﴾ [هود: ٧]، أو لأن هذه العبادات والطاعات لما كانت متضمنة شكر الله تعالى على نعمه التي لا تحصى نوعها الشارع الحكيم لتناسب مقام شكر بعض هذه النعم، إذ غير ممكن للمرء شكر نعم الله تعالى كلها، كما قال تعالى: ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا** ﴾ [النحل: ١٨].

منافع الحج

ومن محاسن الإسلام ما اشتمل عليه الحج، الذي هو أحد أركان الإسلام ومبانيه العظام من منافع عظيمة.

ومن ذلك ما ذكره الشيخ عبد الرحمن الدوسري رحمه الله حيث يقول: العبرة في الحج إيقاعاً وفضيلة بأمرين: أحدهما: الإخلاص لله سبحانه بفعله، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦] بأن يكون صادراً عن حُب لله وجرعة روحية إلى رؤية بيته وإقامة مناسكه وتعظيم شعائره، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ [الحج: ٣٠] وقال: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج: ٣٢] لا أن يحج للرؤية والسياحة ومشاهدة ما يقال عنه.

فإن كثيراً من المحسوبين على الإسلام لا يصلي ولكنه يحج، أو يكون مغرقاً في فعل المعاصي ويكثر من الحج، أو يحج لأجل الكسب والتجارة قصداً ورأساً، لا أن يكون أصل مقصده الحج ولكن يستعين بالتجارة ويتروض عليها، إن من كان قصده الحج بنية خالصة لا يضره الاشتغال

بالتجارة ولا يجرح من إخلاصه، ولكن الذي لولا الأعمال التجارية ما ذهب إلى الحج، ولكن يُذهبه إلى الحج ظروف اقتصادية كالتحجيرات على التجارة بالأنظمة العصرية فيستغل اسم الحج عن المراقبة والتفتيش ليرجع من الحجاز بأموال لولا الحج لما دخلت بلاده، وكذلك الاشتغال في مصارفات وتهريبات شتى مخلة بالنية بل مسقطة لها من الأساس، ومنهم من يحج للرياء والسمعة، لينال لقب (الحاج) الذي يغضب على من لم يسمه به، حتى إن بعضهم يستدين بالربا ليحج، ويحظى بهذا اللقب إلى غير ذلك من المقاصد الهادمة لحقيقة الحج من الأساس، وقد قال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»[1].

فهذا الحديث الشريف أصل عظيم في جدوى الأعمال وقبولها عند الله، فكيف بمن يحج للتجسس على دول الإسلام لدولة علمانية أو دولة شيوعية ونحوها من دول الكفر؟!

وكيف بمن يحج ليأخذ تصاوير لمشاهد الحج؟! إنما يتكسب بها في الأفلام السينمائية ونحوها، أو يأخذها للتشهير والسخرية، فما أكثر من يحج لقصد منكر أو هو متلبس بالمنكر من استدانته بالربا للحج ونحو ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١)، ومسلم (رقم ١٩٠٧).

وقسم كبير من حجاج هذا الزمان لا يخطر بباله ما يريده الله منهم في الحج، وإنما يحج لزيارة النبي ﷺ كما هو مشهور عند بعض أهل الأمصار «نزور أبو إبراهيم» يعني الرسول ﷺ، فلا يعرفون للحج معنى غير ذلك.

ومنهم من يحج لأجل الاحتفال به إذا رجع، ومنهم من يحج للتلصص في هذا الزحام المنقطع النظير، ولهذا يرجع كثير من الحجاج وهو متلبس بالآثام أو بأنواع من الشرك لا يزداد بها إلا شروداً عن صراط الله.

ويستثنى من قاعدة الإخلاص أكل الحلال والحرص على اكتسابه واجتناب الحرام وتطهير المكسب، حتى يكون ساعياً لما يحصل به قبول العمل ومضاعفة الأجر واستجابة الدعاء في تلك المواقف العظيمة، وأن يخرج مظالم الناس وخصوصاً أموال المسلمين وأعراضهم.

ومن محاسن الإسلام شهود المنافع العامة في الحج وتحصيلها فقد أجمل الله حكمة الحج بقوله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾[الحج: ٢٨] على الإطلاق، فتشمل المنافع السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والأدبية فعلى حجاج بيت الله الحرام تحقيق الحكمة من الحج بتحصيل هذه المنافع.

فإن الله سبحانه جعل الحج لعباده مؤتمراً سنويّاً خصوصيّاً وعموميّاً شعبيّاً وحكوميّاً، تلتقي فيه جميع الأجناس والطوائف الإسلامية على

مستوى واحدٍ، وفي أماكن متعددة من شعائر الله، تلتقي فيه الكبير والصغير والغني والفقير، من لم يلتق بالآخر حول الكعبة، التقى به حول زمزم، أو التقوا في المسعى بين الصفا والمروة، أو في سائر الأسواق والمنازل، أو في طريق منى وعرفات، أو في المخيم في أحدهما أو في مزدلفة أو مسجد الخيف وغيره، في ذهابهم إلى تلك المشاعر وإيابهم.

فإن الله العليم الحكيم جعل هذه التنقلات لحكمة الالتقاء والتعارف، حتى في رمي الجمرات وطريقها.

فينبغي للحجاج اغتنام الفرصة في هذا المؤتمر العظيم الذي يحصل لهم شهود منافع في جميع نواحي الحياة، يفضي كل جنس منهم إلى الآخر بمشاكله المختلفة، فيتدارسونها ليوجدوا لها الحلول، ويتحسس كل منهم آلام الآخر ليعالجوها على ضوء دينهم، فيرفد بعضهم بعضاً رفداً حسيّاً، ورفداً معنويّاً في كل ناحية من نواحي الحياة.

فإن الحج مؤتمر إسلامي عمومي، لتوحيد غايات المسلمين، وتوجيههم إلى مصادر الحياة الطيبة الصحيحة.

فإن الدين والدنيا مترابطان في نظر الإسلام، لأن الدين يُمد الأرواح بالإيمان الصحيح المدعم بالأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة. أما أمور الدنيا فتمد المسلمين بعناصر القوة والنماء مع جعلها وسيلة لا غاية.

ما قيمة الحج للمسلمين إذا لم يقتبس بعضهم من بعض حلولاً لمشاكلهم الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وما قيمة حجهم إذا لم يقم بعضهم يرفد بعض رفداً ماديّاً ومعنويّاً.

وكذلك في الحج شهود منافع لهم في النواحي الاقتصادية، ليكون كالمعرض العام لمنتوجاتهم ومجلوباتهم مما يحصل انتفاع بعضهم بما ينتجه البعض الآخر من مصنوع أو مزروع، وإنعاش بعضهم البعض، وتشجيع بعضهم لبعض، ولهذا قال سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾[البقرة: ١٩٨] يعني بالتجارة التي لا تخل بأصل نية الحج.

فإن في الحج غايات سامية تعود بالإنسان إلى فطرته الأصيلة، وتطهره مما ران على قلبه وما غشاه من صنوف الأنانية والولوع بالمادية، فالحج فيه ترك ومنح معاً، فيه ترك للمظاهر الزائدة على الفطرة الإنسانية والفاتنة للإنسان والمقسية لقلبه.

وفيه منح عن طريق الهدي والأضحية مما ينتفع به من بهيمة الأنعام، وأنواع المواساة الأخرى لمن يلتقي بهم من إخوانه الحجاج، فيعمل على إرشادهم وعلى رفع مستواهم فكريّاً وماديّاً، وبذلك تصب عبادة الحج في نفس الغاية التي تهدف إليها عبادة الصلاة والزكاة والصوم، من الوحدة الدينية التي يوجبها الله على جميع المسلمين، ليكونوا كالبنيان يشد بعضه

بعضاً، وكالجسد الواحد الذي إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر، لأنهم إذا تحقق لهم اتجاه واحد حصلوا على الاستقامة والاتزان في سلوكهم، فلا يتأرجح بعضهم بين شيئين متناقضين، يكون للواحد منهم بسببها شخصيات متعددة، يلبس اليوم وجهاً، ويلبس في غد وجهاً آخر.

فلابد للمسلمين من تحصيل المنافع التي شرع الله الحج من أجلها، لا أن ينقلب الحج إلى زحام ولكام وشتم وجدال واستمرار على الجهل والتنافر، كما هي الحالة لأكثرهم والعياذ بالله.

لفت أنظار المسلمين
إلى معرفة الحكمة من بعض مناسك الحج

ومن محاسن الإسلام لفت نظر المسلمين إلى الاستفادة والاعتبار بما في الحج من حكمٍ رائعةٍ، توجب على المسلم التفكر فيها والعمل بها.

ومنها الحكمة من الذبح: فعلى ذوي الألباب أن يأخذوا عبرةً عظيمةً للتزود من التقوى في حكمة الذبح ورمي الجمرات في منى، وذلك بالنظر إلى أصل التشريع الإلهي ومنشئه العظيم ومكانته المهمة في الدين، إذ لابد من معرفة سببه، وهو أنه لما كان لُباب الدين صدق محبة الله الذي لا يحصل إلا بتقديم مراد الله ومحبوباته على مرادات النفس الإنسانية ومحبوباتها، وابتلى الله أبانا إبراهيم عليه السلام بالامتحان الثالث فأمره بذبح ولده، هذا بلاء مبين، لأن أحب محبوب وأعز مطلوب وأغلى مرغوب عند الإنسان هو ابنه الوحيد الذي ليس له سواه، والذي رزقه الله إياه عند الشيخوخة.

فهنا تظهر حقيقة الامتحان والنجاح فيه أو السقوط، فإبراهيم عليه السلام علَّم المسلمين تعليماً رائعاً، الصدق الحقيقي مع الله أن يفضلوا مراد الله ومحبوباته على مرادات أنفسهم ومحبوباتها الغالية، فإنه عليه السلام بادر إلى التنفيذ

دون مبالاة بالعواطف النفسية، ونجح في هذا الامتحان، فرحمه الله، وشل حركة السكين عن حلق ابنه، وفداه بذبح عظيم، وجعلها سُنةً مؤكدة باقية في المسلمين إلى يوم القيامة، ليعاملوا الله معاملة المحب لحبيبه، فيضحوا بمرادات أنفسهم ومحبوباتها في سبيل مراد الله ومحبوبه.

فإذا عرف الحجاج هذا المقصود الإلهي والحكمة العظيمة من تشريع الهدي والأضاحي، وأدركوا هذا السر العظيم عادوا يحملون لباب الدين الصحيح الذي يجعلهم لا يتوانون في تنفيذ شيء من أمر الله، لا تمنعهم لذة النوم وشهوة الفراش عن المبادرة إلى صلاة الفجر تفضيلاً لمحبوب الله على محبوب أنفسهم، ولا يمنعهم الطمع في المادة والجشع في الربح عن ترك الغش والغبن، والتطفيف وأخذ الربا وإنفاق السلع بالأيمان الكاذبة.

بل يتركون جميع هذا تفضيلاً لما يحبه الله من الصدق على ما تحبه نفوسهم من الطمع، ولا يمنعهم حب الشهوة والطمع في اللذة عن غض البصر والتزام العفة بحفظ فروجهم تفضيلاً وتقديماً لما يحبه الله من ذلك على ما تحبه نفوسهم وتشتهيه.

ولا يمنعهم الشح وحب الحياة عن الإنفاق في سبيل الله والجهاد بأنفسهم وأموالهم تقديماً لما يريد الله منهم على ما تريده أنفسهم الأمارة بالسوء.

وهكذا يستفيد أولوا الألباب من شعائر حجهم ما يتزودون به على التقوى. ومن الحكمة من الرمي في رميهم الجمار: يعرف المسلمون أنهم لا يرمون الشيطان، وليس الشيطان بواقف لهم يرجمونه، وإنما يرجمون المواقف التي وقف الشيطان لأبيهم إبراهيم فرجمه فيها، فهم يرجمونها لا لمجرد التكرار، ولكن للاعتبار والانتفاع.

إذ يجب عليهم أن يتأملوا كيف عرف أبوهم إبراهيم عليه السلام أن الذي وقف لهم شيطان، والشيطان لا يُرى بصورته وإنما وقف بصورة رجل وقور يتساءل معه عما في يده من الحبل والسكين التي سيذبح بها الولد ويناشده الرحمة والحنان، فلما سمع منه تلك الفتنة التي يريد بها صده عن تنفيذ أمر الله، عرف أنه شيطان قد تصور بهذه الصورة تفرض الإغواء، فرجمه بسبع حصيات تخسئة له، ولكن الخبيث لم ييأس، فوقف له موقفاً آخر بشكل وزي آخر، وخاطبه بفتنة أخرى فعرف أنه شيطان متمثل لفتنته فرجمه حتى ولى، ولكنه لم ييأس من محاولة فتنته فوقف له وقفة ثالثة بشكل آخر وزي آخر، محاولاً فتنته بأسلوب آخر.

ولكن إبراهيم عليه السلام لم يتأثر إلا بزيادة معرفته له وزيادة صلابته معه، قائلاً له ما معناه، يا هذا مهما تشكلت أو اختلف منطقك فأنت «أزي العقبة» أي شيطان العقبة، الذي وقفت لي أول مرة في العقبة، وليس عندي لك إلا

الرجم، فرجمه الثالثة حتى خسأه ويَأسه وخيب ظنه، فأولوا الألباب من الحجاج يعتبرون بهذا الرجم لمواقف الشيطان، ويأخذون من ذلك دروساً وعبراً، ليعاملوا كل شيطان من شياطين الجن والإنس بالرجم المعنوي الذي هو لعنه وبغضه وعصيانه والابتعاد عنه، فيعرفون كما عرف أبوهم إبراهيم أن كل من يحاول صدهم عن أمر الله أو فتنتهم عن دين الله أو انشغالهم عن ذكر الله بأي أسلوب من أساليب الدعاية والنشر فهو شيطان، سواء كان صحفيّاً أو مذيعاً أو قصصيّاً أو كاتباً أو شاعراً وغير ذلك، فيرجموه ببغضه ورفض ما يبثه أو ينشره عليهم، وهذا من بعض فوائد الحج.

ومن محاسن الإسلام أن الله سبحانه أتاح للمسلمين فرص الطاعات والعبادات في كل وقت.

ومنها الاستغفار في الحج، حيث يقول سبحانه ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ﴾ [البقرة: ١٩٩] يريد منهم عموم الاستغفار، سواء ما أحدثوه من الضلال ضلال الشرك والتغيرات في الحج، أو الاستغفار من جميع الذنوب المقترفة في كل شأن من شئون الحياة.

والمراد منه الاستغفار باللسان مع التوبة الصادقة في القلب، وذلك بالندم على كل تقصير حصل في طاعة الله، أو اقتراف لإثم، مع عزم التائب المستغفر من ذلك أن لا يعود إليه، وأن يخلص مقاصده لوجه الله ابتغاء

مرضاته، لا لغرضٍ سوى ذلك.

كما أن النطق بالشهادتين لا ينفع صاحبه دون حضور القلب واستقرار معناهما فيه، واستيفائه لمدلولهما والتصميم على العمل به بمقتضاهما، فكذلك الاستغفار لأن صدوره من اللسان دون حصوله في القلب يكون مهزلة جالباً لغضب الله، وفي تعميم أمر الله لعباده بالاستغفار إعلام لهم وتذكير بعظيم حقه عليهم، وأن من لم يذنب فهو مقصر بواجب الله مهما عمل، فمداومة الاستغفار مع صدق العبد جابر لما نقص منه في حق الله، لأن طاعة المخلوق لا تليق بحضرة الخالق المنعم المتفضل ولا تفي بحقوقه.

ولهذا كانت الملائكة التي لا تفتر عن عبادته تقول: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك، ويقول ﷺ: «إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة»[1] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[البقرة: ١٧٣] فاسمه الغفور من المبالغة في المغفرة.

وختام هذه الآية يدل على أن الله يقبل توبة التائب ويوفقه لها، وأنه كثير الغفران كثير الرحمة لمن تمسك بحبل رحمته وكرمه، وأن الإتيان بهذه المناسك والتعرض لنفحات جوده ورحمته فيها جالب للمغفرة والرضوان.

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٧٠٢).

فعلى الحجاج أن يحرصوا على الأخذ لأنفسهم بنصيب وافر من ذلك، ومن موجبات الرحمة والمغفرة صدق التجرد لله عن الأغراض النفسية وتصميم العزم على تجريد التوحيد لله وعدم انصراف القلب إلى غيره من أي محبوب أو مرغوب يساوي حبه في الله أو يعمل له مع الله فضلاً عن تقديمه على الله، كما يفعله أهل شرك التعطيل في هذا الزمان، فإن كل شعيره من شعائر الإسلام ترمز إلى ذلك.

الحِكم في الحج

ومن محاسن الإسلام ما ذكره الشيخ عبد الرحمن الدوسري رحمه الله عن الحكمة من مشروعية الحج: لقد أجرى الله سبحانه في تنوع العبادات ليربي المسلمين تربية مثالية، تجعل من أهلها قدوة صالحة، تنجذب إليهم بسببها أغلبية البشرية المتطلعة إلى التحرر الصحيح والحضارة الحقيقية.

وهذان لا يحصلان أبداً في مجتمع يخضع بعضه أو أغلبه لضغوط أفراد ومطالبهم وتشريعاتهم النابعة من أهوائهم، والخادمة لأغراضهم، والمقدسة والحامية لأشخاصهم فقط، فإن هذا مجتمع متخلف مستعبد، لأن بعضه أرباب وغالبيته عبيد، فهم مهما حاولوا قلب الحقيقة بدعوى التقدمية والتحرير، فإنها تقدمية إلى العذاب العاجل في الدنيا من البؤس والشقاء والتنكيل وفساد الأعراض وإهدار الكرامة؛ إنها تقدمية نحو البهيمية، بل البهيمية أفضل، وإنه تحرير من الإنسانية وانسلاخ عنها.

وإنما يحصل التحرر الصحيح والتطور النافع والتقدمية الحضارية الصحيحة بإطراح هذه الجاهليات الجديدة التي هي أفظع وأشنع وأسفل من

الجاهلية الأولى، التي حاربها رسول الله ﷺ، وواصل أصحابه من بعده محاربتها، وأقاموا الحضارة الإسلامية المعروفة، التي لا ترى في الدنيا كلها من خير إلا وهو من بقاياها وآثارها، وحرروا أكثر العالم من رق الطواغيت السياسيين والروحانيين.

فإن الجاهلية مهما تنوعت أسماؤها وزخرفت ألقابها وطبل لها المطبلون وزمروا، فكلها ترجع إلى معنى واحد وقاعدة خبيثة لئيمة، هي إقامة الفكر البشري إلهاً على الناس من دون الله، برز باسمه من لا يرجع إلى الله في أي شأن من شئون الحياة، بل قد يبرز هذا الفكر أقزاماً يستهزؤون بمقدرات الناس.

فمشروعية الله للحج وغيره من عبادات الإسلام المتنوعة، هي تحرير لعقل الإنسان من الأوهام والأضاليل، التي علقت به من مكر الدجاجلة والطواغيت.

وتطهير لقلب الإنسان وتصفية له من محبة غير الله والتعلق بغير الله، وتخليص له من وشائج الأرض والطين وعصبية الجنس المفرقة بين البشرية، ولهذا تجد جميع آيات الأحكام المختومة بالوصية بتقوى الله أو بما يقتضي التخويف من الله، ومهماتها يوجه الله بها نداءه إلى ذوي العقول والألباب لهذه الآية ﴿وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وفي تخصيص الله نداءه بالتقوى لأولي الألباب تعريض بأن من لم يتق الله فليس له لب ولا عقل فطري استقلالي، وإنما عقله مصادر بدعايات الأباطيل المتنوعة، فهم فقدوا العقل الروحي الذي يتحقق لهم بوجوده حسن المصير في الدنيا والآخرة، ويكتسبون به الحياة الطيبة، وتتوفر به طاقاتهم، ويحصلون به على الأمن والطمأنينة، وإن كان لهم أذهان يستطيعون بها الإبداع في الصناعات والمخترعات، ويستطيعون بها على المكر والقهر السياسي المتقلب، الذي لا يحصدون منه سوى الشرور، لأنه عقل مادي يشبه ما تحمله بعض الحيوانات من العمل لصالح حياتها المادية.

ومن محاسن الإسلام: إرشاد مقنعيه بصيانة حجهم من الرفث والفسوق، ليحظوا بالأجر من الله، ولئلا يتعرضوا لما يحبط أجرهم أو ينقصه، يقول سبحانه: ﴿**فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ**﴾[البقرة: ١٩٧].

يعني أنه من أوجب الحج على نفسه خلال هذه الشهور بأن تلبس به وألزمه نفسه فليحترم ما التزمه من شعائر الله، وليصنه من الرفث الذي هو مقاربة النساء ما دام محرماً.

ومن الفسوق الذي هو الخروج عن حدود الشرع بفعل أي محظور يخل بإحرامه، خصوصاً ما نص الله عليه في سورة الحج، ومن قوله: ﴿**فَٱجْتَنِبُوا۟**

﴿ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠].

ومن الفسوق: الخصومات والفحش والبجاجة بمفهوم النص على ترك الجدال بقوله: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وتنويع هذه المنهيات في الحج من الله بترتيب عجيب، فابتدأ بالرفث المفسد للحج حسب ما فصله العلماء، ثم الفسوق الذي هو الخروج عن أي شيء من حدود الله في الإحرام، ثم الجدال الذي كان جارياً بين القبائل في الجاهلية، من التنازع والتفاخر والتنابز بالألقاب، فما أجمل هذا التناسب بين الكلمات في هذه الآية الكريمة.

والحكمة في النهي عن هذه الأشياء هي تعظيم حرمات الله، فإن المتلبس بالحج يكون أولاً في إحرام، ثم تزداد عليه الحرمة بدخوله في الحرم، ثم تزداد بمزاولته لأعمال الحج، فيكون محفوفاً بعظيم الحرمات، فيجب عليه أن يكون على أحسن حالة وأكملها لحضوره مع الله في تلك الحرمات.

ولهذا ورد الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «إن الله تعالى يباهي ملائكته عشية عرفة بأهل عرفة، يقول: انظروا إلى عبادي، أتوني شعثاً غبراً»[1] فعلى الحاج أن لا يفرط في هذا الحظ العظيم، ولهذا قال تعالى:

(١) صححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ١٨٦٨).

﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: ١٩٧] فإن في هذه الجملة التفاتة إلى الخطاب مشعرة بحذفٍ تقديره اتركوا هذه الأمور التي حرمتها عليكم في الحج، لتصفية نفوسكم من أدران المعاصي، وتحليتها بالطاعة فإن ما تفعلوه من خير يعلمه الله، ويزكي به نفوسكم، فيجعل فيها الاستعداد لتحصيل المنافع في الحج، ولا يخفى عليه سبحانه خافية، ولا يضيع من أعمالكم شيئاً، بل يزيدكم على ثوابها توفيقاً لما يريده منكم فاستبقوا الخيرات، وتنافسوا في الأعمال الصالحات في هذا الموسم العظيم، موسم الحج الذي تجتمعون فيه من جميع الآفاق، فإنه مدرسة إسلامية كبرى، كما أنه مؤتمر عالمي عظيم.

وفي هذه الآية فوائد: منها الحكمة في إجمال النهي عن هذه الخصال الثلاثة بقوله: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ﴾ [البقرة: ١٩٧] أن الإنسان فيه أربع قوى: قوى شهوانية بهيمية، وقوة غضبية سبعية، وقوة وهمية شيطانية، وقوة عقلية ملكية.

والمقصود من جميع العبادات المتنوعة هو قهر القوى الثلاثة أعني الشهوانية والغضبية والوهمية.

فنهى الله سبحانه عن الرفث لقهر الشهوانية.

ونهى عن الفسوق لقهر القوة الغضبية التي توجب التمرد والغضب.

ونهي عن الجدال لقهر القوة الوهمية التي تحمل الإنسان على الجدال حتى فيما لا يجوز كالمراء في الدين. والجدال في ذات الله أو صفاته أو أحكامه، وهذه القوة الوهمية الشيطانية هي البعثة للإنسان على منازعة الناس ومماراتهم ومخاصمتهم، وبهذا يتضح أن الشر محصور في هذه الأمور الثلاثة، التي نهى الله الحاج عنها، والله عليم حكيم، ومنها قصر الله إخبارنا عن علمه بالخير دون الشر، وهو يعلم الجميع، هو من عظيم رحمته وحسن تربيته لعباده، حيث قال: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾[البقرة: ١٩٧].

ففي ذلك فوائد ولطائف يستحق عليها مزيد الشكر ومداومة الذكر.

فمنها: وهو ألطفها: إعلامه سبحانه لنا بستر الشر وذكر الخير، كأنه يقول: يا عبادي إذا علمت منكم الخير ذكرته وشهرته، وإذا علمت منكم الشر خفيته وسترته رحمة بكم في الدنيا والآخرة، إذا طهرتم قلوبكم من محبة غيري الموجبة للإشراك.

ومنها أنه إشعار منه بثواب الخير وإكرام صاحبه في الدارين، فكأنه سبحانه يقول: كل ما تتحملونه يا عبادي من أنواع المشقة والطاعة في الحج قصداً لوجهي فأنا عالم به، وسأثيبكم عليه، وهذا من بعض كرمه وتشجيعه لعباده.

العيد

إن من محاسن دين الإسلام هذا العيد السعيد، الذي توج الله به شهر الصيام، وافتتح أشهر الحج إلى بيته الحرام، وهو اليوم الذي يخرج فيه المسلمون فرحين بما أنعم الله به عليهم من إتمام الصيام والقيام، يؤدون صلاة العيد تعظيماً لله، وإقامة لذكره، وبرهاناً على ما قام بقلوبهم من محبته وشكره، يحسنون الظن بمولاهم، لأنه عند ظن عبده به، يؤملون منه كل خير، لأنه صاحب الفضل والإحسان إليهم، يسألون الجواد الكريم الذي منَّ عليهم بالعمل أن يمن عليهم بقبول ذلك، وأن يجعلهم من الرابحين.

إن الإسلام يأمر بإخلاص العبادة لله، وينهى عن الرياء. يأمر باتباع رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين، وينهى عن البدع في الدين. يأمر ببر الوالدين، وينهى عن العقوق. يأمر بصلة الأقارب، وينهى عن القطيعة. يأمر بالعدل وهو إعطاء كل ذي حق حقه من غير نقص، وينهى عن الجور وهو الظلم. يأمر بالصدق والنصح والأمانة، وينهى عن الكذب والغش والخيانة. يأمر بتطهير القلوب من الغل والحقد على المسلمين، وينهى عن البغضاء

والعداوة. يأمر بالحزم والقوة، وينهى عن الكسل والضعف، فهو دين يأمر بكل خير وصلاح، وينهى عن كل شر وفساد.

هذه القيم والأوامر والنواهي الإلهية والربانية مطلوب تنفيذها كل وقت، لأن الإنسان خلق للعبادة ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، ولكن يجب أن تتجلى وتظهر وتتجدد مظاهر الود والصفاء والإخاء في العيد.

من الأمور التي ينبغي التذكير بها أحكام صلاة العيد، وما يفعله المسلم في يوم العيد من السنة الثابتة عن النبي ﷺ:

أولاً: ينبغي للمسلم أن يحرص يوم العيد على الاغتسال والطيب، فقد استحبه طائفة من أهل العلم، وثبت عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان يغتسل قبل أن يغدو إلى الصلاة.

واستحب بعض أهل العلم إزالة شعر الإبط وتقليم الأظافر، وما يتبع ذلك، لأن ذلك من تمام الزينة، ولبس أحسن ما يجد من الثياب، فقد ثبت عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان يلبس أحسن ثيابه في العيدين، قال ابن القيم رحمه الله وكان ﷺ يلبس للعيدين أجمل ثيابه، فكانت له حلة يلبسها للعيدين والجمعة.

ثانياً: يستحب قبل خروجه إلى الصلاة في عيد الفطر أن يأكل تمرات

وتراً، والوتر إما أن يكون ثلاثاً أو خمساً أو سبعاً، فعن أنس ﵁ قال: ما كان رسول الله ﷺ يغدو يوم الفطر حتى يأكل تمرات، ويأكلهن وتراً.

ثالثاً: يستحب له أن يذهب من طريق ويرجع من آخر، فعن جابر ﵁ قال: كان النبي ﷺ إذا كان يوم عيد خالف الطريق، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١].

رابعاً: السنة أن تكون الصلاة في مصلى العيد وليس المسجد، وهذا هو المعروف من فعله ﷺ ومواظبته، كما رجحه جمع من أهل العلم، إلا إذا كان هناك مانع من برد أو مطر.

خامساً: لم يثبت عن النبي ﷺ أنه صلى قبل العيد أو بعده نافلة في المصلى، فعن ابن عباس ﵄ أن النبي ﷺ خرج يوم الفطر فصلى ركعتين، لم يصل قبلهما ولا بعدهما.

سادساً: إذا رجع إلى بيته يشرع له أن يصلي ركعتين، فعن أبي سعيد الخدري ﵁ قال: كان النبي ﷺ لا يصلي قبل العيد شيئاً، فإذا رجع إلى منزله صلى ركعتين.

سابعاً: يستحب التكبير من غروب شمس ليلة العيد، وأوجبه بعض

أهل العلم، لقوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾[البقرة: ١٨٥].

ويكبر من حين خروجه من بيته حتى يأتي الإمام إلى المصلى، وهذا التكبير مشروع باتفاق الأئمة الأربعة، وجاء عن ابن عمر أنه كان يخرج للعيدين من المسجد، فيكبر حتى يأتي المصلى، ويكبر حتى يأتي الإمام، وعن ابن مسعود أنه كان يقول: الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر الله أكبر ولله الحمد.

ويستحب التكبير في المساجد والمنازل والطرق.

ثامناً: تأكد صلاة العيد على الرجال والنساء، ورجح جمع من أهل العلم الوجوب، واستدلوا بحديث أم عطية أن النبي ﷺ أمر بخروج العواتق أي البالغات والحُيَّض، وأمر الحُيَّض أن يعتزلن المصلى ويشهدن الخير ودعوة المسلمين.

تاسعاً: التهنئة بالعيد، فقد نقل عن بعض الصحابة أنهم كانوا يقولون في العيد: تقبل الله منا ومنكم، ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

العيد

من محاسن الإسلام العيد، فالعيد في الإسلام غبطة في الدين والطاعة، وبهجة في الدنيا والحياة، ومظهر للقوة والإخاء، إنه فرحة بانتصار الإرادة الخيرة على الأهواء والشهوات، والخلاص من إغواءات شياطين الإنس والجن، والرضا بطاعة المولى، والوعد الكريم بالفردوس والنجاة من النار.

ومن مظاهر الإحسان بعد رمضان الإحسان في العيد، فالعيد موسم بهجة بعد أداء الفريضة، وقد قيل: من أراد أخلاق الأمة فليراقبها في أعيادها، إذ تنطلق فيه السجايا على فطرتها، وتبرز العواطف والميول والعادات على حقيقتها. والمجتمع السعيد الصالح هو من تسمو أخلاقه في العيد إلى أرفع ذروة، وتمتد فيه مشاعر الإخاء إلى أبعد مدى، حيث يبدو المجتمع في العيد متماسكاً متعاوناً متراحماً، تخفق فيه القلوب بالحب والود والبر والصفا.

العيد مناسبة لإطلاق الأيدي الخيرة في مجال الخير، حيث تعلو البسمة الشفاه، وتغمر البهجة القلوب، مناسبة لتجديد أواصر الرحم في الأقرباء

والود مع الأصدقاء، تتقارب القلوب على المحبة، وتجتمع على الألفة، وترتفع عن الضغائن، وكم هو جميل أن يقارن الفرح بالعيد وبهجته السعي في تفريج كربة وملاطفة يتيم، ومواساة ثكلى، يقارنه تفتيش عن أصحاب الحوائج، فإن لم تستطع بالمال فأسعفهم بكلمة طيبة، وابتسامة حانية، ولفتة طاهرة من قلب مؤمن، إنك حين تأسو جراح إخوانك إنما تأسو جراحك، وحين تسد حاجة جيرانك إنما تسد حاجة نفسك: ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ﴾[البقرة: ٢٧٢]، ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ﴾[فصلت: ٤٦].

إن الابتهاج بالعيد نعمة لا يستحقها إلا الشاكرون، وما الشكر عليها إلا صمود لنوائب الدهر، ويقظة لدسائس العدو وعمارة للأرض بنشر دين الله.

إن في الناس من تطغى عليه فرحة العيد فتستبد بمشاعره ووجدانه لدرجة تنسيه واجب الشكر والاعتراف بالنعم، وتدفعه إلى الزهو بالجديد، والإعجاب بالنفس حتى يبلغ درجة المخيلة والتباهي، وما علم هذا المتباهي أن العيد قد يأتي على أناس قد ذلوا بعد عز، فتهيج في نفوسهم الأشجان، وتتحرك في صدورهم كثير من الأحزان، ذاقوا من البؤس ألواناً بعد رغد عيش، وتجرعوا من العلقم كيزاناً بعد وفرة النعيم، فاعتاضوا عن الفرحة بالبكاء، وحل محل البهجة الأنين والعناء.

أما نظر هـؤلاء في الأطفـال والأيـامى مـن أعقـاب الحـروب مـن القتـل والتـشريد، كـم مـن يتيم يـنشد عطـف الأبـوة الحانيـة، ويـتلمس حنـان الأم الرؤوم، يرنو إلى من يمسح رأسه، ويخفف بؤسه، كم من أرملةٍ توالت عليها المحن فقدت عشيرتها، تذكرت بالعيد عزًّا قد مضى تحت كنف زوج عطوف، كل أولئك وأمثالهم قد استبدلوا بعد العز ذلاًّ، وبعد الرخـاء والهناء فاقة وفقـراً، فحـق علـى كـل ذي نعمـةٍ ممـن صـام وقـام أن يتـذكر هـؤلاء فيرعـى اليتامى، ويواسي الأيامى، ويرحم أعزاء قوم قد ذلوا وغرباء قد شردوا.

كم هو جميل أن تظهر أعياد الأمة بمظهر الواعي لأحوالها وقضاياها، فـلا تحـول بهجتهـا بالعيـد دون الـشعور بمـصائبها الـتي تـرزح تحتهـا فئـام مـن أبنائهـا، حيـث يجـب أن يطفـى الـشعور بالإخـاء قويـاً، فـلا نـنسى إخوانـنا المـسلمين في كـل مكـانٍ ولأراضـي المسلمين المنكوبـة بمجاهـديها وشـهدائها، كذلك نحسبهم والله حسيبهم، فلا ننسى يتاماها وأراملها وأطفالها وأسـرها، فلمـاذا يتركـون يـستجدون أمـم الأرض لقمـةً وكـساءً وخيمـةً وغطـاءً، وفي المسلمين أغنياء وموسرون.

لقد شرع الله سبحانه في ختام شهر رمضان عباداتٍ تزيـد مـن الله قربـاً، وتزيد في الإيمان قوةً وفي سجل الأعمال حسنات.

وإن من مظاهر الإحسان ومواصلة العمـل الـصالح والتوديع بالحسنى

إخراج زكاة الفطر، حيث تـأتلف القلـوب، ويتعـاطف الغـني مـع الفقـير، فرضت طهرةً للصائم وطعمةً للمساكين، وما اشتكى فقير إلا بقدر ما قصر غني، ومقدارها صاع من طعام من غالب قوت البلد: كالأرز والبر والتمر عن كل مسلم ووقت إخراجها الفاضل يوم العيد قبل الصلاة، فاخرجوها رحمكم الله طيبة بها نفوسكم، تكف بها يد المسكين عن الطلب ويستغني بها عن المسألة.

وشرع سبحانه التكبير عند إكمال العدة من غروب شمس ليلة العيد إلى صلاة العيد. قال الله تعالى: ﴿ **وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [البقرة: ١٨٥] وصفته أن يقول: الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد. ويسن جهر الرجال به في المساجد والأسواق والبيوت إعلاناً بتعظيم الله وإظهاراً لعبادته وشكره، ويسر به النساء لأنهن مأمورات بالتستر والإسرار بالصوت، ما أجمل حال الناس وهم يكبرون الله تعظيماً وإجلالاً في كل مكان عند انتهاء شهر صومهم، يملأون الآفاق تكبيراً وتحميداً وتهليلاً، يرجون رحمة الله، ويخافون عذابه.

وشرع الله سبحانه لعباده صلاة العيد يوم العيد، وهي من تمام ذكر الله ﷻ، لقوله تعالى: ﴿ ۞ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ**

﴿أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [محمد: ٣٣] وقد أمر النبي ﷺ النساء أن يخرجن إلى صلاة العيد مع أن البيوت خير لهن فيما عدا هذه الصلاة، وهذا دليل على تأكيدها، قالت أم عطية رضي الله عنها: أمرنا رسول الله ﷺ أن نخرجهن في الفطر والأضحى – أي العواتق والحيض وذوات الخدور – فأما الحيض فيعتزلن المصلي ويشهدن الخير ودعوة المسلمين. قلت: يا رسول الله إحدانا لا يكون لها جلباب قال: «لتلبسها أختها من جلبابها»[(١)]، والجلباب لباس تلتحف فيه المرأة بمنزلة العباءة.

ومن السنة أن يأكل قبل الخروج إلى الصلاة في عيد الفطر تمرات وتراً ثلاثاً أو خمساً أو أكثر من ذلك، يقطعها على وتر، لقول أنس بن مالك رضي الله عنه: كان النبي ﷺ لا يغدو يوم الفطر حتى يأكل تمرات ويأكلهن وتراً[(٢)].

ويسن للرجل أن يتجمل ويلبس أحسن ثيابه، ولا يجوز للرجل أن يلبس شيئاً من الحرير أو شيئاً من الذهب، لأنهما حرام على الذكور من أمة محمد ﷺ، وأما المرأة فتخرج إلى العيد غير متجملة ولا متطيبة ولا متبرجة

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٩٨٠)، ومسلم (رقم ٨٩٠).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٩٥٣).

ولا سافرة، لأنها مأمورة بالتستر، منهية عن التبرج بالزينة والطيب حال الخروج، ويؤدي المسلم الصلاة بخشوع وحضور قلب، ويكثر من ذكر الله ودعائه، ويرجو رحمته ويخاف عذابه، ويتذكر باجتماع الناس في الصلاة على صعيد المسجد اجتماع الناس في المقام الأعظم بين يدي الله ﷻ في صعيد يوم القيامة.

القرآن الكريم

إن من نعم الله سبحانه على عباده المسلمين ومن محاسن الإسلام الكثيرة أن جعل القرآن العظيم دستور المسلمين وتشريعاً ثابتاً لا يتغير ولا يتبدل، فيجب على المسلمين أن يحمدوا الله سبحانه و يشكروه على ما مـنّ به علينـا وخصنـا به من إنـزال القرآن، فهو القرآن العظيـم، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، فهو كلام الله الذي لا يشبهه كلام، ولا يأتيه الباطـل مـن بين يديـه ولا مـن خلفـه تنزيـل من حكيم حميد، تكفّل الله بحفظه، فلا يتطرق إليه زيادة ولا نقصان، أنزله الله على رسوله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، أنزله شفاءً لما في الصدور، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ [يونس: ٥٧]، أنزله عصمة ونجاة لمن تمسك به، قال تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣]، وقال ﷺ: «تركت فيكم شيئين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبدا:

كتاب الله وسنتي»[1] أنزله حجة على العالمين وآية على صدق رسالة عبده ورسوله محمد ﷺ، كما قال سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ [العنكبوت: ٥١]، أنزله لتلكم الأمور وغيرها وبأرفع أسلوب وأروع بيان وأجمع معنى عرفته لغة البشر.

لا غرو أن ينزل القرآن بتلكم الصفات، فهو كلام الله ﷻ الذي تكلم به، وأنزله تشريعاً خالداً ثابتاً لا يغيّر ولا يتغير، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ [الحجر: ٩]، فهو حجة الله على عباده وآية رسوله التي تحدى الله بها أمراء البلاغة وفحول البيان على أن يأتوا بمثله، فعجزوا، ثم بمثل عشر سور مثله فنكصو ثم بآية فانقطعوا وصدق الله العظيم: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝٨٨ ﴾ [الإسراء: ٨٨]، وكان بعض شجعان قريش وصناديدها يخرج الواحد منهم يحمله طغيانه وكفره شاهراً سيفه ناوياً القضاء على دعوة القرآن ومن جاء بالقرآن، فما يلبث حين تدركه لمحة من لمحات العناية فينصت إلى صوت القرآن في سورة أو آية أن يذل للحق ويخشع ويؤمن

(١) أخرجه الحاكم (١/٩٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٢٩٣٧).

بالله ورسوله وكتابه ويخضع.

إن بين ظهرانيكم لكنزاً عظيماً لا ينفد، ومنهلاً عذباً صافياً لا ينضب ولا يأسن أبدا. بين ظهرانيكم هذا القرآن الكريم الذي جعله الله مخرجا من كل فتنة ومنجاة من كل بلية، وما منا من أحد في هذه الدنيا مهما كان مقامه إلا وهو محتاج إلى ما يشد أزره، ويرسي قدمه، ويزيد في إيمانه ويقينه، ليرسو أمام تلكم الشهوات والتحديات رسو الجبال الشمّ التي لا تحركها الهزات، ولا تؤثر فيها الأعاصير، وأنه لا بقاء لذكر وأثر مستطاب إلا بأن يتجه المرء اتجاهاً صحيحاً بقلبه وقالبه إلى كتاب ربه: تلاوة وتدبرا وتعلما وعملا، فهو الكنز الوافر الذي لا يزده الإنفاق إلا جدة وكثرة ولا يزده تكرار التلاوة إلا حلاوة ورغبة بيد أنه لا تمنح كنوزه إلا لمن أقبل عليه بالعلم والعمل، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴿٣٧﴾ ﴾ [ق: ٣٧].

القرآن الكريم

مازال الحديث موصولاً بذكر محاسن الإسلام في القرآن العظيم، وأنه المعجزة الخالدة لنبينا محمد ﷺ، فيجب على المسلمين العناية والاهتمام بكتاب الله: تدبرًا وعلمًا وعملاً، ولابد أن تظهر آثار تطبيقه على جوارحنا، كما كان المصطفى ﷺ يعمل به، فلما سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ قالت: كان خلقه القرآن[1]، يأتمر بأمره، وينتهي عن نهيه.

فالقرآن إنما أنزل ليعمل به، فعلينا جميعاً بتلاوة كتاب الله، لاسيما في هذا الشهر الكريم اقتداءً بنبينا محمد ﷺ، فلقد كان يلقاه جبريل فيدارسه القرآن في رمضان، وكان السلف الصالح رضي الله عنهم يكثرون من قراءة القرآن قراءة ملؤها التدبر والتفكر والخشوع والخضوع لله سبحانه.

فهذا عبد الله بن عروة بن الزبير رضي الله عنه يقول: قلت لجدتي أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا سمعوا القرآن؟ قالت: تدمع أعينهم، وتقشعر جلودهم، كما نعتهم الله. وسمع عمر بن

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٧٤٦)، وأحمد (٦/٩١)، وأبو داود (رقم ١٣٤٢).

الخطاب رضي الله عنه رجلاً يتهجد في الليل ويقرأ سورة الطور، فلما بلغ قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝﴾ [الطور: ٧ – ٨]، قال عمر: قسم ورب الكعبة حق. ثم رجع إلى بيته فمرض شهراً يعوده الناس، ما يدرون: ما مرضه.

هذا هو جيل الصحابة الكرام وحالهم وتأثرهم بالقرآن، ولنستمع إلى الجيل الثاني جيل التابعين، حدث أبو بكر بن عيّاش: صليت خلف الفضيل ابن عياض صلاة المغرب وإلى جانبه عليّ ابنه، فقرأ الفضيل: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝﴾ [التكاثر: ١]، فلما بلغ ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝﴾ [التكاثر: ٦]، سقط عليّ مغشيًّا عليه. وبقي الفضيل لا يقدر أن يتجاوز الآية، ثم صلى بنا صلاة خائف، ثم رابطت علياً فما أفاق إلا في نصف الليل، هذه حال سلفنا الصالح في تلاوتهم للقرآن وسماعه، فما هي حالنا نشكو إلى الله قسوة في قلوبنا.

ليقف كل منا مع القرآن، وليمعن النظر فيه إذا تلاه أو سمعه، ماذا سيشهد له أو عليه به، عارضاً أقواله وأفعاله ومعاملاته عليه، فليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل، فمن وجد خيراً فليحمد الله وليزدد، ومن وجد غير ذلك أقلع وأناب قبل أن يأتيه الموت ولا ينفع الندم والتحسر.

أكثروا رحمكم الله من تلاوة القرآن في هذا الشهر الكريم المبارك، فإن تلاوته في هذه الشهر لها مزية وفضيلة على غيره من الشهور، لأنه أنزل فيه، ولأن الحسنات تضاعف فيه أكثر من غيره، ولذلك كان جبريل عليه السلام يدارس نبينا محمدًا ﷺ بالقرآن في هذا الشهر كل ليلة من لياليه.

كان السلف الصالح رحمهم الله تعالى يعتنون بالقرآن أشد العناية، فبالقرآن دخل الناس في دين الله أفواجا، وبالقرآن فتحوا البلاد ودانت لهم رقاب العباد، ومكنهم الله في الأرض، ولذا نجد أن لأهل القرآن مكانة عند عمر رضي الله عنه كما قال ذلك ابن عباس رضي الله عنهما: كان القراء أصحاب مجلس عمر ومشاورته كهولاً وشباباً.

الاستغفار والتوبة

من سنن الله الكونية في خلقه اقتراف العباد الذنوب والمعاصي، وليس معصوماً من ذلك إلا الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، يقول المصطفى محمد ﷺ مبيناً ذلك ومبيناً علاجه: «كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون»[(١)] ويقول ﷺ: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر الله لهم»[(٢)].

ومن محاسن الإسلام أن الله سبحانه جعل لكل مشكلة علاجاً، فلقد أمن الله سبحانه على عباده أنه شرع لهم الاستغفار والتوبة والإكثار من ذلك، وحثَّ عليه المصطفى ﷺ ومن بعده أئمة الهدى ولأهمية الاستغفار ومكانته العظيمة عند الله سبحانه، فقد ذكره الله في مواضع من كتابه، ولقد وصف الله سبحانه نفسه بالعفو وبالغفور وبالتواب، وبأنه أهل التقوى وأهل

---

(١) أخرجه أحمد (١٩٨/٣)، والترمذي (رقم ٢٤٩٩)، وابن ماجه (رقم ٤٢٥١)، والحاكم (٢٤٤/٤)، وصححه وحسنه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٤٥١٥).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٧٤٩).

المغفرة، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[النساء: ٢٣]، وقال سبحانه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾[النساء: ١٤٩]، ووصف نفسه سبحانه بالغفور فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦]، كما وصف نفسه سبحانه بأنه أهل المغفرة، فقال تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾[المدثر: ٥٦].

كما أمر الله سبحانه نبيه محمداً ﷺ بالاستغفار فقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾[النساء: ١٠٦].

وأمر الله المؤمنين بالاستغفار، فقال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[البقرة: ١٩٩]، وقال تعالى مادحاً المستغفرين: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾[آل عمران: ١٦ — ١٧].

الاستغفار سمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فهاهو أبونا آدم وأمنا حواء عليهما السلام لما خالفا أمر الله عز وجل وأزلهما الشيطان وأوقعهما في الخطأ بادرا بالتوبة والندم، فقالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[الأعراف: ٢٣].

وهاهو نوح عليه الصلاة والسلام يقول: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ

كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ ﴾ [نوح: ١٠]، وهود عليه الصلاة يقول لقومه: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ [هود: ٥٢].

وإبراهيم الخليل عليه السلام يقول: ﴿ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الشعراء: ٨٢].

وموسى عليه السلام يقول: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴿١٦﴾﴾ [القصص: ١٦].

ويونس عليه السلام ينادي في الظلمات: ﴿ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وداود عليه السلام يقول الله في شأنه: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤].

وها هو نبينا محمد ﷺ خاتم الأنبياء يعد له أصحابه في المجلس الواحد: «رب اغفر لي وتب عليَّ إنك أنت التواب الرحيم» وفي رواية: «إنك أنت التواب الغفور»(١) مائة مرة.

وها هو أفضل هذه الأمة وخيرها بعد نبينا محمد ﷺ، أبو بكر رضي الله عنه

(١) أخرجه ابن ماجه (رقم ٣٨١٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٣٤٨٦).

يسأل رسول الله ﷺ فيقول: يا رسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي. قال: «قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»[1].

وعمر رضي الله عنه يقول لرسول الله ﷺ: استغفر لي يا رسول الله. وغير هؤلاء كثير، فكانت التوبة لهم راية، والاستغفار لهم شعاراً، كلٌّ كان لربه توَّاباً أوَّابا.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، ويقول أيضاً: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود: ٩٠]. ألا إن أول درجات السير إلى الله تعالى التوبة والاستغفار، بل إن العبد محتاج إليها في بدايته ونهايته، محتاج إليها حتى الممات.

والاستغفار واجب على الدوام: إما من معصية أو النية بها أو ترك واجب وتهاون به من وسواس الشيطان ولو خلا من ذلك لم يخل من غنية، كما في قوله ﷺ: «إنه ليغان على قلبي»[2] أو تقصير أو جهل والناس يتفاوتون في ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٨٣٤)، ومسلم (رقم ٢٧٠٥).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٧٠٢).

ولكن ما هو الاستغفار وما حقيقته؟ وما علاقة الاستغفار بالتوبة؟ الاستغفار طلب المغفرة والعفو من الله سبحانه، بل هو التوبة فهو مستلزم لها ويتضمنها، لأن الاستغفار بلا توبة كذب وإدعاء، فلا استغفار بلا ندم، كما لا توبة بلا ندم، وقد قيل: كفارة الذنب الندم. والتوبة تصح ولو عاد المستغفر في اليوم سبعين مرة بشرط الندم على كل مرة. قال الفضيل: استغفار بلا إقلاع توبة الكذابين. وعن ابن عباس مرفوعاً: «المستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه»(١).

إذاً الاستغفار يتعلق بالتوبة تعلقاً وثيقاً، وقد يفرق بينهما، فيقال الاستغفار: طلب وقاية شر ذنب قد مضى مع الندم. والتوبة: طلب وقاية شر ذنب قد حضر مع الندامة والعزم على عدم العودة والإقلاع عن الذنب.

الاستغفار دعاء، بل هو من أعظم الدعاء، لأنه طلب من العبد فيما لا يقدر عليه إلا الرب، فهو طلب المغفرة من الله أن يقيه شر ذنوب بمحوها وإذهاب أثرها، فإذا غفر الله لعبده حصل له كل ما يرجوه، وبعد عنه كل ما يحذره. فالاستغفار عبادة يحبها الله من عباده وشرعها لهم تفضيلاً منه وإنعاماً، ليكفر عنهم سيئاتهم ويمحوها.

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (رقم ٧١٧٨)، والديلمي في مسند الفردوس (رقم ٢٢٥٢)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (رقم ٢٤٩٨).

الاستغفار

إن آدم مخلوق ضعيف، وقد حف به أعداء كثيرون من شياطين الجن والإنس، يحسنون له القبيح، ويقبحون في نظره الحسن، ومع هؤلاء الأعداء نفسه الأمارة بالسوء، تدعوه إلى تناول الشهوات المحرمة، فهو معرض للخطر من كل جانب، لكن مع هذا كله قد جعل له حصناً حصيناً إذا أوى إليه رجعت هذه الأعداء خاسئة حسيرة، وذلكم الحصن هو توبته إلى ربه والاستعانة به واللهج بذكره، قال تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨]، فمن بدر بشيء فيه خطيئة أو ارتكب معصية فبادر بالتوبة والاستغفار وأتبعها بالحسنة التي تمحوها كفّرها الله عنه ووقاه خطرها، يقول سبحانه: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ١١٠﴾ [النساء: ١١٠]، إن التوبة الصادقة تمحو الخطيئة مهما عظمت، كما قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

كما أن من محاسن الإسلام أيضاً أن الله سبحانه قد عرض التوبة على الذين هم أشد جرماً، الذين يقتلون أنبياءه، ويقولون: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ﴾ [المائدة: ٧٣]، ويقولون: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ﴾ [المائدة: ١٧]، فقد دعا هؤلاء إلى التوبة فقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٤﴾ [المائدة: ٧٤].

الاستغفار مطلوب الإكثار منه في كل الأحوال وعلى الدوام من كبار الذنوب وصغارها، ومنه دعاء النبي ﷺ «اللهم اغفر لي ذنبي أوله وآخره دقه وجله، سره وعلانيته»[(١)].

والاستغفار مطلوب حتى في الوقت الذي لا يذنب فيه العبد، وذلك من غفلته وقلة ذكر الله أو فتوره عن طاعة الله، كما قال ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم: «إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة»[(٢)] والغان معناه غفلات العبد عن مداومة الذكر الذي لا يخلو منه بشر، لأنه قد يمارس بعض وجوه الحياة التي تلهيه عن مداومة ذكر ربه.

والاستغفار مطلوب من ترك الحسنات، فالاستغفار ليس من فعل

(١) أخرجه مسلم (رقم ٤٨٣).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٧٠٢).

المعاصي والقبائح فقط، بل الاستغفار من ترك الحسنات المأمور بها ومن التقصير والغفلة.

وفي الدعاء: «أعوذ بك من شر ما عملت ومن شر ما لم أعمل»[1] ومما علمت ومما لم أعلم، قال أبو سليمان الداراني: لو لم يبك العامل فيما بقي من عمره إلا على تفويت ما مضى منه في غير الطاعة لكان خليقاً أن يحزنه ذلك إلى الممات.

للاستغفار مواطن ينبغي العناية بها والاهتمام بشأنها، فالاستغفار فروع في كل وقت، فهناك أوقات وأحوال مخصوصة يكون الاستغفار فيها مزيد فضل، فيستحب الاستغفار بعد الفراغ من أداء العبادات، ليكون كفارة لما يقع فيها من خلل أو تقصير، كما شرع بعد الفراغ من الصلوات الخمس، فقد كان النبي ﷺ إذا سلم من الصلاة المفروضة يستغفر الله ثلاثاً، لأن العبد عرضة لأن يقع فيه نقص في صلاته بسبب غفلة أو سهو.

كما شرع الاستغفار في ختام صلاة الليل، قال تعالى عن المتقين: ﴿كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: ١٧ – ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٧١٦).

وشرع الاستغفار بعد الإفاضة من عرفة والفراغ من الوقوف بها، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾ [البقرة: ١٩٩].

وشرع الاستغفار في ختم المجالس حيث أمر النبي ﷺ عندما يقوم الإنسان من المجلس أن يقول: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك»[١] فإن كان مجلس خير وذكر كان كالطابع عليه، وإن كان غير ذلك كان كفارة له.

وشرع الاستغفار عند الخروج من الخلاء «غفرانك»[٢].

وشرع الاستغفار في ختام العمر وفي حالة الكبر، فقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ عند اقتراب أجله، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ [النصر: ١ – ٣]، فقد جعل الله فتح مكة ودخول الناس في دين الله علامة على قرب أجل النبي ﷺ، وأمره عند ذلك بالاستغفار.

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٤٣٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٦١٩٢).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٧) وقال: هذا حديث حسن غريب، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٤٧٠٧).

الاستغفار معناه طلب المغفرة من الله بمحو الذنوب وستر العيوب، ولابد أن يصحبه الاقلاع والابتعاد عن الذنوب والمعاصي، يقول: أستغفر الله. بلسانه وهو مقيم على المعاصي بأفعاله فهو كذاب لا ينفعه، قال الفضيل ابن عياض رحمه الله: استغفار بلا إقلاع توبة الكذابين.

للاستغفار صيغ ينبغي للمسلم معرفتها والعمل بها منها وأهمها سيد الاستغفار، سمي بذلك لأنه جامع للمعاني كلها: «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء بذنبي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»[1] من قالها من النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو مؤمن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة.

ومن صيغ الاستغفار: أستغفر الله، سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه. اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي جدي وهزلي وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت، وما

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٣٠٦).

أسرفت وما أنت أعلم به مني، أنت إلهي لا إله إلا أنت، اللهم اغفر لي ذنبي كله دقه وجله، أوله وآخره، وسره وعلانيته. اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم.

قال ابن أبي جمرة: جمع ﷺ في هذا الحديث من بديع المعاني وحسن الألفاظ ما يحق له أن يسمى سيد الاستغفار، ففيه الإقرار لله وحده بالإلهية والعبودية والاعتراف بأنه الخالق، والإقرار بالعهد الذي أخذه عليه، والرجاء بما وعده به والاستعاذة من شر ما جنى العبد على نفسه، وإضافة الذنب إلى نفسه، ورغبته في المغفرة واعترافه بأنه لا يقدر أحد على ذلك إلا هو[1].

---

(١) انظر: فتح الباري (١١/ ١٠٠)، وفيض القدير (٤/ ١٢٠).

الاستغفار

لا يزال الحديث موصولاً بالاستغفار، لأهميته في حياة المسلم وفضله العظيم وأجره الجزيل، فقد تقدم الكلام عن ذكر بعض صيغ الاستغفار في السنة النبوية، وقد ذكر الله سبحانه بعض صيغ الاستغفار من القرآن الكريم، كما في قوله سبحانه:

- ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي ﴾ [القصص: ١٦].
- ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [المؤمنون: ١١٨].
- ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾ [نوح: ٢٨].
- ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥١].
- ﴿ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التحريم: ٨].
- ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ

﴿ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

- ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].
- ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٦].
- ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣].
- ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝﴾ [الممتحنة: ٥].
- ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥].
- ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ومن أقوال السلف في الاستغفار:

- ما يروى عن لقمان عليه السلام أنه قال لابنه: (عود لسانك: اللهم اغفر لي، فإن لله ساعات لا يرد فيها سائلاً).
- وقالت عائشة رضي الله عنها: «طوبى لمن وجد في صحيفته استغفاراً كثيراً»(١).

(١) أخرجه ابن ماجه (رقم ٣٨١٨)، وأبو نعيم في الحلية (١/٣٩٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٣٩٣٠).

- وقال قتادة: (إن هذا القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم، فأما داؤكم فالذنوب، وأما دواؤكم فالاستغفار).
- وقال أبو النهل: (ما جاور عبد في قبره من جار أحب من الاستغفار).
- وقال الحسن رحمه الله: (أكثروا من الاستغفار في بيوتكم وعلى موائدكم وفي طرقاتكم وفي أسواقكم وفي مجالسكم، فإنكم لا تدرون متى تنزل المغفرة).
- وقال أعرابي: (من أقام في أرضنا فليكثر من الاستغفار، فإن مع الاستغفار القطار، والقطار: السحاب القطر القطر).
- وقال علي رضي الله عنه: (العجب ممن يهلك ومعه النجاة! قيل: وما هي؟ قال: الاستغفار).
- وقال بعض العلماء رحمهم الله: (العبد بين ذنب ونعمة، لا يصلح لهما إلا الحمد والاستغفار).

ومن الآثار قصة الحسن البصري مع الحمال فقد استأجر الحسن رحمه الله حمالاً، فسمعه يقول: (الحمد لله وأستغفر الله) طول الطريق فقال له الحسن البصري: ما هذا، إنك لا تحسن غير هذا الكلام؟ فقال: إني أحفظ نصف القرآن، ولكني أعلم أن العبد بين أمرين: بين نعمة نازلة عليه من الله وجب

عليه حمده، وبين ذنب فيه صاعداً إليه وجب عليه استغفاره، لهذا أنا أقول دائماً وأبداً: الحمد لله وأستغفر الله. فقال الحسن: حمالاً أفقه منك ياحسن. فالمقصود أن الاستغفار ينفع قبل الذنب وبعد الذنب، وفي الأثر أن إبليس قال: أهلكت الناس بالذنوب، وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار، فلما رأيت ذلك منهم أهلكتهم بالأغواء والأهواء، وهم يحسبون أنهم مهتدون. فالحذر الحذر من اتباع الهوى.

وما سمي الهوى إلا أنه يهوي بصاحبه لقعر جهنم، ولأن الهوى يصد عن الحق ويصر به على ذنوبه، فلا يستغفر ولا يتوب، فتصعد صحيفته إلى الله سوداء مظلمة، أما إذا قرنت بالتوبة والاستغفار فإنها تصعد إلى الله بيضاء نقية، وذلك ما قاله أبو بكر المزني رحمه الله: إن أعمال بني آدم ترفع، فإذا رفعت صحيفة فيها استغفار رفعت بيضاء، وإذا رفعت صحيفة ليس فيها استغفار رفعت سوداء، فطوبى لمن وجد في صحيفته استغفاراً، ومن حرم الاستغفار فهو من علامة الخذلان والاستدراج، الذي هو تقريب للعبد من العقوبة شيئاً فشيئاً، فكلما جدد ذنباً جدد له نعمة وأنساه الاستغفار فيزداد أشراً وبطراً، فيندرج في المعاصي بسبب تواتر النعم عليه، ظانًّا أن تواترها تقريب من الله، وإنما هو خذلان[1]، قال ﷺ: «إذا رأيت الله

---

(١) انظر: فيض القدير (١/٣٥٤).

تعالى يعطي العبد من الدنيا ما يحب وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك منه استدراج»[1].

الاستغفار أنواع:

١ – الاستغفار والتوبة من الشرك والكفر، وهذه ترفع إلى مستوى الإيمان.

٢ – الاستغفار والتوبة من الكبائر، وهي ترفع إلى بعض درجات التقوى.

٣ – الاستغفار والتوبة من الصغائر، وهي ترفع إلى أعلى درجات التقوى.

٤ – الاستغفار والتوبة من فعل المكروهات والتهاون بالمندوبات، وهي ترفع إلى درجة البر.

٥ – الاستغفار والتوبة من الغفلات عن ذكر الله والاشتغال بغيره، ترفع إلى درجة المقربين.

والاستغفار لا يبرر الذنب، فهناك من الناس من جعل الاستغفار

---

(١) أخرجه أحمد (٤/١٤٥)، والطبراني في الكبير (١٧/٣٣٠ – ٣٣١ رقم ٩١٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (رقم ٤٥٤٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٥٦١).

قنطرته إلى فعل المعاصي واقتحام المحرمات.

فمنهم من يقبل على المنكرات ويشارك فيها ثم يقول: (أنا وحالي كذلك لساني يستغفر ربي).

ومنهم من يفري في أعراض الناس فيقدم بالاستغفار ويختم بالاستغفار، فيجعله مبرراً لنفسه الأمارة بالسوء باقتراف المعاصي، وهذا العمل إما أن يكون استخفافاً بحرمات الله واستهتاراً أم كذباً على الله، كما قال سبحانه: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الزخرف: ٨٠].

يشترط لقبول الاستغفار وغيره من الأعمال الصالحة:

١ – صحة النية.

٢ – التوجه بندم وعزم إلى الله تعالى مع الأدب معه.

ولابد مع الاستغفار إقلاع صادق عن الذنب والمعصية، لقوله سبحانه ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، ففي هذه الآية خمس دلالات على أن المعصية كانت طارئة:

(إذا فعلوا) في غفلة عن ذكر الله (ذكروا الله) وبعد ذكر الله سارعوا بالاستغفار والتوبة فاستغفروا، دل على ذلك (الفاء)، ثم أقلعوا عنها ولم

يداوموا عليها، يدل عليه قوله سبحانه: (ولم يصروا) لأنهم علموا أنها معصية (وهم يعلمون)، لأن العبد إذا علم قبح ذنبه وندم واستغفر غفر الله له، مهما كان ذنبه عظيماً، لأن عفو الله أعظم ورحمته أوسع، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [النساء: ١١٠]، وعن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك في شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة»(١) ومعنى قوله: ولا أبالي. أي لا يتعاظمني كثرتها ولو كثرت.

ففي هذا الحديث بيان سعة رحمة الله، كما قال تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر: ٥٣].

---

(١) أخرجه أحمد (٥/١٧٢)، والدارمي (رقم ٢٧٨٨)، والترمذي (رقم ٣٥٤٠)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٤٣٣٨).

الاستغفار

من محاسن الإسلام أن الله سبحانه قد جعل الاستغفار علاجاً لكثير من المشكلات اليومية، التي تداهم الإنسان في حياته صباح ومساء، وما ذاك إلا لأن الاستغفار له مكانة عظيمة في الإسلام، وهو من أهم الأمور التي ينبغي للمسلم أن يعتني بها، ويحافظ على العمل لها، لأن المستغفر معترف بذنبه يقر به، معترف بربه، وأنه لا ملجأ ولا منجا إلا الله، راغب وملتجئ وضارع إليه سبحانه، والله ﷻ يحب من عبده الخضوع له والتذلل بين يديه وقد تقدم في حلقات سابقة عن الاستغفار: فضله وأهميته وصيغ الاستغفار إلى غير ذلك.

للاستغفار فوائد وثمرات عظيمة، لنتعرف عليها، لعل هذا يكون حافزاً لنا بعون الله وتوفيقه، لكي نكثر من الاستغفار، امتثالاً لأمر الله سبحانه: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[هود: ٣]، واقتداء بفعل الرسول ﷺ سيد المستغفرين وإمام المتقين، مستمعين إلى نصيحة أحد الصالحين وهو الحسن البصري رحمه الله، حيث يقول: أكثروا من

الاستغفار في بيوتكم وعلى موائدكم وفي أسواقكم، فإنكم لا تدرون متى تنزل المغفرة.

فمن هذه الثمرات والفوائد:

١ - أن الاستغفار سبب لبياض القلب وصفائه ونقائه، ولقوة القلب وانشراحه، وحفظ نوره، فالذنوب تترك أثراً سيئاً وسواداً على القلب، كما ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، وإن زاد زادت، حتى يعلو قلبه، فذاك الران الذي ذكر الله ﷻ في القرآن بقوله سبحانه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤]»[(١)].

قال ابن القيم رحمه الله: من أعظم أسباب ضيق الصدر الإعراض عن الله والغفلة عن ذكره. ولا يزال الاستغفار الصادق بالقلب حتى يرده بالصحة والسلامة، فإن القلوب ثلاثة أنواع:

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٩٧)، والترمذي (رقم ٣٣٣٤)، وابن ماجه (رقم ٤٢٤٤)، وابن حبان في صحيحه (رقم ١٧٧١)، والحاكم (٢/٥١٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (رقم ٧٢٠٣)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (رقم ١٦٧٠).

١ – قلب مريض.

٢ – قلب قاسٍ.

٣ – قلب مخبت سليم.

فالقلبان الأولان مفتونان فيهما دخن المعصية المتراكمة، بعضها فوق بعض. أما القلب الثالث هو الناجي. يقول ابن القيم: القلب الصحيح السليم ليس بينه وبين قبول الحق ومحبته والانقياد له سوى إدراكه.

٢ – الاستغفار أمان من عذاب الله.

أنزل الله أماناً به على عباده إن هم حافظوا على الاستغفار وأكثروا منه، عازمين على ترك المعاصي. قال أبو موسى الأشعري: قد كان فيكم أمان به، وذلك في قوله سبحانه: ﴿**وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال: ٣٣]، أما النبي ﷺ فقد مضى، وأما الاستغفار فهو كائن إلى يوم القيامة.

٣ – الاستغفار يسهل الطاعات ويعطي حلاوة للطاعة، وبهذا قال الحسن البصري رحمه الله: (إذا لم تقدر على قيام الليل ولا صيام النهار فاعلم أنك محروم، قد كبلتك الخطايا والذنوب).

٤ – ومن فوائد الاستغفار وثمراته: تكفير السيئات ورفع الدرجات.
قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠]، فالاستغفار الصادق يمحو الخطايا والذنوب، كما يمحو الليل النهار.

٥ – ومن ثمرات الاستغفار أنه يذهب الحزن والغم.
عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب»(١).

٦ – الاستغفار سبب لنزول الرحمة قال تعالى: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل: ٤٦].

٧ – الاستغفار تأسي بالنبي ﷺ، لأنه كان يستغفر الله في المجلس الواحد سبعين مرة، وفي رواية مائة مرة.

٨ – من ثمرات الاستغفار: تيسير العلم، لأن القلب له نور، ويزداد

(١) أخرجه الحاكم (٤/٢٦٢) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وتعقبه الذهبي بقوله: الحكم فيه جهالة. والحديث ضعفه الألباني في ضعيف الجامع (رقم ٥٤٧١).

نوراً وتوهجاً، ويصقل كلما استغفر العبد ربه وتاب وأناب، والمعصية تفعل ضد ذلك.

يقول ابن تيمية رحمه الله: إنه ليقف خاطري في المسألة أو الشيء أو الحالة التي تشكل عليَّ فأستغفر الله تعالى ألف مرة أو أقل أو أكثر حتى ينشرح الصدر وينحل إشكال ما أشكل، وقد أكون في المسجد أو المدرسة أو السوق ولا يمنعني ذلك من الذكر والاستغفار إلى أن أنال مطلوبي. والمعصية تحرم من نور العلم، وقد جاء الشافعي إلى الإمام مالك فأعجب بذكائه وفطنته، فقال له: (إني أرى الله قد ألقى في قلبك نوراً فلا تطفئه بظلمة المعصية).

٩ – ومن ثمرات وفوائد الاستغفار: قرب الملائكة منه ودعاؤهم له واستغفار حملة العرش للمستغفرين التائبين، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ

إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾ [غافر: ٧ – ٩].

١٠– ومن ثمرات الاستغفار: أن الله يبدل به السيئات حسنات، فتمحى أثر الذنوب، وذلك أن التوبة تمحي ما قبلها من الذنوب، ويبقى التضرع والاستغفار حسنات بدل ما يمحى من ذلك من تلك السيئات، والله لا يضيع عمل عامل من ذكر أو أنثى، فكلما تذكر العبد الذنب الذي تاب منه ندم واستغفر كتبت له حسنة جديدة، فيكون ذلك الذنب سبب لحسنات كثيرة، حتى يقول الشيطان: ياليتني تركته ولم أوقعه.

وكما قال ابن عباس رضي الله عنهما: (إن للحسنة ضياء في الوجه، ونوراً في القلب، وسعة في الرزق، وقوة في البدن، ومحبة في قلوب الخلق. وإن للسيئة سواداً في الوجه، وظلمة في القلب، ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق).

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: ما عمل رجل عملاً إلا ألبسه الله تعالى رداءه: إن خيراً فخير وإن شراً فشر يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ﴾ [هود: ١١٤]، ويقول ﷺ: «وأتبع

السيئة الحسنة تمحها»[1]، ويقول ﷺ: «ما من رجل يذنب ذنباً فيتوضأ ويحسن الوضوء ثم يصلي ركعتين ويستغفر الله ﷻ إلا غفر له» ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران: ١٣٥][2].

وبالاستغفار تتحقق أمور كثيرة منها:

- أنه سبب لمغفرة الذنوب، ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾ [نوح: ١٠].
- أنه سبب لنزول المطر، ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾ [نوح: ١١].
- أنه سبب الإمداد بالأموال والبنين، ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ [نوح: ١٢].
- أنه سبب لدخول الجنات، ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ﴾ [نوح: ١٢].

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٣/٥)، والترمذي (رقم ١٩٨٧)، والحاكم (٥٤/١). وقال الترمذي: حسن صحيح. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. وحسنه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٩٧).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٤٠٦، ٣٠٠٦) وقال في الموضع الأول: حديث حسن. وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٥٧٣٨).

- أنه سبب زيادة القوة، ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢].
- أنه سبب المتاع الحسن، ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا﴾ [هود: ٣].

العباد محتاجون إلى الاستغفار حاجة ماسة، لأنهم يخطئون بالليل والنهار، فإذا استغفروا الله غفر لهم، شكا رجل إلى الحسن الجدب فقال: استغفر الله، وشكا آخر إليه الفقر، فقال: استغفر الله. وقال له آخر: أدع الله أن يرزقني ولداً. فقال: استغفر الله، وشكا إليه آخر جفاف بستانه، فقال له: استغفر الله. فقلنا له في ذلك فقال: ما قلت ذلك من عندي شيئاً، إن الله تعالى يقول: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: ١٠ – ١٢].

الأعمال الصالحة سبب لرفع الدرجات وتكفير السيئات

لا يخفى على كل مسلم الهدف الذي خلق من أجله والغاية التي يسعى إليها، فالهدف هو تحقيق العبودية لله رب العالمين والغاية التي يسعى إليها رضوان الله سبحانه والدخول في الجنة والنجاة من النار.

ومن محاسن الإسلام أن الله سبحانه جعل أنواعاً من العبادات، والتي بتحقيقها يحصل على رضا الله وجنته والسلامة من غضبه والنار، وقد تقدم في حلقة سابقة أنواعاً من العبادات والفرص المتاحة للمسلم، ليحظى برضا الله، ولا زال الحديث موصولاً بذكر نماذج أخرى لعل الله سبحانه أن يوفقنا والمسلمين لما يرضيه والبعد عن غضبه ومعاصيه، ومنها التعاون على البر والتقوى، قال سبحانه: ﴿ **وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ** ﴾ [المائدة: ٢] وقال ﷺ: «إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة: صانعه يحتسب الأجر في صنعته والرامي به ومنبله»[(١)].

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ١٦٣٧)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (رقم ١٧٣٢).

فهناك أعمال لا يستطيع الفرد العمل بها، ولكن بالتعاون يحصل الخير الكثير والأجر العظيم ومنها أن المسلم ينبغي له أن يروض نفسه على تحمل المشاق، ليحصل له الأجر، قال ﷺ: «الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفره الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن وهو عليه شاق له أجران»[(١)].

ويقول ﷺ: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات»، قالوا: بلى يا رسول الله قال: «إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد»[(٢)] الحديث ففي إسباغ الوضوء وتحسينه ولو كان في شدة البرد أجر كبير، ومن لطف الله سبحانه بعباده أن المسلم إذا استعد للطاعة ونواها ولم يستطع أداءها يكتب له على حسن النية.

وتوضيح ذلك كما في قصة أنس رضي الله عنه أن فتى من أسلم قال: يا رسول الله إني أريد الغزو وليس معي ما أتجهز به، قال: «ائت فلاناً قد كان تجهز فمرض» فأتاه فقال: إن رسول الله ﷺ يقرئك السلام، ويقول: أعطني الذي تجهزت به، فقال: يافلانة أعطيه الذي تجهزت به ولا تحبسي عنه شيئاً، فو الله لا تحبسي منه شيئاً فيبارك لك فيه»[(٣)]، ويقول ﷺ: «إذا مرض العبد

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٩٣٧)، ومسلم (رقم ٧٩٨).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٥١)، والترمذي (رقم ٥١).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ١٨٩٤).

أو سافر كُتِبَ له ما كان يعمل مقيماً صحيحاً»[1].

فتلك نعمة من الله أن الله يكتب للمسلم الأجر على حسب نيته ومقصده، ومنها الصبر والاحتساب عند المصائب والشدائد، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧] فيثاب المسلم لصبره واحتسابه الأجر، ويقول ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له»[2]، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا همٍّ ولا حُزن ولا أذىً ولا غمٍّ، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفَّر الله بها من خطاياه»[3].

فالمؤمن يثاب بصبره واحتسابه الأجر، ومن محاسن الإسلام تنوع مجالات العبادات، ليكسب المسلم فيها أفضل الأجور، فمجالات الخير وأبواب الطاعة كثيرة ومتنوعة، وحال المؤمن الصادق له من كل غنيمة سهم من الخير، ليكون من أهله يوم القيامة.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٩٩٦).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٩٩٩).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٥٦٤١، ٥٦٤٢)، ومسلم (رقم ٢٥٧٣).

يقول الإمام النووي رحمه الله: اعلم أنه ينبغي لمن بلغه شيء من فضائل الأعمال أن يعمل به ولو مرة واحدةً ليكون من أهله، ولأن الإسلام الحنيف يريد من المسلم أن يبلغ الكمال المقدور له في جميع شئونه فلا يقبل على جانب واحد من العبادة ويترك الباقي، بل يأخذ من كل بقدرٍ، وعلى هذا كان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يتقلبون في جميع ميادين العبادة، ويتنافسون في ذلك، ففي البذل هم قادة في العلم والتعليم والجهاد وعند الشدائد والمصائب يواسون ويساعدون، وهكذا شأنهم في جميع الأحوال فبقدر تنوع مجالات العبادة يكثر الأجر والثواب من الله وتكفر السيئات، والعبادات تتفاضل من حيث الأجر والثواب.

والقاعدة في التفاضل ما قاله ابن القيم رحمه الله حيث يقول: إن أفضل العبادة العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته، فالأفضل في أوقات الصلاة إيقاعها على أكمل وجه والمبادرة إليها في أول الوقت، والأفضل في أوقات السحر الاشتغال بالصلاة والقرآن والذكر والاستغفار، والأفضل في أوقات الأذان الاشتغال بإجابة المؤذن والدعاء والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وقول: «رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً»[1]. وقول: «اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة

(١) أخرجه مسلم (رقم ٣٨٦).

آت محمداً الوسيلة والفضيلة وأبعثه اللهم مقاماً محموداً الذي وعدته»[1].

ذكر ذلك ابن القيم في سنن الأذان خمس كما مر، وعلى المسلم أن يختار من وجوه البر ما يكون أكثر ثواباً وأعظم أجراً، فالصدقة على الأقارب أفضل من الصدقة على الأجانب إذا كانوا محتاجين، لأن فيها أجرين: أجر الصدقة وأجر القرابة، كما في قصة ميمونة حين اعتقت الجارية قال ﷺ: «فلو أعطيتها أخوالك كان أعظم لأجرك»[2]، وقال ﷺ: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان: صدقة وصلة»[3].

ومن علامات صحة قلب المؤمن أنه إذا فاته ورده أو طاعة من الطاعات وجد لذلك حسرة على فوات الأجر، كما في قصة ابن عمر رضي الله عنه عندما سمع أبا هريرة يحدث بحديث من خرج مع جنازة من بيتها وصلى عليه ثم تبعها حين تدفن كان له قيراطان من الأجر كل قيراط مثل أحد، ومن صلى عليها ثم رجع كان له من الأجر مثل أحد فقال ابن عمر رضي الله عنهما تأسفاً وحسرة على ما فاته من الأجر: لقد فرطنا في قراريط كثيرة[4].

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦١٤).
(٢) أخرجه مسلم (رقم ٩٩٩).
(٣) صححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٣٨٥٨).
(٤) أخرجه مسلم (رقم ٩٤٥).

قال النووي رحمه الله: وفيه ما كان الصحابة رضي الله عنهم من الرغبة في الطاعات حين يبلغهم والتأسف على ما يفوتهم منها.

المداومة على العمل الصالح وإن قل من الطرق المفيدة لتحصيل الأجر، والمواظبة على فعل الخير الذي اعتاده وإن كان قليلاً، قال ﷺ: «وإن أحب الأعمال إلى الله ما داوم عليه وإن قل»[1].

وكان آل محمد أهل بيته من أزواجه وقرابته إذا عملوا عملاً أثبتوه (أي لازموه وداوموا عليه)، وكانت عائشة رضي الله عنها إذا عملت العمل لزمته (أي داومت عليه)، فمن ثمرة المداومة على العمل الصالح إنه من كان يقوم بعمل بر وخير في الأحوال العادية، ثم قصر عن القيام به لعذر طارئ: كالسفر أو المرض فإنه يكتب له مثل ذلك العمل ويثاب عليه، كما لو كان يفعله، وذلك لقوله ﷺ: «إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً»[2].

(١) أخرجه مسلم (رقم ٧٨٥).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٩٩٦).

الأعمال الصالحة سبب لرفع الدرجات وتكفير السيئات

لقد خلقنا الله سبحانه لأمر عظيم وشأن جليل، تلك هي عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٦ – ٥٨] ولذلك أرسل الله سبحانه الرسل لجميع الأمم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

والعبادة معناها: التذلل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال والأفعال الظاهرة والباطنة.

ومن محاسن الإسلام أن المؤمن يحرص على كل ساعة ليصرفها في طاعة الله، وإذا فاتته في غير طاعةٍ تحسر على ذلك، فأهل الجنة يتحسرون على ساعةٍ مرت لم يذكروا الله عَزَّ وَجَلَّ فيها، كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ليس يتحسر أهل الجنة على شيء إلا على ساعةٍ مرت بهم لم يذكروا الله عَزَّ وَجَلَّ

فيها»[1]، يتحسرون على ما فاتهم من الثواب والأجر العظيم في جنات النعيم.

ومن مقاصد الشريعة تحقيق العبودية لله سبحانه وتعالى، وذلك بالعمل الصالح في هذه الحياة وتحصيل الأجر والثواب من الله سبحانه، كما قال تعالى: ﴿**وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ**﴾ [آل عمران: ٥٧].

والمسلم يحرص كل الحرص على حياته لكسب أكبر قدر ممكن من الأجر والحسنات، يقول صلى الله عليه وسلم «خير الناس من طال عمره وحسن عمله»[2] ولذا لابد للمسلم أن يعرف الطرق العملية لكسب الثواب.

فمن محاسن الإسلام تنوع العبادات التي تؤدي للعامل بها إلى جنة عرضها السموات والأرض، فمن عبادات يومية: كالصلوات الخمس. وعبادة أسبوعية: كصلاة الجمعة إلى عبادة سنوية: كرمضان إلى عبادة عمرية أي في العمر مرة واحدة: كالحج، والعمل بذلك يثقل موازين

---

(١) أخرجه ابن السني (رقم ٣) وتردد الشيخ الألباني في تضعيف الحديث وتصحيحه، فذكره في ضعيف الجامع (رقم ٤٩٤٤)، وذكره أيضاً في صحيح الجامع (رقم ٥٤٤٦).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٨/٤)، والترمذي (رقم ٢٣٢٩، ٢٣٣٠) وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٣٢٩٦، ٣٢٩٧).

الحسنات، كما قال سبحانه: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝ ﴾ [القارعة: ٦ – ٧].

وأنواع الأجر والثواب عند الله كثيرة، ففي الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، قال تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ ﴾ [السجدة: ١٧] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ۝ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝ ﴾ [الدخان: ٥١ – ٥٧] والمؤمن حريص أن يكون أجره وثوابه كاملاً عند الله تعالى، ولا يتحقق ذلك بأي عمل إلا بشرطين:

١ – كمال الإخلاص لله سبحانه، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة: ٥]، ويقول ﷺ في الحديث القدسي عن الله سبحانه: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»(١)، أو تركته للذي

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٩٨٥).

أشرك به.

٢ – أن يكون العمل متابعاً لما عليه رسول الله ﷺ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] قال الفضيل ابن عياض: أخلصه وأصوبه. قيل: يا أبا علي ما معنى ذلك؟ قال: أن يكون خالصاً لله، متابعاً لرسول الله ﷺ. ولابد للمسلم من عون من الله سبحانه وتعالى، وقد أوصى النبي ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه بقوله: «لا تدعن دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»(١).

ومن محاسن الإسلام التحذير من محبطات الأعمال أو منقصاتها، ومنها من إذا خلا بمحارم الله انتهكها، قال ﷺ: «لأعلمن أقواماً من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضاء، فيجعلها الله هباءً منثوراً». ثم قال: «ولكنهم قوم إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها»(٢).

ومنها العجب والغرور قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾ [المدثر: ٦]، قال ابن مسعود رضي الله عنه: النجاة في اثنين: التقوى والنية، والهلاك في اثنين:

(١) صححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٧٩٦٩).
(٢) صححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٥٠٢٨).

القنوط والإعجاب.

ومنها الاعتداء على الآخرين بظلم أو غيره، فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما المفلس» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. قال رسول الله ﷺ: «إن المفلس من أمتى يأتي يوم القيامة بصلاة وصيامٍ وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار»[1]، ومنها السيئات المستمرة قال ﷺ: «من سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده»[2].

ومن محاسن الإسلام إتاحة الوقت والفرص لكسب الأجور والحسنات ورفع الدرجات وتكفير السيئات عن طريق الأعمال الصالحة المتنوعة.

ومنها الالتزام بالواجبات والفرائض، قال ﷺ: يقول الله تعالى: «من عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه»[3].

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٨١).
(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٠١٧).
(٣) أخرجه البخاري (رقم ٦٥٠٢).

فالالتزام بالفرائض والاستقامة عليها من أفضل الأعمال، لأنها أحب إلى الله تعالى، وهي التي سيحاسب عليها يوم القيامة، ومن ذلك الحرص على هداية الناس، لأن الله تعالى أرسل رسوله مبشراً وهادياً ونذيراً.

فالدعوة إلى الله والحرص على هداية الناس من أفضل الأعمال، يقول ﷺ: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه»[(١)].

فإذا دللت إنساناً لفعل الخير فلك مثل أجره كما قال ﷺ: «الدال على الخير كفاعله»[(٢)].

ومنها الحرص على الأعمال التي يجري ثوابها بعد الممات، قال ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[(٣)] وقال ﷺ: «إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علماً نشره، وولداً صالحاً تركه، ومصحفاً ورثه، أو مسجداً بناه، أو بيتاً لابن السبيل بناه أو نهراً أجراه، أو صدقة

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٧٤).

(٢) أخرجه أحمد (١٢٠/٤)، والبزار (رقم ١٧٤٢)، وأبو نعيم في الحلية (٢٦٦/٦)، والخطيب البغدادي في تاريخه (٣٨٣/٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٣٣٩٩).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ١٦٣١).

أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته»[1] فالإسلام قد أتاح للمسلم الأعمال التي يجري ثوابها بعد الممات، حتى لا تنقطع الحسنات بانقطاع الآجال.

قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾[يس: ١٢] هي آثار الخير وآثار الشر، التي كانوا هم السبب في إيجادها في حال حياتهم وبعد موتهم، فكل خير عمل به أحد من الناس بسبب علم العبد أو تعليمه أو نصحه أو أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر أو علم أودعه عند المسلمين في كتب ينتفع بها في حياته وبعد مماته أو عمل خير من صلاة أو زكاة أو صدقة أو إنسان اقتدى به غيره أو عمل مسجداً أو غيره فإنها من الآثار التي تكتب له وكذلك عمل الشر.

(١) أخرجه ابن ماجه (رقم ٢٤٢)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٢٢٣١).

الأعمال الصالحة سبب لرفع الدرجات وتكفير السيئات

العبودية لله وحده والتذلل والانكسار بين يدي رب العالمين خلق من أخلاق المسلم الحق، وحيث إن الإنسان بطبيعته خطاء، كما قال ذلك المصطفى ﷺ: «كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»(١).

فمن محاسن الإسلام شمولية الأعمال الصالحة الكثيرة المكفرة للذنوب والخطايا، والرافعة للدرجات العلا وما أكثرها وفي هذا المجال يؤكد القرآن الكريم أن المقصود من العمل الصالح كسب الأجر والثواب، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٥] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ

---

(١) أخرجه أحمد (١٩٨/٣)، والترمذي (رقم ٢٤٩٩)، وابن ماجه (رقم ٤٢٥١)، والحاكم (٢٤٤/٤)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٤٥١٥).

وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ [فاطر: ٢٩ – ٣٠].

وكان السلف الصالح رضي الله عنهم من حرصهم على تحصيل الأجر إذا فاتته صلاة الجماعة بكى، وكان عامر بن عبد القيس لما سئل عند احتضاره: ما يبكيك؟ قال: ما أبكي جزعاً من الموت، ولا حرصاً على الدنيا، ولكن أبكي على ظمأ الهواجر، وعلى قيام ليالي الشتاء. وكانوا رحمهم الله يقولون عن فصل الشتاء: الغنيمة الباردة، طال ليله فقامه، وقصر نهاره فصامه.

واستشعار الأجر دافع للعمل، وهو من أنجح الأدوية لمعالجة الكسل والخمول عن العبادة أيا كانت، فمثلاً حين تسمع قول المصطفى ﷺ يقول: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق»[(١)] وقوله ﷺ: «لقد رأيت رجلاً يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي الناس»[(٢)]، فاستشعار الأجر على إماطة الأذى عن الطريق يكون حافزاً على ممارسة هذه العبادة التي قد يغفل

(١) أخرجه البخاري (رقم ٩)، ومسلم (رقم ٣٥).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٩١٤) (١٢٩).

عنها كثير من الناس، بل إن البعض ربما جعل الأذى في طريق الناس.

النية الصالحة واستصحابها في كل عمل خير فيها أجر كبير عند الله، قال ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى: «إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك فمن همَّ بحسنةٍ فلم يعملها كتبها الله تبارك وتعالى له عنده حسنة كاملة»(١).

ففي الحديث أن من هم بحسنة كتبت له حسنة وإن لم يعملها، لأن الهم بالحسنة سبب إلى عملها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، فمن صدق في نيته وأخلص فيها كان ذلك سبباً لرفع درجاته وتكفير سيئاته، ويدل على ذلك أيضاً قوله ﷺ: «وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية يقول لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلانٍ فهو بنيته فأجرهما سواء»(٢).

وأمثلة ذلك كثيرة منها نية ابتغاء الآخرة قال ﷺ فيما رواه الترمذي: «من كانت الآخرة همة جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة»(٣) الخ، ونية الجهاد في سبيل الله قال ﷺ: «من مات ولم يغز

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٤٩١)، ومسلم (رقم ١٣١).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٢٣٢٥) وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٢٤٦٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٦٥١٠).

ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من النفاق»[1]، ونية قيام الليل قال ﷺ: «من أتى فراشه وهو ينوي أن يقوم ليصلي من الليل فغلبته عيناه حتى أصبح كتب له ما نوى وكان نومه صدقة عليه من ربه»[2].

من جزيل فضل الله ومَنِّه على عباده تحويل العادات إلى عبادات، وذلك بالنية الصالحة، وجميع الأعمال المباحة التي يقوم بها المسلم يمكن تحويلها إلى طاعات وقربات، يحصل للمسلم بسببها حسنات، وذلك بشرط أن ينوي المسلم عند قيامه بهذه الأعمال المباحة التقرب إلى الله والتعبد بذلك، فإذا أكل الأكلة ويقصد بها التقوي على طاعة الله أو نام النومة من أجل التقوي لصلاة الليل أو الفجر كان ذلك له أجر بسبب استصحابه هذه النية.

قال بعض السلف: إني لأستحب أن يكون لي في كل شيء نية حتى في أكلي وشربي ونومي ودخولي الخلاء. كل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب إلى الله تعالى.

ومثال ذلك خروج المسلم لصلاة الجمعة وتطيب بقصد اتباع السنة

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٩١٠).

(٢) أخرجه النسائي (رقم ١٧٨٦)، وابن ماجه (رقم ١٣٤٤)، والحاكم (١/٣١١)، وصححه ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٥٩٤١).

ودفع الروائح الكريهة كان ذلك سبباً للأجر عند الله. قال بعض السلف: من سره أن يكمل له عمله فليحسن نيته، فإن الله ﷻ يأجر العبد إذا حسنت نيته حتى باللقمة والطاعة الواحدة إذا استشعر ما فيها من نيات كثيرة، كان فيها خيرات كثيرة، فيكون له بكل نية ثواب وأجر.

فالجلوس في المسجد طاعة ويمكن أن ينوي بذلك انتظار الصلاة والاعتكاف وكف الجوارح عن المعاصي ودفع الشواغل الصارفة عن طاعة الله والذكر، فهذا طريق تكثير النيات في الطاعة الواحدة، وكذلك سائر العبادات.

ومن ذلك اغتنام الوقت الواحد في أكثر من عبادة، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إن كنا لنعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد يقول: رب اغفر لي، وتب عليَّ، إنك أنت التواب الغفور. مائة مرة[1] فقد اغتنم المصطفى ﷺ في الوقت الواحد عبادتين، هما ذكر الله والاستغفار، ثم جلوسه مع أصحابه ﷺ وتعليمهم أمر دينهم.

ومن طرق اكتساب الأجر والثواب الكف عن الشر والمعاصي، فهو قربة لله سبحانه: كترك الغيبة والنميمة وغيرها، فقد ورد في حديث قال:

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٤٣٤) وقال: حديث حسن صحيح غريب.

أرأيت إن لم يفعل قال ﷺ: «يمسك عن الشر فإنها صدقة»[1].

قال النووي رحمه الله: قوله: يمسك عن الشر فإنها صدقة. معناه صدقة على نفسه، فإذا أمسك عن الشر لله تعالى كان له أجر على ذلك، لاسيما إذا وجد الداعي لعمل الحرام، وكف عنه لله تعالى، كمن دعته امرأة فامتنع، كما في الحديث، «ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله»[2]، فكان من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

وعلى المسلم اغتنام الأعمال ذات الأجور المضاعفة: كالصلاة في الحرمين، فالصلاة في الحرم المكي له أجر مائة ألف صلاة، وصلاة في المسجد النبوي بألف صلاة[3]، وصلاة الجماعة تفضل على الصلاة الفذ بسبع وعشرين درجة[4]، وفي حديث آخر صلاة الرجل في جماعة تضعف على صلاته في بيته بخمس وعشرين ضعفاً[5]، والعمرة في رمضان كما قال ﷺ عمرة في رمضان تعدل حجة وفي رواية حجة معي[6].

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٠٠٨).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٦٠)، ومسلم (رقم ١٠٣١).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ١١٩٠)، ومسلم (رقم ١٣٩٤).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٦٤٥)، ومسلم (رقم ٦٥٠).

(٥) أخرجه البخاري (رقم ٦٤٦)، ومسلم (رقم ٦٤٩).

(٦) أخرجه البخاري (رقم ١٧٨٢، ١٨٦٣)، ومسلم (رقم ١٢٥٦).

والمسلم حريص على استثمار الخير وطرقه في كل وقت وحين بل والمسارعة إلى ذلك، قال وهيب بن الورد إن استطعت ألا يسبقك إلى الله أحد فافعل، فكن مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر.

ومن أسباب تحصيل الأجر وكسبه وتثقيل الميزان بالحسنات حسن الخلق، فعن أبي الدرداء ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلقٍ حسنٍ، وإن الله ليبغض الفاحش البذيء»(١).

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٠٠٢) وقال: حديث حسن صحيح.

الذكر

من محاسن الإسلام «الذكر»:

ذكر الله سبحانه خُلق من أخلاق القرآن، وفضيلة من فضائل الإسلام، ودعامة من هدي سيد الأنام عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام، تقول العرب: ذكر الإنسان النعمة أي استحضرها وقام بواجبها، وذكر المؤمن ربه تعالى استحضره في قلبه مع تدبر، فالذكر إذن هو استحضار عظمة الله تعالى في قلب العبد، والإتيان بالألفاظ التي ورد فيها وطلب الإكثار منها.

ويكون الذكر بالقلب واللسان والجوارح، وأفضل الذكر ما تواطأ عليه القلب واللسان. والذكر أيضاً هو القرآن، وقد يستعمل الذكر بمعنى الشرف، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ [الزخرف: ٤٤]، والذكر من أخلاق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ففي سورة طه جاء على لسان موسى عليه السلام قوله تعالى: ﴿كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [طه: ٣٣ – ٣٤]، وفي سورة آل عمران جاء قوله تعالى لزكريا: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ

﴿وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١]، وفي سورة طه قال سبحانه يخاطب موسى وهارون: ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ۝٤٢﴾ [طه: ٤٢].

لقد بين الله سبحانه في كتابه في غير ما آية أن الذكر الصادق له أثره العميق في نفس الذاكر، ولذا قال سبحانه في سورة الأنفال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، وقال سبحانه في سورة الحج: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ [الحج: ٣٥]، وقال سبحانه في سورة الرعد: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ۝٢٨﴾ [الرعد: ٢٨]، كما بين المصطفى ﷺ أثر الذكر في نفوس المسلمين ومدى نفعه لهم دنيا وأخرى، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه، وإن تقرب إليَّ شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إليَّ ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»[(١)]، وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكره مثل الحي

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧٤٠٥)، ومسلم (رقم ٢٦٧٥).

والميت»[1] كما أخبرنا المصطفى ﷺ أن السابقين هم الذاكرون، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سبق المفرِّدون» قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات»[2]، كما أخبر ﷺ أن خير الأعمال وأزكاها عند الله الذكر. وأن الله تعالى يباهي ملائكته بالذاكرين، وأن مجالس الذكر هي رياض الجنة، وأن التنعم الحقيقي إنما يكون بذكر الله سبحانه.

لقد أرشدنا القرآن الكريم إلى أن قلة ذكر الله من شأن المنافقين ومن صفاتهم، فقال سبحانه: ﴿ **إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾** ﴾ [النساء: ١٤٢].

كما أن الصد عن ذكر الله من عمل الشيطان، وفي ذلك يقول سبحانه في سورة المائدة: ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ** ﴾ [المائدة: ٩١]، وقال تعالى: ﴿ **ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ** ﴾ [المجادلة: ١٩]، كما هدد الله الذين

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٤٠٧)، ومسلم بلفظ مختلف (رقم ٧٧٩).

(٢) أخرج مسلم (رقم ٢٦٧٦).

يغفلون عن ذكر الله فقال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٤]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وقد جعل الله سبحانه الذكر ختاماً للعبادات، فقال سبحانه في ختم الصيام بالذكر: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وختم به الصلاة فقال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]، وختم به الجمعة فقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الجمعة: ١٠].

لقد ذكر السلف – رحمهم الله تعالى – أقوالاً كثيرة في الذكر وأهميته في حياة المسلم، يقول معاذ رضي الله عنه: «ليس يتحسر أهل الجنة على شيء إلا ساعة مرت بهم لم يذكروا الله سبحانه فيها»[1].

---

(١) يروى مرفوعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتوقف الشيخ الألباني في الحكم عليه، فقد ذكره في صحيح الجامع (رقم ٥٤٤٦)، وفي ضعيف الجامع (رقم ٤٩٤٤) بل مال إلى ضعفه.

ويقول الحسن البصري رحمه الله: تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة، وفي الذكر، وفي قراءة القرآن، فإن وجدتم وإلا فاعلموا أن الباب مغلق.

كما يرشدنا القرآن إلى أن ذكر الله سبحانه له مواطن وأماكن يحلو فيها ويحسن، وإن كان ذكر الله يكون في كل مكان وأوان، فالله تعالى يقول في سورة النور: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ٣٦ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [النور: ٣٦ – ٣٧].

ويقول سبحانه في سورة الحج: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗا﴾ [الحج: ٤٠].

ويقول سبحانه في سورة البقرة: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨].

ويقول سبحانه: ﴿۞وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، وهي الأيام الثلاثة بعد يوم النحر وهي أيام منى، ويُراد بالذكر هنا التكبير.

وجاء في سورة الحج قوله سبحانه: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ

﴿ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ﴾ [الحج: ٢٨]، والأيام المعلومات هي عشر ذي الحجة.

ويقول سبحانه: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗا﴾ [البقرة: ٢٠٠]، أي فإذا أديتم شعائر الحج فاذكروا الله وأثنوا عليه بآلائه، وعظموه ودافعوا عن دينه، كما تدافعون عن آبائكم أو أشد.

والله سبحانه يطالب عباده بالذكر في كل الأحوال والأوضاع، فيقول سبحانه مثنياً على الذاكرين الله بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

يقول ابن القيم رحمه الله في كتابه «مدارج السالكين» عن الذكر ومكانته: وفي كل جارحة من الجوارح عبودية مؤقتة، والذكر عبودية القلب واللسان وهي غير مؤقتة، بل هم يؤمرون بذكر معبودهم ومحبوبهم في كل حال: قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، فكما أن الجنة قيعان وهو غراسها، فكذلك القلوب بور خراب – وهو عمارتها وأساسها، وهو جلاء القلوب وصفاؤها ودواؤها إذا غشيها اعتلالها، به يزول الوقر عن الأسماع، والبكم عن الألسن، وتنقشع الظلمة عن الأبصار، زين الله به ألسنة الذاكرين كما زين

بـالنور أبـصار النـاظرين، فاللـسان الغافـل كـالعين العميـاء، والأذن الـصماء واليد الشلاء.

وقـد ذكـر ابـن القـيم رحمه الله في كتابـه «الوابـل الـصيب» عـن الـذكر مائة فائدة.

الذكر

الذكر: التخلص من الغفلة والنسيان، يقول الراغب: الذكر تارة يقال ويراد به هيئة للنفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة، وتارة يقال لحضور الشيء القلب أو القول، ولذلك قيل: الذكر ذكران: ذكر بالقلب وذكر باللسان.

ويبين ابن القيم رحمه الله منزلة الذكر وأهميته، فيقول: وهو منزلة القوم الكبرى التي منها يتزودون، وفيها يتجردون، وإليها دائماً يتقلبون، إلى آخر ما قال رحمه الله في كتابه مدارج السالكين.

وقال ابن حجر رحمه الله: والمراد بالذكر الإتيان بالألفاظ التي ورد الترغيب في قولها والإكثار منها مثل الباقيات الصالحات، وهي: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. وما يلتحق بها من الحوقلة والبسملة والحسبلة، وهي قول الذاكر: حسبي الله ونعم الوكيل، والاستغفار ونحو ذلك، والدعاء بخيري الدنيا والآخرة، ويطلق ذكر الله تعالى أيضاً ويراد به المواظبة على العمل بما أوجبه أو ندب إليهك كتلاوة القرآن وقراءة الحديث

ومدارسة العلم والتنفل بالصلاة، ثم الذكر تارة باللسان ويؤجر عليه الناطق، ولا يشترط استحضاره لمعناه ولكن يشترط ألا يقصد به غير معناه، وإن انضاف إلى النطق الذكر بالقلب فهو أكمل، فإن انضاف إلى ذلك استحضار معنى الذكر، وما اشتمل عليه من تعظيم الله تعالى ونفي النقائص عنه ازداد كمالاً، فإن وقع ذلك في عمل صالح مما فرض من صلاة أو جهادٍ أو غيرهما ازداد كمالاً، فإن صح التوجه وأخلص لله تعالى في ذلك فهو أبلغ الكمال.

للذكر آداب ينبغي التحلي بها، كما يقول الإمام النووي رحمه الله:

ينبغي أن يكون الذاكر على أكمل الصفات، فإن كان جالساً في موضع استقبل القبلة، وجلس متخشعاً متذللاً بسكينة ووقار، مطرقاً رأسه، ولو ذكر على غير هذه الأحوال جاز، ولو كان ذلك – أي ترك الذاكر ذلك – بغير علم كان تاركاً للأفضل.

وينبغي أن يكون الموضع الذي يذكر فيه خالياً نظيفاً، ولهذا مُدح الذكر في المساجد والأماكن الشريفة، وقد جاء عن أبي ميسرة: لا يذكر الله تعالى إلا في مكان طيب.

وينبغي للذاكر أيضاً أن يكون فمه نظيفاً، فإن كان فيه تغير أزاله بالسواك ونحوه، وإن كان فيه نجاسة أزالها بالماء، فإن ذكر ولم يفعل فهو

مكروه وليس بحرام، وهو محبوب في جميع الأحوال، إلا في أحوال ورد الشرع باستثنائه منها: عند الجلوس على قضاء الحاجة، وفي حالة الجماع، وفي الخطبة لمن يسمع صوت الخطيب، وفي القيام في الصلاة، لأن عليه الاشتغال بالقراءة، وفي حالة النعاس، ولا يكره في الطريق ولا في الحمام.

وقد ذكر الله سبحانه ذكر الله باللسان في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥]، كما ذكر الله سبحانه الذكر بالقلب في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وقد استفاضت السنة النبوية بالأحاديث في الذكر وفضله، ومنها ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ثلاثة لا يرد الله دعاءهم: الذاكر الله كثيراً، ودعوة المظلوم، والإمام المقسط»(1).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: «سبعة يظلهم الله في ظله» وذكر

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (رقم ٥٨٨)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٣٠٦٤).

منهم «ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»(١).

وعن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما أنهما شهدا على النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده»(٢).

ومن سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم التطبيقية العملية ما روته عائشة رضي الله عنها قالت: ما صلى النبي صلى الله عليه وسلم صلاة بعد أن نزلت عليه ﴿ **إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١** ﴾ [النصر: ١]، إلا قال: «سبحانك ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي»(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رأى ما يحب قال: «الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات»، وإذا رأى ما يكره قال: «الحمد الله على كل حال»(٤).

وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا رفع مائدته قال: «الحمد لله حمداً كثيراً مباركاً فيه غير مكفي ولا مودع ولا مستغني عنه ربنا»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٤٢٣)، ومسلم (رقم ١٠٣١).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٧٠٠).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٤٩٦٧)، ومسلم (رقم ٤٨٤).

(٤) صححه الألباني في صحيح الكلم الطيب (رقم ١١٣).

(٥) أخرجه البخاري (رقم ٥٤٥٨).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول عند الكرب: «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم»[1].

ولقد ورد كثير من الآثار وأقوال العلماء والمفسرين في الذكر منها قول أبي بكر رضي الله عنه: ذهب الذاكرون الله بالخير كله، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذكر الله تعالى خنس، وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: ما عمل العبد عملاً أنجى له من عذاب الله من ذكر الله.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: الذكر للقلب مثل الماء للسمك، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء.

وقال ابن القيم رحمه الله: الذكر باب المحبة، وشارعها الأعظم، وصراطها الأقوم.

وقال رحمه الله: محبة الله تعالى ومعرفته ودوام ذكره والسكون إليه والطمأنينة إليه وإفراده بالحب والخوف والرجاء والتوكل والمعاملة بحيث يكون هو وحده المستولي على هموم العبد وعزماته وإراداته، هو جنة الدنيا والنعيم الذي لا يشبهه نعيم، وهو قرة عين المحبين وحياة العارفين.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٣٤٥)، ومسلم (رقم ٢٧٣٠).

وقال أيضاً: ثبت أن غاية الخلق والأمر أن يذكر وأن يشكر، يذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، وهو سبحانه ذاكر لمن ذكره، شاكر لمن شكره.

وقال: وأفضل الذكر وأنفعه ما واطأ فيه القلب واللسان، وكان من الأذكار النبوية وشهد الذاكر معانيه ومقاصده.

وللذكر فوائد كثيرة، قال ابن القيم رحمه الله: في الذكر أكثر من مائة فائدة منها: أنه يطرد الشيطان ويقمعه، وأنه يرضي الرحمن، وأنه يزيل الهم والغم عن القلب، وأنه يجلب للقلب الفرح والسرور والتبسط، وأنه يقوي القلب والبدن، وأنه ينور الوجه والقلب، وأنه يجلب الرزق، وأنه يكسو الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة، وأنه يورث المحبة التي هي روح الإسلام وقطب رحى الدين ومدار السعادة والنجاة، أنه ينجي من عذاب الله، أنه سبب تنزل السكينة وغشيان الرحمة وحفوف الملائكة بحلقات الذكر، أنه سبب اشتغال اللسان عن الغيبة والنميمة والكذب والفحش والباطل.

إن مجالس الذكر مجالس الملائكة، ومجالس اللغو والغفلة مجالس الشياطين، فليختر العبد أعجبهما إليه وأولاهما به فهو مع أهله في الدنيا والآخرة، إن الذكر نور للذاكر في الدنيا ونور له في قبره، ونور له في معاده، يسعى بين يديه على الصراط، ولما كان الذكر متيسراً للعبد في جميع الأوقات

والأحوال، فإن الذاكر وهو مستلق على فراشه يسبق في الفضل والخير القائم الغافل.

إن الذكر ينبه القلب من نومه ويوقظه من سنته، إن أكرم الخلق على الله تعالى من المتقين من لا يزال لسانه رطباً بذكر الله، أنه ما استجلبت نعم الله تعالى واستدفعت نقمه بمثل ذكر الله.

إن الذكر رأس الشكر، فما شكر الله تعالى من لم يذكره، هذا قليل من كثير مما استفاض في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأقوال السلف رحمهم الله والمفسرين في الذكر.

الشكر

من محاسن الإسلام «الشكر»:

قال ابن منظور: الشكر عرفان الإحسان ونشره، والشكر من الله المجازاة والثناء الجميل.

وقال الكفوي: الشكر كل ما هو جزاء للنعمة عرفاً، وأصل الشكر تصور النعمة وإظهارها. والشكر من العبد عرفان الإحسان. ومن الله المجازاة والثناء الجميل.

وقال المناوي: الشكر شكران الأول: شكر باللسان وهو الثناء على المنعم، والآخر: شكر بجميع الجوارح، وهو مكافأة النعمة بقدر الاستحقاق. والشكر الباذل وسعه في أداء الشكر بقلبه ولسانه وجوارحه اعتقاداً واعترافاً.

وفي منزلة الشكر من الإيمان وثناء الله على الشاكرين.

يقول ابن القيم رحمه الله: قرن الله سبحانه الشكر بالإيمان، وأخبر أنه لا غرض له في عذاب خلقه إن شكروا وآمنوا به، فقال سبحانه: ﴿ **مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ** ﴾ [النساء: ١٤٧]، أي إن وفيتم ما خلقكم له وهو

الشكر والإيمان فما أصنع بعذابكم، وأخبر سبحانه أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنته عليهم من بين عباده، فقال سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٥٣]، وقسَّم الله ﷻ الناس إلى شكور وكفور، فأبغض الأشياء إليه الكفر وأهله، وأحب الأشياء إليه الشكر وأهله، قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ٣].

وهذا كثير في القرآن الكريم يقابل سبحانه بين الشكر والكفر فهو ضده، وعلق الله سبحانه المزيد بالشكر، والمزيد منه لا نهاية له، كما لا نهاية لشكره، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم: ٧]، وأوقف سبحانه الجزاء على المشيئة كثيراً وأطلق ذلك في الشكر، فقال سبحانه ﴿ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٥]، وقال سبحانه: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، بل قد جعل الشكر هو الغاية من خلقه وأمره، فقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: ٧٨]، وأخبر سبحانه أنه إنما يعبده من شكره ومن لم يشكره لم يكن من أهل عبادته، فقال: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وقد أثنى الله سبحانه على أول رسول بعثه إلى أهل الأرض بالشكر، فقال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾ [الإسراء: ٣]، كما أثنى سبحانه على خليله إبراهيم عليه السلام بشكره نعمه، فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٢١﴾ [النحل: ١٢٠ – ١٢١]، فأخبر عنه سبحانه بصفات ثم ختمها بأنه شاكر لأنعمه، فجعل الشكر غاية جليلة، وأمر الله سبحانه عبده موسى أن يتلقى ما آتاه من النبوة والرسالة وتكلمه إياه بالشكر، فقال سبحانه: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، بل جعل الله عز وجل أول وصية وصى بها الإنسان بعدما عقل عنه بالشكر له وللوالدين، فقال سبحانه: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ۝١٤﴾ [لقمان: ١٤]، لما أخبر سبحانه أن رضاه في شكره، فقال: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

فضل الله عظيم وثوابه جزيل وعطاؤه كثير، يجزي الكثير على العمل القليل، ومن ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بينا رجل يمشي فاشتد عليه العطش فنزل بئراً فشرب منها، ثم خرج فإذا هو

بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي. فملأ خفه ثم أمسكه بفيه ثم رقى فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له» قالوا: يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجراً؟ قال «في كل كبد رطبة أجر»(١).

وعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما رجل يمشي في طريق وجد غصن شوك على الطريق فأخره، فشكر الله له فغفر له»(٢)، وقال: «الشهداء خمسة: المطعون والمبطون والغرق وصاحب الهدم والشهيد في سبيل الله»(٣).

ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، كما قال سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١]، فلنستمع إلى شيء من سيرته العملية التطبيقية في شكره ﷺ لربه وعبادته، فعن المغيرة بن شعبة ﵁ قال: إن كان النبي ﷺ ليقوم أو ليصلي حتى ترم قدماه أو ساقاه، فيقال له؟ فيقول: «أفلا أكون عبداً شكوراً»(٤)، وعن ابن عباس ﵄ قال: سجد النبي ﷺ في (ص) وقال: «سجدها داود توبة

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٠٠٩).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٤٧٢)، ومسلم (رقم ١٩١٤).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٦٥٣)، ومسلم (رقم ١٩١٤).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٤٨٣٦، ٤٨٣٧)، ومسلم (رقم ٢٨١٩).

ونسجدها شكراً»[1].

وعن أبي بكرة نفيع بن الحارث قال: كان رسول الله ﷺ إذا جاءه أمر سرور أو بُشر خر ساجداً شاكراً لله. وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته، فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد وهما منصوبتان، وهو يقول: «اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»[2] وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يدعو يقول: «رب أعني ولا تعن عليّ، وانصرني ولا تنصر عليّ، وامكر لي ولا تمكر عليَّ، واهدني ويسر الهُدى لي، وانصرني على من بغى عليَّ، رب اجعلني لك شكارا، لك ذكارا، لك رهابا، لك مطيعاً، إليك مخبتا، إليك أواها، فيا رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وأهد قلبي، وسدد لساني، وثبت حجتي، واسلل سخيمة قلبي»[3].

---

(١) أخرجه النسائي (رقم ٩٥٥).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٤٨٦).

(٣) أخرجه أبو داود (رقم ١٥١٠)، والترمذي (رقم ٣٥٥١)، وابن ماجه (رقم ٣٨٣٠) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٣٤٨٥).

من الآثار وأقوال العلماء والمفسرين الواردة في الشكر قول عمر بن الخطاب ﵁: ما ابتليت ببلاء إلا كان لله تعالى عليَّ فيه أربع نعم: إذا لم يكن في ديني، وإذا لم يكن أعظم، وإذا لم أحرم الرضا به، وإذا أرجو الثواب عليه.

وكان أبو بكر ﵁ يقول في دعائه: أسألك تمام النعمة في الأشياء كلها، والشكر لك عليها حتى ترضى ولك الرضا والخيرة في جميع ما تكون فيه الخيرة بجميع ميسور الأمور كلها لا معسورها يا كريم.

وقال علي ﵁: إن النعمة موصولة بالشكر، والشكر يتعلق بالمزيد، وهما مقرونان في قرن، فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد، وقال لرجل يا ابن أم عبد هل تدري ما حق الطعام؟ قال: قلت: ما حق الطعام؟ قال: تقول: باسم الله اللهم بارك لنا فيما رزقتنا. قال: وتدري ما شكره إذا فرغت؟ قال: قلت: وما شكره؟ قال: تقول: الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا.

وقالت عائشة ﵂: ما من عبد يشرب الماء القراح فيدخل بغير أذى ويخرج الأذى إلا وجب عليه الشكر.

وقال محمد بن كعب القرظي ﵀: الشكر تقوى الله والعمل الصالح، وهذا يقال لمن هو متلبس بالفعل.

وقال أبو عبد الرحمن السلمي ﵀: الصلاة شكر والقيام شكر،

وكل خير تعمله لله عَزَّوَجَلَّ شكر، وأفضل الشكر الحمد.

وقال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عليكم بملازمة الشكر على النعم، فقل زالت فعادت إليهم.

قال بكر بن عبد الله المزني رَحِمَهُ ٱللَّهُ قلت لأخ لي: أوصني. فقال: ما أدري ما أقول، غير أنه ينبغي لهذا العبد ألا يفتر من الحمد والاستغفار، فإن ابن آدم بين نعمة وذنب ولا تصلح النعمة إلا بالحمد والشكر، ولا يصلح الذنب إلا بالتوبة والاستغفار.

قال أبو حازم رَحِمَهُ ٱللَّهُ لرجل سأله: ما شكر العينين يا أبا حازم؟ قال: إن رأيت بهما خيراً أعلنته، وإن رأيت بهما شراً سترته. قال: فما شكر الأذنين؟ قال: إن سمعت بهما خيراً وعيته، وإن سمعت بهما شراً دفعته. قال: فما شكر اليدين؟ قال: لا تأخذ بهما ما ليس لهما، ولا تمنع حقاً لله هو مهما قال في شكر البطن قال، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٧﴾ [المؤمنون: ٥ – ٧].

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الخير الذي لا شر فيه العافية مع الشكر، فكم من مُنعم عليه غير شاكر.

الشكر

من محاسن الإسلام «الشكر»:

مادة الشكر في اللغة تدل على الكرم والسخاء، وقد عرف الأصبهاني الشكر بأنه تصور النعمة وإظهارها.

وقال الجوهري في تهذيب اللغة نقلاً عن الليث: أن الشكر هو عرفان الإحسان ونشره وحمد موليه، والشكور من عباد الله هو الذي يجتهد في شكر ربه بطاعته، وأداء ما يوجب عليه من عبادته.

ويقول ابن القيم رحمه الله في حقيقة الشكر: بأنه ظهور الأثر لنعمة الله تعالى على لسان عبده ثناءً واعترافاً، وعلى قلبه شهوداً ومحبة، وعلى جوارحه انقياداً وطاعة، ولابد من خضوع الشاكر للمشكور وحبه له واعترافه بنعمته وثنائه عليه بها، وأن لا يستعملها فيما يكره.

والشكر قسمان: شكر المخلوق للخالق على نعمه التي لا تعد ولا تحصى، وشكر إنسان لآخر على عمل قام به أو نصيحة أسداها إليه، والشكر ثلاثة أنواع:

١ – شكر القلب وهو تصور النعمة.

٢ – شكر اللسان وهو الثناء على المنعم.

٣ – شكر سائر الجوارح وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقها.

والقرآن الكريم يدعو إلى التحلي بهذه الأنواع الثلاثة، حيث يقول سبحانه: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾[سبأ: ١٣]، فقوله سبحانه (اعملوا) هذا العمل يتعلق بالقلب واللسان والجوارح، وللشكر أركان ثلاثة:

١ – الإقرار بالنعمة.

٢ – نسبتها إلى المنعم وهو الله سبحانه.

٣ – صرفها فيما يجب من طاعة الله سبحانه.

الشكر من محاسن الإسلام وله منزلة رفيعة ومكانة مجيدة، ولقد ورد عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: الشكر نصف الإيمان. وورد أن الإيمان شطران هما الصبر والشكر، ولذلك أمر الله به كما قال ابن القيم، ونهى عن ضده، وأثنى على أهله، ووصف به خواص خلقه، وجعله غاية خلقه وأمره، ووعد أهله بأحسن جزائه، وجعله سبباً للمزيد من فضله، وحارساً وحافظاً لنعمته، وأخبر بأن أهله هم المنتفعون بآياته، واشتق لهم اسماً من أسمائه.

فإنه سبحانه هو الشكور وهو يوصل الشاكر إلى مشكوره، بل يعيد الشاكر مشكوراً وهو غاية الرب من عبده، وأهله هم القليل من عباده.

يخبرنا المولى جل وعلا أن الشكر صفة من صفات الله تعالى فقد وصف الله سبحانه نفسه بالشكر في آيات كثيرة ففي سورة البقرة يقول سبحانه: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨]، وفي سورة النساء يقول سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧]، وفي سورة فاطر: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤]، وفي سورة الشورى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى: ٢٣]، وفي التغابن: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١٧]، كما يحدثنا القرآن الكريم بأن الشكر صفة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

يقول الله سبحانه في سورة النحل: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾ [النحل: ١٢٠ – ١٢١].

ويقول سبحانه في سورة الإسراء: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسراء: ٣].

ويقول سبحانه في سورة النمل عن سليمان: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ﴾ [النمل: ٤٠]، وقال عنه أيضاً: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل: ١٩].

والشكر كذلك صفة من صفات خاتم الأنبياء وإمام المتقين محمد ﷺ، وعلى الرغم من أن الله سبحانه أنعم على نبيه ﷺ نعماً كثيرة، وأنزل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝﴾ [الفتح: ١ – ٢]، فقد ظل صلوات الله وسلامه عليه عابداً قانتاً متهجداً متقرباً، ليضرب المثل الأعلى في خُلق الشكر، فلقد روي عن عطاء أنه قال: دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت: أخبريني بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ. فبكت وقالت: رأيت شيئاً لم يكن عجباً، أتاني ليلة فدخل معي في فراشي، حتى مس جلده جلدي، ثم قال: «يا بنة أبي بكر ذريني أتعبد لربي» قلت: إني أحب قربك لكني أوثر هواك. فقام إلى قربة ماء فتوضأ فلم يكثر صب الماء، ثم قام يصلي فبكى حتى سالت دموعه على صدره، ثم ركع فبكى، ثم سجد فبكى، ثم رفع رأسه فبكى، فلم يزل كذلك يبكي حتى جاء بلال فآذنه بالصلاة. فقلت: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! فقال: «أفلا أكون عبداً شكورا! ولِمَ لا أفعل ذلك وقد أنزل الله تعالى عليَّ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٠ – ١٩١]»(١) وكان ﷺ يدعو ربه فيقول: «رب اجعلني لك شكارا، لك ذكارا»(٢) أي كثير الشكر والذكر لك.

ولقد عُني القرآن الكريم بالحديث عن الشكر عناية تامة فائقة، فذكره سبحانه في مواطن كثيرة من آياته، وطلب من عباده أن يتحلوا به ويحرصوا عليه، فقال في سورة البقرة: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال أيضاً: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وقال في سورة النحل: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [النحل: ١١٤].

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (رقم ٦٢٠)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٤٠٩/٢) إلى عبد بن حميد، وابن أبي الدنيا، وابن المنذر، وابن حبان، وابن مردويه، والأصبهاني، وابن عساكر وجملة «أفلا أكون عبداً شكوراً» عند البخاري (رقم ٤٨٣٧)، ومسلم (رقم ٧٣١).

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ١٥١٠)، والترمذي (رقم ٣٥٥١)، وابن ماجه (رقم ٣٨٣٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٣٤٨٥).

وقال في سورة الأعراف: ﴿ فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

وقال في سورة لقمان: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [لقمان: ١٢].

وقال أيضاً: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان: ١٤]، وقال في سورة الزمر: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الزمر: ٦٦]، وإن كانت الآيات الكريمة السابقة قد طالبت بالشكر عن طريق الأمر الصريح المباشر، فإن هناك آيات كريمة أخرى قد طالبت بالشكر عن طريق التوجيه والتحريض والحث، فلقد وردت عبارة: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٥٢]، أربع عشرة مرة في القرآن الكريم، وهي في الغالب ترد مسبوقة بذكر نعم الله وآلائه وأفضاله، كمثل قوله تعالى في سورة النحل: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة.

وقد عُنيت السنة المطهرة بالحث على الشكر، حيث قال ﷺ: «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر»[1] وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٨٣)، والترمذي (رقم ٢٤٨٦)، وابن ماجه (رقم ١٧٦٤)، والحاكم (١/٤٢٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٣٩٤٢).

الله ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها»[(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»[(٢)] وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقلت له: لم تصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال ﷺ: «أفلا أكون عبدا شكورا»[(٣)].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال: «يا معاذ والله إني لأحبك، ثم إني لأوصيك يا معاذ لا تدعن دبر كل صلاة تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادك»[(٤)].

ومن أقوال السلف قول عمر رضي الله عنه: قيدوا نعم الله بشكر الله.

وقال الحسن رحمه الله: أكثروا من ذكر هذه النعم، فإن ذكرها شكر.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٧٣٤).

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٤٨١١)، والترمذي (رقم ١٩٥٤، ١٩٥٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٧٧١٩).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٤٨٣٧)، ومسلم (رقم ٧٣١).

(٤) أخرجه أبو داود (رقم ١٥٢٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٧٩٦٩).

وعن علي رضي الله عنه قال: إن النعمة موصولة بالشكر، والشكر يتعلق بالمزيد، وهما مقرونان في قرن، فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد[1].

---

(١) وصدق من قال:

الشكر أفضل ما حاولت ... به الزيادة عند الله والناس

وقال آخر:

إذا كنت في نعمة فارعها ... فإن المعاصي تزيل النعم

وداوم عليها بشكر الإله ... فإن الإله سريع النعم

الصبر

من محاسن الإسلام الصبر، وهو حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش. وقيل: هو الثبات على أحكام الكتاب والسنة. وقيل: هو خلق فاضل من أخلاق النفس، يُمتنع به من نقل ما لا يحسن ولا يجمل، وهو قوة من قوى النفس، التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها.

والصبر هو كما يحدثنا القرآن الكريم خلق أهل العزيمة القوية وأصحاب الإرادة الماضية، الذين يعرفون الخير ويعزمون عليه، ويمضون فيه لا يثنون عنه، مهما كلفهم من تعب أو مشقة.

ومن هنا جعل القرآن الكريم الصبر من عزم الأمور. والعزم هو عقد القلب على إمضاء الأمر. قال تعالى في سورة الشورى: ﴿**وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾**﴾ [الشورى: ٤٣] وقال في سورة لقمان: ﴿**وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ**﴾ [لقمان: ١٧].

ومن هنا نفهم إن من شأن الصبر أن يكون في مواطن الشدة والتعب،

التي يحتاج احتمالها إلى عزيمة وإرادة وتصميم، ولذلك قرن القرآن الكريم من ذكر الجهاد وذكر الصبر، لأن في الجهاد مشقة تستلزم العزيمة، فجاء في سورة البقرة قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠﴾ [البقرة: ٢٥٠] وجاء في سورة آل عمران: ﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ١٢٥﴾ [آل عمران: ١٢٥]... إلى آخر ذلك من الآيات التي تبين أهمية الصبر.

كما قرن الله تعالى الصبر في مواطن كثيرة بالأذى الذي يحتاج تحمله إلى عزيمة وإرادة، فقال في سورة إبراهيم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ١٢﴾ [إبراهيم: ١٢]، وكما قال سبحانه في سورة البقرة: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ [البقرة: ١٥٥ – ١٥٦]، وقال تعالى في سورة البقرة أيضاً: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وجاء في الحديث النبوي مؤكداً هذا المعنى الصبر عند الصدمة الأولى، وقال ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن! إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»[1]، وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله قد استمد من هذا الهدي النبوي حينما أشار إلى أن الصبر من شأنه أن يكون في الشدائد والمتاعب، فقال (أفضل الأعمال ما أُكرهت عليه النفوس).

ولما كان الصبر بهذه المنزلة جعل الله تعالى جزاءه عظيماً جليلاً، فالقرآن الكريم يخبرنا أولاً بأن أهل الصبر يستحقون البشرى، فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥] كما أخبرنا بأن الصبر هو طريق الخير فقال في سورة النحل: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦] كما أخبرنا سبحانه بأن يحب أهل الصبر، فقال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

كما ذكر الله سبحانه أكثر من مرة إن عاقبة الصابرين هي نعيم الجنة فقال عن عباد الرحمن: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ۝٧٥﴾ [الفرقان: ٧٥]، كما يؤكد سبحانه عظم الثواب للصابرين وضمانه لهم، فقال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٩٩٩).

﴿يَعْمَلُونَ﴾[النحل: ٩٦]، وينتهي بنا القرآن العظيم في تكريم الصابرين إلى أن ثوابهم غير محدود، بل هو موكول لفضل الله العظيم، الذي لا حدود له ولا قيود، فيقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[الزمر: ١٠].

والله سبحانه يهب عبده نعمة الصبر إذا عاناه الإنسان وحاول التزين به، ولذلك قال ﷺ: «من يتصبر يُصبِّره الله»[1] ومن ازدان بالصبر حق الصبر واستكمله في نفسه عرف الطريق إلى مكانة الإمامة.

فقد قال ابن تيمية رحمه الله: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين. ثم تلى قوله تعالى في سورة السجدة: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾[السجدة: ٢٤].

الصبر فضيلة تتعدد مجالاتها، فهناك الصبر على الطاعة أي استمساك بأدائها، وصبر على المعصية أي حرص موصول على تجنبها، وصبر في الابتلاء أي حُسن احتمال له.

فلابد للمؤمن من صبر على أداء الواجب، وصبر على الآثام والخطايا، وصبر يحفظ اللسان من الخنا والفحش، وصبر يحرص اللسان على النطق بكلمة الحق حينما تجب، وصبر بصيانة القلب والعقل من خواطر

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٤٦٩)، ومسلم (رقم ١٠٥٣).

السوء، وصبر يحفظ الجوارح والأعضاء من سوء الاستخدام، وصبر عند الشدائد والنوازل، وصبر في مواطن الجهاد والنضال بالإقدام والثبات وعدم الفرار أو التولي يوم الزحف، والله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ۝١٥﴾ [الأنفال: ١٥] فتولية الأدبار ضد الصبر. والصبر لفظ عام ينتظم جملة فضائل، وقد يسمى بأسماء كثيرة لكثرة مواطنه ومظاهره.

ولنا في رسول الله أسوة حسنة، فهو ﷺ مثال يحتذى وإمام يقتدى في الصبر وغيره، وهذا نموذج من صبره ﷺ وذلك فيما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو يوعك فقلت: يا رسول الله إنك توعك وعكاً شديداً. قال: «أجل إني أوعك كما يوعك رجلان منكم» قلت: ذلك بأن لك أجرين قال: «أجل ذلك كذلك، ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها، إلا كفر الله بها سيئاته كما تحط الشجرة ورقها»(١).

ومن الآثار وأقوال العلماء الواردة في الصبر والمصابرة فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: الصبر نصف الإيمان واليقين الإيمان كله.

وقال ابن تيمية رحمه الله: ذكر الله تعالى في كتابه الصبر الجميل والصفح

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٦٦١)، ومسلم (رقم ٢٥٧١).

الجميل والهجر الجميل، الصبر الجميل: هو الذي لا شكوى فيه ولا معه، والصفح الجميل: هو الذي لا عتاب معه، والهجر الجميل: هو الذي لا أذى معه.

قال الثوري عن بعض أصحابه: ثلاث من الصبر: ألا تحدث بوجعك ولا بمصيبتك، ولا تزكي نفسك. قيل لربيعة بن عبد الرحمن: ما منتهى الصبر؟ قال: يكون يوم تصيبه المصيبة مثله قبل أن تصيبه.

وقال سليمان بن عبد الملك لعمر بن عبد العزيز عندما مات ولده سليمان: «أيصبر المؤمن حتى لا يجد لمصيبته ألماً؟ قال: يا أمير المؤمنين لا يستوي عندك ما تحب وما تكره، ولكن الصبر مووِّل المؤمن.

وللصبر والمصابرة فوائد كثيرة: منها: ضبط النفس عن الطمع لدى مثيرات الطمع. ومنها ضبط النفس لتحمل المتاعب والمشقات والآلام الجسدية والنفسية، كلما كان في هذا التحمل خير عاجل أو آجل.

ومنها ضبط النفس عن الغضب والطيش لدى مثيرات الغضب في النفس ومحرضات الإرادة للاندفاع بطيش، لا حكمة فيه ولا اتزان في القول أو في العمل، هذا قليل من كثير مما في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وآثار العلماء رحمهم الله.

الصبر

الصبر فضيلة يحتاج إليها المسلم في دينه ودنياه، ولابد أن يبني عليها أعماله وآماله، فيجب أن يوطن نفسه على احتمال المكاره دون ضجر، وانتظار النتائج مهما بعدت، ومواجهة الأعباء مهما ثقلت بقلب متعلق بالله متكلاً عليه سبحانه، راجياً أن يفرج كربته في كل نازلة تنزل به أو مصيبة تحل به. وفضيلة الصبر دعا إليها القرآن وسنة سيد الأنام.

والصبر في اللغة: معناه الحبس والكف. يقال: صبرت نفسي عن ذلك الشيء أي كففتها، والصبر في الاصطلاح القرآني الكريم: هو حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع.

قال الطبري: الصبر منع النفس محابها وكفها عن هواها. ووصفه ابن الجوزي بأنه حبس عن فعل ما تحبه، وإلزامها بفعل ما تكره في العاجل، مما لو فعله أو تركه لتأذى به في الآجل.

والصبر أنواع: صبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، وصبر على النوازل.

فأما الصبر على الطاعة فأساسه أن أركان الإسلام اللازمة تحتاج في القيام بها والمداومة عليها على تحمل ومعاناة، فالصلاة مثلاً متكررة يقول الله سبحانه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]، ويقول الله سبحانه: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة: ٤٥]، وعشرة المؤمنين والإبقاء على مودتهم والإغضاء عن هفواتهم خصال تعتمد على الصبر الجميل ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨]، والتواصي بالصبر قرين التواصي بالحق وقد أقسم الله ﷻ على أنه فلاح البشر منوط بها: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١ - ٣].

والصبر عن المعاصي هو عنصر المقاومة للمغريات التي بثت في طريق الناس وزينت لهم اقتراف المآثم والمنكرات والمعاصي، قال رسول الله ﷺ: «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات»[1]، والإقبال على المكاره والإدبار عن الشهوات لا يتأتى إلا لصبور، والصبر هنا أثر اليقين الحاسم والاتجاه الحازم إلى ما يرضي الله، وهو روح العفاف الذي يحمي المؤمن من أوضار الدنايا ومكر

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٨٢٢).

السيئات ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

وهناك الصبر على ما يصيب المؤمن في نفسه أو ماله أو منزلته أو أهله، وتلك كلها أعراض متوقعة وهيهات أن تخلو الحياة منها. على أن المسلم إذا احتمى بالله ولجأ إليه سُهلت عليه المصائب، وحين يعلم الصابر ما يزيحه الصبر عن كاهله من الذنوب يكون أكثر طمعاً في رحمة الله، وأكثر رضا بقدر الله، فبعض الناس ليس لهم أعمال صالحة يداومون عليها ترفع درجاتهم، يصلون إلى المراتب العليا بالصبر، قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [الروم: ٦٠] و [غافر: ٥٥، ٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

الصبر المحمود ما كان بغير تسخط ولا جزع ولا يأس ولا شكوى. وفي هذا المعنى يقول ﷺ: «ليس من أحد يقع الطاعون فيمكث في بلده صابراً محتسباً يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر شهيد»[1].

يقول ابن حجر رحمه الله صابراً أي غير منزعج، ولا قلقاً بل مسلماً لأمر الله راضياً بقضائه. وحين أُمر رسول الله ﷺ بالصبر في بداية الدعوة أمر بالصبر الجميل ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝﴾ [المعارج: ٥].

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٧٤).

يقول الطبري: والصبر الجميل هو الذي لا جزع فيه ولا شكوى لغير الله. والصبر المحمود ما كان فيه تمام التوكل على الله وكمال اليقين به، هذا اليقين الذي يجعل المجاهد مقبلاً غير مدبر. قال رجل: يا رسول الله أرأيت إن قتلت في سبيل الله يكفر عني خطاياي؟ قال رسول الله ﷺ: «نعم إن قتلت في سبيل الله وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر»(١) وهو الصبر المتجمل باليقين في ساعة المصيبة، بحيث لا يفقد صوابه، ولا يهذي بلسانه.

وفي الحديث القدسي: «ابن آدم إن صبرت واحتسبت عند الصدمة الأولى لم أرض لك ثواباً دون الجنة»(٢)، قال الخطابي: المعنى أن الصبر الذي يحمد عليه صاحبه ما كان عند مفاجأة المصيبة بخلاف ما بعد ذلك، فإنه على الأيام يسلو.

لقد نوَّه الرسول ﷺ بشأن الصبر ومكانته، فقال: «الصبر ضياء»(٣)، وقال: «ما أُعطي أحد عطاءً خيراً له وأوسع من الصبر»(٤)، كما قال عمر بن

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٨٨٥).

(٢) أخرجه ابن ماجه (رقم ١٥٩٧) وفي الزوائد: إسناد حديث أبي أمامة صحيح ورجاله ثقات.

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٢٣).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ١٤٦٩)، ومسلم (رقم ١٠٥٣).

الخطاب رضي الله عنه: خير عيش أدركناه بالصبر.

ولعل القرآن الكريم لم يكثر من ذكر خُلق من أخلاقه كما فعل في شأن الصبر، حتى قال الإمام أحمد: الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعاً. ومما يوضح مكانة الصبر وشأنه، أن الله تبارك وتعالى جعله صفة من صفاته، فالله جل جلاله هو الصبور، الذي لا يعاجل العصاة بالانتقام والعقاب.

والقرآن المجيد يحدثنا بأن الصبر صفة الأنبياء والمرسلين، فهو يقول سبحانه في سورة (ص) عن أيوب عليه السلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]، ويقول سبحانه في سورة الأنبياء: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنبياء: ٨٥]، ويقول في سورة يونس لمحمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يونس: ١٠٩].

ومن صور الصبر التي يمتحن الله بها عباده الابتلاء في الصحة، كما جاء في الحديث القدسي «إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوَّضته منها الجنة»[(١)].

ومن أعظم صور الصبر ما يكون في مواقف النزال والمواجهة والصراع

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٦٥٣).

لذلك يقول ﷺ: «لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإن لقيتموهم فاصبروا»[1] وكان رسول الله ﷺ يأخذ عليهم العهد ألا يفروا وذلك بأن يبايعهم على الصبر، والصبر ضروري في تربية الأولاد، وخاصة إن كن بنات، وبالصبر ينفتح للمربي باب من الأجر، أو يكتب له ستر من النار، كما في الحديث: «من كان له ثلاث بنات فصبر عليهن وأطعمهن وسقاهن وكساهن من جدته كن له حجاباً من النار يوم القيامة»[2]، وما أحوج المسلمين اليوم أفراداً وجماعات إلى خلق الصبر في التربية والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك من أصول الدين وفروعه.

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧٢٣٧)، ومسلم (رقم ١٧٤١).

(٢) صححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٦٤٨٨).

الحث على الثبات في الملمات

إن من محاسن الإسلام تربية المسلمين وحثهم على الالتزام بالأخلاق الفاضلة والسمات الحميدة، التي تكون سبباً لعزتهم وقوتهم ومنعتهم وتميزهم على أعدائهم بتلك الصفات.

ومن هذه الصفات: الثبات، والثبات خلق من أخلاق القرآن الكريم، ومعناه دوام الشيء، وهو يدل على الاستقرار والقوة والاستمرار في طريق الهداية والالتزام بمقتضيات هذا الطريق والمداومة على الخير والسعي الدائم للاستزادة، ونحتاج إلى الثبات أشد الاحتياج، لأن طريق العبادة والطاعة طويل، لابد له من ثبات واستقرار، وطريق العمل والسعي الحميد في الحياة طويل، لابد له من ثبات واستقرار، ولذلك نادى الله ﷻ عباده الأخيار بقوله في سورة آل عمران: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** (٢٠٠) ﴾[آل عمران: ٢٠٠].

وقد أخبر الله سبحانه عباده بأن الثبات صفة كريمة من صفات المؤمنين، تتحقق لهم عن طريق الاهتداء بهدي القرآن المجيد بالإقبال على طاعة الله

والاعتصام بحبله وهداه، فقال تعالى في سورة النحل: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [النحل: ١٠٢]، وقال تعالى في سورة محمد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد: ٧]، ومتى منَّ الله تعالى على عباده بالتثبيت فقد تحقق لهم الثبات.

كما أخبر الله سبحانه بأنه مَنَّ على نبيه محمد ﷺ بنعمة الثبات، وإنما تحقق الثبات لرسول الله ﷺ بفضل الله، وبما آتاه من وحيه، وبما قص عليه، وذكر له في كتابه الكريم من آيات وأنباء وعظات، ولذلك يقول سبحانه في سورة الفرقان: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان: ٣٢]، وقال سبحانه في سورة هود: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ﴾ [هود: ١٢٠]، قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء: ٧٤].

فالله سبحانه قد أقر رسوله على الحق، وحصنه به، وعصمه من موافقة الكافرين، وكان رسول الله ﷺ يدرك خير الإدراك فضل الله العظيم عليه في هذا التثبيت، ولذلك كان يدعو فيقول: «اللهم لا تكلني إلى نفسي

طرفة عين»[1].

وللثبات صور تشمل عدداً من جوانب حياة المسلم، منها الثبات في المعركة، كما ثبت الرِّبِّيون الكثير مع أنبيائهم، وكان قولهم: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

والفئة الصابرة بأمرة طالوت الذين قال الله فيهم: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾ [البقرة: ٢٥٠]، وفي ذلك توجيه للمؤمن أن يلتجئ إلى الله طالباً منه التثبيت.

عباد الله ولأن مسألة الثبات على الدين قضية تشغل فكر المسلم، فإنه يكثر من الدعاء بها، فقد كان رسول الله ﷺ يكثر من قول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»[2]، وقد كان رسول الله ﷺ يخشى على

(١) ضعفه الألباني في ضعيف الجامع (رقم ١٢١٧).
ورد بلفظ آخر: «يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً»، صححه الألباني في السلسلة الصحيحة (رقم ٢٢٧).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٣٥٢٢) وقال: هذا حديث حسن، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٧٩٨٧).

نفسه في غمرة تكالب الأعداء عليه، ولذلك خاطبه ربنا عز وجل بفضله عليه بأن أخلص ولاءه لله، فقال سبحانه: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلاً ﴿٧٤﴾ إِذاً لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ [الإسراء: ٧٤ — ٧٥].

ونجد كثيراً من أدعية السلف ترك على معنى الثبات، ومن ذلك دعاء عبد الله بن مسعود: اللهم إني أسألك إيماناً لا يرتد ونعيماً لا ننفد. وقال شداد بن أوس: كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات ندعو بهن في صلاتنا: «اللهم إني أسألك الثبات في الأمر وعزيمة على الرشد»(١).

ومن أهم صور الثبات المداومة على الطاعات، روى الترمذي: «من ثابر على ثنتي عشرة ركعة من السنة بنى الله له بيتاً في الجنة»(٢)، وحين سئل رسول الله ﷺ: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «أدومه وإن قل»(٣). وكان آل محمد ﷺ إذا عملوا عملاً أثبتوه، يقول الترمذي: أي لازموه وداوموا عليه.

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٤٠٧)، وأحمد (٤/١٢٣، ١٢٥).
(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٤١٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٦١٨٣).
(٣) أخرجه مسلم (رقم ٧٨٢/٢١٦).

والقول الجامع لرسول الله ﷺ في بيان حقيقة الإسلام: إيمان وثبات: قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك قال: «قل آمنت بالله ثم استقم»[1].

عباد الله ومن صور الثبات على الحق موقف محمد ﷺ الخالد الذي علم به الدنيا كلها: كيف يكون الثبات على الحق والاستمساك بالعقيدة، وذلك يوم قال: «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه»[2].

عباد الله: الدعاء سلاح المؤمن في الملمات كالحروب والفتن الخاصة والعامة، ولقد دعا رسول الله ﷺ عقب غزوة أحد دعاءً فيه الرجاء من الله بأن يحقق في نفوس المؤمنين معاني الثبات والاطمئنان. تقول السيرة: لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون قال رسول الله ﷺ: «استووا حتى أثني على ربي ﷻ» فصاروا خلفه صفوفاً فقال: «اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن ضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مبعد لما قاربت، اللهم أبسط علينا من بركاتك ورحمتك

(١) أخرجه مسلم (رقم ٣٨).

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في تاريخه (٣٢٦/٢)، والبيهقي في دلائل النبوة (١٨٧/٢).

وفضلك ورزقك، اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللهم إني أسألك النعيم يوم العيْلة، والأمن يوم الخوف، اللهم إني عائذ بك من شر ما اعطينا، وشر ما منعتنا، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا نادمين، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون برسلك، ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك»[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٣/٤٢٤)، والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٦٩٩)، والنسائي في الكبرى (رقم ١٠٤٤٥) وفي عمل اليوم والليلة (رقم ٦٠٩)، والحاكم (٣/٢٣ – ٢٤) وصححه ووافقه الذهبي.

التفكر

التفكر من محاسن الإسلام، وهو أن ينظر الإنسان في الشيء على وجه العبرة، لتقوية جوانب الخير والصلاح ومقاومة دواعي الشر والفساد، وقد ورد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وقد تقدم شيء من ذلك.

ولقد أشاد السابقون من علماء الأمة وبصرائها بمنزلة التفكر السليم القويم.

قال أبو سليمان الداراني: إني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيء إلا رأيت فيه نعمة ولي فيه عبرة.

وقال بشر الحافي: لو تفكر الناس في عظمة الله ما عصوا الله عز وجل. وقال الفضيل بن عياض: الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك.

وقال الشافعي رحمه الله: استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكر.

وقال أيضاً: صحة النظر في الأمور نجاة من الغرور، والعزم في الرأي سلامة من التفريط والندم، والرؤية والفكر يكشفان عن الحزم والفطنة،

ومشاورة الحلماء ثبات في النفس وقوة في البصيرة، ففكر قبل أن تعزم، وتدبر قبل أن تهجم، وشاور قبل أن تقدم.

وقال أبو سليمان: عَوِّدُوا أعينكم البكاء وقلوبكم التفكر.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: تفكروا في كل شيء، ولا تفكروا في ذات الله. وعن عبد الله بن عتبة قال: سألت أم الدرداء: ما كان أفضل عبادة أبي الدرداء؟ قالت: التفكر والاعتبار.

وعن الحسن رحمه الله قال: إن أفضل العمل الورع والتفكر. وقال أيضاً: تفكر ساعة خير من قيام ليلة.

وقال عمر بن عبد العزيز: الفكر في نعم الله عز وجل أفضل العبادة. وعن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أنه بكى يوماً بين أصحابه فسئل عن ذلك؟ فقال: فكرت في الدنيا ولذاتها وشهواتها فاعتبرت فيها بها، ما تكاد شهواتها تنقضي حتى تكدرها مرارتها، ولئن لم يكن فيها عبرة لمن اعتبر أن فيها لمواعظ لمن ادكر.

وإذا كان التفكر بهذه المنزلة وثمرته بتلك المكانة فالمصيبة كبيرة حين يحرم الإنسان فضيلة التفكر، ولقد روي أن الحسن قرأ قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ

يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ [الأعراف: ١٤٦]، ثم ذكر الحسن أن معنى (الصرف) هنا هو أن الله جل وعلا يمنع هؤلاء الأشقياء التفكر في أمر الله عز وجل.

وللتفكر ثمرة يانعة ممتعة نامية سامية، فمن وراء التفكر يكون التعقل والارتداع عن كل ما يقبح ويسوء، والإقبال على كل ما هو جميل ومقبول، ومن وراء التفكر يكون الإدراك الواعي البصير لجلال الله وعظمته وكثرة نعمه وآلائه، ومن وراء التفكر يكون الاعتزاز بالله وحده والذل لوجهه سبحانه، والترفع عن الهوان مع غيره، ومن وراء التفكر تكون الطاعة والاجتهاد في العبادة والازدياد من القربات، وإحياء الجوانب المشرقة في ذات الإنسان، ويكون إزهاق النوازع الخبيثة الرديئة.

لو تتبعنا المواضع التي جاء فيها ذكر التفكر في القرآن الكريم لوجدنا أن هذا الذكر يأتي غالباً بعد الحديث عن أمر أو مشهد يثير في النفس معنى من معاني الإعجاب بالخير والفضيلة والميل إليهما، أو معنى من معاني النفور من الشر والرذيلة والضيق بهما، أو هكذا ينبغي أن يكون لدى الإنسان القويم، وهذا يؤكد لنا المعنى الأخلاقي القرآني لفضيلة التفكر، وهو النظر على وجه الاتعاظ والاعتبار، فالإنسان يتفكر في أمر المعاصي وأمر الطاعات، أو يتفكر في الصفات المهلكة والصفات المنجية، وهكذا ينبغي له

أن يتبين: أهو متلبس بمعصية فينهى عنها أم هو سائر في طاعة فيزداد منها، وكذلك يتفكر الإنسان في الفرائض والواجبات: أهو يؤديها أم يقصر فيها؟ وفي الصفات المهلكة أهو متلطخ بشيء منها؟ وفي الصفات الجميلة فالذي يحتاج إليه منها وهكذا.

لقد عرض الغزالي نموذجاً للتفكر في الطاعات فقال عن الإنسان:

فينظر أولاً في الفرائض المكتوبة عليه أنه كيف يؤديها، وكيف يحرسها عن النقصان والتقصير أو كيف يجبر نقصانها بكثرة النوافل، ثم يرجع إلى نفسه عضواً عضواً، فيتفكر في الأفعال التي تتعلق بها مما يحبه الله تعالى.

فيقول مثلاً: إن العين خلقت للنظر في ملكوت السموات والأرض عبرة، ولتستعمل في طاعة الله تعالى، وتنظر في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأنا قادر على أن أشغل العين بمطالعة القرآن والسنة فلم لا أفعله.

وكذلك يقول في سمعه: إني قادر على استماع كلام ملهوف أو استماع كلمة علم أو استماع قراءة وذكر، فما لي أعطله وقد أنعم الله عليَّ به وأودعنيه لأشكر فما لي أنكر نعمة الله فيه بتضييعه وتعطيله.

وكذلك يتفكر في اللسان ويقول: إني قادر على أن أتقرب إلى الله تعالى بالتعليم والوعظ والتودد إلى قلوب أهل الصلاح وبالسؤال عن أحوال الفقراء وإدخال السرور عليهم، وبالكلمة الطيبة فكل كلمة طيبة صدقة.

وكذلك يتفكر في ماله، وهكذا يفتش عن جميع أعضائه وجملة بدنه وأمواله، فإن كل ذلك أدواته وأسبابه، ويقدر على أن يطيع الله تعالى بها فيستنبط بدقيق الفكر وجوه الطاعات الممكنة بها، ويتفكر فيما يرغبه في البدار إلى تلك الطاعات ويتفكر في إخلاص النية فيها، ويطلب لها مظان الاستحقاق حتى يزكو بها عمله، وقس على هذا سائر الطاعات.

للتفكر حدوده وقيوده، ولعل ما يشير على ذلك الحديث القائل: «تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله، فإنكم لن تبلغوا قدره»[1].

وكذلك ليس من التفكر الأخلاقي الإسلامي أن يتفكر الإنسان في طرق الوصول إلى الشهوات والملذات، ولا في وسائل العدوان على الأنفس أو الأعراض أو الأموال أو غير ذلك من حرمات الناس، وليس من التفكر الأخلاقي الإسلامي القرآني أن يستجيب الإنسان لدواعي الحسد ونزعات الحقد والبغضاء أو غير ذلك مما يجعله فريسة لخبيث المشاعر وسيء النوايا.

---

(١) أخرجه أبو الشيخ الأصفهاني في كتاب العظمة (رقم ٣، ٤)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (رقم ٢٤٧٠، ٢٤٧١).
بينما ورد صحيحاً عند أبي نعيم في الحلية (٦/٦٦، ٦٧) بدون الفقرة الأخيرة، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٢٩٧٦).

التفكر

محاسن الإسلام عظيمة وكثيرة ومتعددة، العمل بها كفيل بسعادة المسلم في دنياه وأخراه، في معاشه ومعاده، وفي كل أحواله، ومن هذه المحاسن التفكر، هذه الكلمة القليلة في ألفاظها الكبيرة في مبناها ومعناها، وسنتناول هذه الكلمة في معناها وورودها في الكتاب والسنة وأقوال السلف وفوائدها وثمراتها إلى غير ذلك مما يتعلق بها.

فالتفكر كلمة فيها معنى النظر والتفهم، وقد عرَّف الراغب الأصفهاني التفكر بأنه جولان قوة الفكر بحسب نظر العقل، ويستعمل الفكر في المعاني وهو فحص الأمور وبحثها طلباً للوصول إلى حقيقتها، ولذلك تقول اللغة: إن الفكر هو إعمال النظر في الشيء.

والتفكر بالمعنى الأخلاقي الإسلامي القرآني هو أن ينظر الإنسان في الشيء على وجه العبرة، لتقوية جوانب الخير والصلاح ومقاومة دواعي الشر والفساد.

ولذلك نجد المفسرين يتعرضون لمعنى قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ

﴿ٱلْأَيَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، فيقولون في معنى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، أي لكي تتفكروا في أمر الدنيا وأمر الآخرة، فتتجنبوا ما يجلب عليكم البلاء والشقاء فيها، وتعتصموا بما هو لائق بالمؤمنين من الأخلاق والمكارم، وتستنبطوا الأحكام وتفهموا المصالح والمنافع المنوطة بها، فتأخذوا بالأصلح، وتبتعدوا عما يضركم ولا ينفعكم، أو يضركم أكثر مما ينفعكم.

لقد أمرنا الله سبحانه بالنظر في ملكوت السموات والأرض وقدرة الله ﷻ، ولقد لفت القرآن الكريم نظر الإنسان بصورة بالغة الظهور إلى استشفاف دلائل الإيمان، عبر تأمل أسرار السموات الشاهدة على موجدها.

وفي القرآن الكريم عدد كبير من الآيات الشارحة في استفاضة أسراراً لهذه السماء، فكان الاستعراض الإعجازي من جهة دقائقها العلمية مقترناً بالدعوة الملحة للإيمان بهذا الكتاب وهذا الدين: كواجب مصيري على جنس الإنسان.

يقول سبحانه: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْأَيَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: ١٠١]، ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ

بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [الأعراف: ١٨٥]، ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء: ٣٢]، ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [الواقعة: ٧٥ – ٧٦]، ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾﴾ [النجم: ١]، ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾﴾ [البروج: ١]، ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾﴾ [الذاريات: ٧]، ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾﴾ [الطارق: ١١].

إن عشرات الآيات في كتاب الله قد عرضت أموراً فلكية غاية في التنوع، بشأن بناء السماء وما فيها من آيات الليل والنهار والقمر والكواكب، ولقد أثبت ذلك العلم بالدليل هذه المعجزات المذهلة في القرآن العظيم، التي تستدعي على المسلم أن يزداد إيمانه ويقينه بإيمانه بخالقه وقدرته سبحانه، فيعمل لرضاه ويبتعد عن سخطه سبحانه.

لقد جاء ذكر التفكر في القرآن الكريم سبع عشرة مرة، ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل: ٦٨ – ٦٩]، أي في خلق هذه النحلة الصغيرة التي هداها الله الهداية العجيبة، ويسر لها المراعي، ثم الرجوع إلى بيوتها التي أصلحتها بتعليم الله لها،

وهدايته لها ثم يخرج من بطونها هذا العسل اللذيذ مختلف الألوان بحسب اختلاف أرضها ومراعيها، فيه شفاء للناس من أمراض عديدة.

فهذا دليل على كمال عناية الله تعالى وتمام لطفه بعباده، وأنه الذي لا ينبغي أن يُحب غيره ويدعى سواه، ويقول سبحانه: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾ [الحشر: ٢١]، أي لأجل أن يتفكروا في آياته ويتدبروها، فإن التفكر فيها يفتح للعبد خزائن العلم، ويبين له طريق الخير والشر، ويحثه على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، ويزجره عن مساوئ الأخلاق، فلا أنفع للعبد من التفكر في القرآن والتدبر لمعانيه.

من الصور التطبيقية من حياة النبي ﷺ في التفكر ما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ عليَّ القرآن» قال: فقلت: يا رسول الله أقرأ عليك القرآن وعليك أنزل؟! قال: «إني أشتهي أن أسمعه من غيري» فقرأت النساء حتى إذا بلغت ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ٤١﴾ [النساء: ٤١]، رفعت رأسي أو غمزني رجل إلى جنبي فرفعت رأسي، فرأيت دموعه ﷺ تسيل[1].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٥٨٢)، ومسلم (رقم ٨٠٠).

وصورة أخرى تتضح فيما رواه ابن عباس رضي الله عنهما قال: بت عند خالتي ميمونة، فتحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أهله ساعة، ثم رقد، فلما كان ثلث الليل الآخر قعد، فنظر إلى السماء، فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠﴾ [آل عمران: ١٩٠]، ثم قام فتوضأ واستن فصلى إحدى عشرة ركعة ثم أذن بلال فصلى ركعتين، ثم خرج فصلى الصبح[(١)].

وقد قيل للأوزاعي رحمه الله: ما غاية التفكر في هذه الآيات؟ فأجاب: يقرأهن ويعقلهن. ولابد أن يكون الأوزاعي قد أراد بعقل هذه الآيات: فهمهن فهماً صحيحاً، والتأثر بهذا الفهم، والاستجابة لمقتضى هذا التأثر، وهو شكر الله تعالى وطاعته وعبادته. ومن هنا كان سفيان بن عيينة يتمثل كثيراً بقول القائل: (إذا المرء كانت له فكرة، ففي كل شيء له عبرة).

للتفكر فوائد منها: أنها طريق موصل إلى رضوان الله تعالى ومحبته.

ومنها أنها انشراح للصدر وسكينة للقلب.

والتفكر يورث الخوف والخشية من الله تعالى، كما يورث الحكمة ويحيي القلوب، وكثرة الاعتبار والاتعاظ من سير السابقين.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٥٦٩)، ومسلم (رقم ٧٦٣).

والتفكر قيمة عقلية كبرى تؤدي إلى يقظة الأفراد ونهضة الأمم.

قال أحد الأدباء في التفكر:

إنــي رأيــت عواقــب الــدنيا	فتركــت مــا أهــوى لمـا أخـشى
فكـــرت في الـــدنيا وعالمهـــا	فـــإذا جميـــع أمورهـــا تفنـــى
وبلـــوت أكثـــر أهلـــها فـــإذا	كـــل امـــرئ في شـــأن يـــسعى
أســـنى منازلهـــا وأرفعهـــا	في العـــز أقربهـــا مـــن المهـــوى
تعفـــو مـــساويها محاســـنها	لا فـــرق بـــين النعـــي والبـــشرى

الإحسان

محاسن الإسلام كثيرة ومتعددة ومتنوعة في العبادات والمعاملات مع الخلق ومع الخالق سبحانه، ومنها الإحسان إلى الأيتام والأرامل والضعفاء والفقراء، وقد تقدم في حلقة سابقة بعض الكلام عن ذلك، ولكن لما كان الموضوع يشمل شريحة كبيرة في المجتمع، ولضعف الإيمان عند كثير من الناس وانشغال كثير منهم بأمور الدنيا، ولوجود الحروب الكثيرة التي يتمَّت كثيراً من أبناء وبنات المسلمين ولالتفات كثير من النصارى ومع الأسف الشديد إلى العطف على هذه الفئة ومحاولة جذبهم بالإحسان إليهم وإخراجهم عن دينهم بالتنصير وغيره من الديانات الأخرى، رأيت الأمر ضرورياً إلى استكمال ما تيسر مما ورد من آيات وأحاديث وآثار مما جاءت به الشريعة الإسلامية في الأجر العظيم والثواب الجزيل لمن أحسن إلى هؤلاء الناس، وإلى الترهيب الشديد فيمن استهان بهم أو أخذ حقوقهم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنة»[1] قال

(١) أخرجه بلفظ قريب البخاري (رقم ٥٣٠٤)، (٦٠٠٥)، وأخرجه بلفظ مسلم=

ابن بطال رحمه الله: حق على من سمع هذا الحديث أن يعمل به، ليكون رفيق النبي ﷺ في الجنة، ولا منزلة في الآخرة أفضل من ذلك.

وفي مسند الإمام أحمد رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رجلاً شكى إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه، فقال له: «إن أردت أن يلين قلبك فأطعم المسكين وامسح رأس اليتيم»(١) وفي لفظ آخر: حين شكى إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه قال له: «أدن اليتيم منك، وألطفه وامسح رأسه، وأطعمه من طعامك، فإن ذلك يلين قلبك وتقدر على حاجتك»(٢) وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «من ضم يتيماً من المسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يغنيه الله أوجب الله له الجنة إلا أن يعمل ذنباً لا يغفر»(٣).

وقال رجل لأبي الدرداء رضي الله عنه: أوصني قال: ارحم اليتيم وادنه منك وأطعمه من طعامك. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير

=(رقم ٢٩٨٣).

(١) أخرجه الطبراني في مكارم الأخلاق (رقم ١٠٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (رقم ١١٠٣٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ١٤١٠).

(٢) حسنه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٢٥٠).

(٣) أخرجه أحمد (٣٤٤/٤)، (٢٩/٥)، والطبراني في الأوسط (رقم ٥٣٤١)، والترمذي (رقم ١٩١٧)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (رقم ٥٦٨١).

بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه»[1].

فانظر يا رعاك الله أيها المسلم عظم شأن اليتيم عند الله أن للبقاع والمساكن التي يعيش فيها البيت تأثيراً بالخيرية وتنزل الرحمة ونمو الخير في الأهل والولد والمال إذا كان هذا اليتيم يحسن إليه، وغير ذلك إذا كان يساء إليه، وعن ابن شريح خويلد بن عمرو الخزاعي ﵁ قال رسول الله ﷺ: «إني أحرج حق الضعيفين: اليتيم والمرأة»[2].

ومعنى أحرج الحق: الحرج وهو الإثم لم يضع حقهما، وكفالة اليتيم هي القيام بأموره والسعي في مصالحه من إصلاح طعامه وكسوته وتنمية ماله إن كان له مال، والإنفاق عليه ابتغاء مرضاة الله وثوابه، وقال السعدي ﵀ على قوله سبحانه: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا** ﴿١٠﴾ ﴾ [النساء: ١٠]، قال: (يحشر

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (رقم ١٣٧)، وابن ماجه (رقم ٣٦٧٩)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (رقم ٢٩٠٥).

(٢) أخرجه أحمد (٢/٤٣٩)، وابن ماجه (رقم ٣٦٧٨)، والحاكم (١/٦٣)، وابن حبان كما في الموارد (رقم ٥٥٦٥)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/١٣٤)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٢٤٤٧).

آكل اليتيم ظلماً يوم القيامة ولهب النار يخرج من فمه ومن مسامعه وأنفه وعينه، كل من رآه يعرفه أنه آكل مال اليتيم. نسأل الله العافية والسلامة).

بما أن الأيتام منتشرون في الأرض وفي جميع بقاع الدنيا بكثرة لا تخلو بقعة إلا ويوجد فيها أيتام، والغالب عليهم أنهم فقراء ومحتاجون، وكثير من الناس هداهم الله في غفلة عن هؤلاء إلا من عصم الله، فالواجب على المتخصصين بتوزيع الصدقات والزكوات أن يجعلوا لهؤلاء الأيتام نصيباً وافراً ومزيداً من الاستحقاق عن غيرهم، بحسب يسرهم وعسرهم وكثرتهم وقلتهم، فالله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ولقد ورد في فضل الضعفاء والمساكين والأرامل ومن يعولهم الآيات والأحاديث والآثار الكثيرة، فالمساكين هم الذين أسكنتهم الحاجة وأذلهم الفقر، فلهم حق على الأغنياء بما يدفع مسكنتهم أو يخففها بما يقدرون عليه.

والأرملة: هي التي مات زوجها ولها منه أولاد أو لم يكن لها منه أولاد، فيطلق عليها الأرملة فهي في أمس الحاجة إلى من يقوم بسداد حالها من نفقة ومن قضاء حاجة مسكنها، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، وأحسبه قال: وكالقائم الذي لا يفتر كالصائم الذي لا يفطر»[1].

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٣٥٣)، ومسلم (رقم ٢٩٨٢).

وعن أبي الدرداء عويمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «أبغوني في ضعفائكم، فإنما تنصرون وترزقون بضعفائكم»(1).

وذلك لأن أسباب النصر والرزق والدفاع عن المسلمين والعطف عليهم والإحسان إليهم، ثم إنه لما كان لإطعام المساكين والتماس ثواب الله بالإحسان إليهم موقع من الإسلام كبير، وله تأثير في الأعمال في الدار الآخرة حكى الله تعالى عن أهل النار في جوابهم لأهل الجنة عندما دار السؤال بينهم في الأسباب التي أوجبت لهم دخول النار ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ۝ ﴾ [المدثر: ٤٢ – ٤٤].

فإطعام المساكين والإحسان إليهم من الأسباب الموجبة لدخول الجنة مع وجود التوحيد وبعد رحمة أرحم الراحمين، لاسيما وقت المساغب والمجاعة، فعلى كل مسلم له سعة في المال أن يغتنم حياته، وأن يقدم لنفسه، وسوف يجد جزاء ذلك في وقت هو أحوج ما يكون إليه، وورد في الأثر: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السر تطفئ غضب الرب،

(1) أخرجه أحمد (١٩٨/٥)، وأبو داود (رقم ٢٥٩٤)، والترمذي (رقم ١٧٠٢)، والحاكم (١٠٦/٢)، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٤٠).

وصلة الرحم تزيد في العمر»[1]، عن أنس بن مالك ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة» قال: فقالت عائشة: لِمَ يا رسول الله قال: «إنهم يدخلون الجنة قبل الأغنياء بأربعين خريفاً يا عائشة لا تردي المسكين ولو بشق تمرة، ياعائشة أحبي المساكين وقربيهم يقربك الله يوم القيامة»[2] أخرجه الترمذي في سننه، وقد استشهد به ابن تيمية في الفتاوى.

كان رسول الله ﷺ وهو القدوة الحسنة لأمته، يتفقد ضعفاء المسلمين من الفقراء والمساكين والأرامل، ويجالسهم ويدنيهم إليه ويحادثهم ويسأل عنهم ويصلهم بما يستطيعه من الإطعام وجميع النفقات، وكان ﷺ إذا أهدي إليه هدية طعام أو لبن أمر أحد أصحابه أن يدعو إليه أهل الصفة، لأنهم ضعفاء الصحابة، وها هم أولاء أصحاب رسول الله ﷺ بذلوا في سبيل الله الأموال الطائلة للفقراء والمساكين والأيتام، فهذا أبو بكر ﵁ جاء بماله كله إلى رسول الله ﷺ، وهذا عمر بن الخطاب جاء بشطر ماله وأنفقه

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (رقم ٦٠٨٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٧٩٦).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٢٣٥٢) وقال: هذا حديث غريب. وصحح الألباني الجزء الأول منه بينما ضعّف شطره الثاني من قوله: فقالت عائشة: لِمَ يا رسول الله... الخ.

في سبيل الله، وهذا أبو طلحة رضي الله عنه جعل بستانه بيرحاء صدقة للفقراء والمساكين وذوي الحاجات، وهذا عثمان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما لهما الباع الطويل في الإنفاق في سبيل الله، وهذا أبو الدحداح رضي الله عنه جعل بستانه وفيه ستمائة نخلة صدقة لله ولرسوله في سبيل البر، وهذه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها جاءها ثمانون ألف من معاوية فقسمتها في يومها على الفقراء والمساكين، فهذا فيض من غيض مما يزخر به كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وأخبار الصحابة والتابعين لهم بإحسان في العطف والشفقة والبذل على الفقراء والأيتام والأرامل.

الإخلاص

الإخلاص سمة من سمات عباد الله الصالحين، وحلة يتحلى بها المؤمنون، دعا إليها القرآن الكريم، وهدى إليها سيد الأنام محمد بن عبد الله عليه وعلى آله أتم الصلاة والسلام، ودرج عليها عباد الله المفلحين من السلف ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين – رحمهم الله تعالى –.

وكلمة الإخلاص تدل على الصفاء والنقاء والتنزه عن الأخلاط والشوائب، والشيء الخالص الذي ليس به شائبة مادية أو معنوية.

ومعنى الإخلاص الديني الأخلاقي، هو تجريد قصد التقرب إلى الله تبارك وتعالى عن جميع الشوائب والعلل والتبري من كل ما دون الله تعالى، ولذلك قيل في سورة ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١]، إنها سورة الإخلاص، لأن الناطق بها المؤمن بها قد أخلص التوحيد لله ﷻ بالربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

وقد ذكر ابن تيمية رحمه الله أن إخلاص الدين هو الذي لا يقبل الله تعالى سواه، وهو الذي بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل، وأنزل به جميع

الكتب، واتفق عليه أئمة أهل الإيمان، وهذا هو خلاصة الدعوة النبوية، وهو قطب القرآن الذي يدور عليه رحاه.

لقد عني القرآن الكريم بالإخلاص في آيات كثيرة وبوجوه مختلفة، فقد قال سبحانه في حق الكفار عند مشاهدتهم البلاء: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [يونس: ٢٢]، وقال تعالى في أمر المؤمنين: ﴿فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر: ٦٥]، وبَيَّن سبحانه أن المؤمنين لم يؤمروا إلا به، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وقال في حق الأنبياء: ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾ [ص: ٤٦]، وقال في المنافقين إذا تابوا: ﴿وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٤٦].

وبين سبحانه أن الجنة لم تصلح إلا لأهله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الصافات: ٤٠]، وبين سبحانه أنه لم ينج من شرك تلبيس إبليس إلا أهله، وتتلخص هذه الوجوه في أمرين: الأول الدين لله سواء من المؤمنين عند الدعاء أو العبادة أو من الكفار عند البلاء أو المنافقين عند التوجه.

ومن هذا النوع الإخلاص المطلق لله ﷻ، والثاني إخلاص الله عباده والذين اصطفاهم واختارهم، سواء أكانوا من الأنبياء أو من غيرهم.

ولقد عنيت السنة النبوية المطهرة بالإخلاص وفضائله وآثاره على

الأعمال في الدنيا والآخرة، فعن أبي هريرة ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء»(١).

وعن أبي هريرة ﵁ أنه قال: قيل: يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة قال رسول الله ﷺ: «لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أولى منك، لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو من نفسه»(٢).

وعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما قال عبد: لا إله إلا الله قط مخلصاً إلا فتحت له أبواب السماء حتى تفضي إلى العرش ما اجتنبت الكبائر»(٣).

وعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٣١٩٩)، وابن ماجه (رقم ١٤٩٧)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٦٩٩).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٩٩).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣٥٩٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٥٦٤٨).

وشركه»(1) فهو سبحانه غني عن المشاركة وغيرها، والمراد أن عمل المرائي باطل لا ثواب عليه، ولقد كانت حياة رسول الله ﷺ كلها إخلاصاً، فقد جاء في القرآن الكريم على لسان رسوله ﷺ: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ۝١٤﴾ [الزمر: ١٤].

وقد تجلى إخلاصه ﷺ في العبادة والجهاد والنصح للمسلمين، وأما الصحابة رضي الله عنهم فقد كان الإخلاص رائدهم في كل ما يقومون به، ومن الأمثلة على ذلك في حياة الصحابة رضي الله عنهم ما جاء في حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: وأما عكرمة فركب البحر فأصابتهم عاصفة، فقال أصحاب السفينة: أخلصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئاً ههنا. فقال عكرمة: والله لئن لم ينجني من البحر إلا الإخلاص، لا ينجني في البر غيره، اللهم إن لك عليَّ عهداً إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمداً ﷺ حتى أضع يدي في يده، فلأجدنه عفواً كريماً. فجاء فأسلم.

وللإخلاص ثمرات كثيرة جليلة منها:

١ – محبة الله تعالى لمن أخلص له، فقد جاء في الأثر: أن الله تبارك وتعالى يعطي الإخلاص لمن يحبه، كما يقول ﷺ فيما يرويه

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٩٨٥).

ابن ماجه: «من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده لا شريك له وأقام الصلاة وآتى الزكاة فارقها والله عنه راضٍ»[1].

٢ – قبول الله تعالى من المخلص، لأن الحديث يقول: «إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغي به وجهه»[2].

٣ – انقطاع الوسواس عن الإنسان، ولذلك يقول أبو سليمان الداراني: إذا أخلص العبد انقطعت عنه كثرة الوسواس والرياء.

٤ – صرف السوء والفحشاء عن الشخص المخلص، ولعل هذا بعض ما نفهمه من قول الله تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٤].

٥ – تفجر الحكمة من المخلص، فقد قال مكحول: ما أخلص عبد قط أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه.

٦ – نصر الله للمخلص لقول النبي ﷺ فيما يرويه النسائي: «إنما

(١) أخرجه ابن ماجه (رقم ٧٠) وفي الزوائد: هذا إسناد ضعيف. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (رقم ٥٧١٩).

(٢) أخرجه النسائي (رقم ٣١٤٠)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (رقم ١٨٥٦).

ينصر الله الأمة بضعفائها ودعوتهم وإخلاصهم»[1].

٧ – زيادة مضاعفة الحسنات، فإذا كان الله تبارك وتعالى قد وعد وهو صاحب الكرم والفضل العظيم بأن يثيب الحسنات بأضعافها، وقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، ووعد بأكثر من العشرة إلى سبعمائة ضعف، بل إلى ما فوق السبعمائة، فإن هذه الزيادة في الأضعاف تنمو بحسب تمكن الإخلاص من نفس المؤمن، فكلما زادت مكانته في الإخلاص علواً زادت مثوبته على الحسنات أضعافاً مضاعفة، والله يضاعف لمن يشاء، والله واسع عليم.

ولهذا قال معاذ بن جبل: لما بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن قلت له: يارسول الله أوصيني. قال: «أخلص دينك يكفك القليل من العمل»[2] أي اجعل إيمانك خالصاً مما يشوبه من شهوات النفس، واجعل طاعتك كلها لوجه الله يصبح القليل من عملك كثيراً مباركاً.

---

(١) أخرجه النسائي (رقم ٣١٧٨)، والطبراني في الأوسط (رقم ٤١٦٠)، وأبو نعيم في الحلية (٥/٢٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٢٣٨٨).

(٢) أخرجه الحاكم (٤/٣٠٦) وصححه وتعقبه الذهبي بقوله: لا. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (رقم ٢٤٠).

ومن ثمرات الإخلاص أنه يحقق الطمأنينة لقلب الإنسان، ويجعله يشعر بالسعادة، وبالإخلاص يحصل كمال الأمن والاهتداء في الدنيا والآخرة.

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١١٠]، وهذان ركنا العمل المتقبل لابد أن يكون خالصاً لله صواباً على شريعة رسول الله ﷺ قال ابن القيم رحمه الله: العمل بغير إخلاص ولا اقتداء كالمسافر يملأ جرابه رملاً يثقله ولا ينفعه.

يتضح مما سبق أن للإخلاص صوراً متعددة، تتمثل فيما يلي:

الإخلاص في التوحيد، والنية والقصد، وفي العبادات كالصلاة والسجود والصوم وقيام ليلة القدر وحب المساجد والزكاة والصدقات والحج والجهاد والتوبة والذكر والاستغفار والدعاء وقراءة القرآن وسائر القربات.

وفي الأقوال كلها وفي الالتزام بمكارم الأخلاق كالصدق والصبر والزهد والتواضع الخ ذلك، وفي التوكل على الله، وفي كافة الأعمال.

النية الطيبة وأثرها على المسلم في الدنيا والآخرة

إن من محاسن الإسلام أنه يدعو معتنقيه إلى حسن النية والإخلاص فيها، لما في ذلك من أثر طيب في الدنيا والآخرة، كما أن سوء النية وعدم الإخلاص فيها له آثار سيئة في الدنيا والآخرة، يدل على ذلك كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

والنية في لغة العرب معناها: عزم القلب على فعل الشيء، وفي الشرع: قصد الشيء ابتغاء وجه الله تعالى وامتثالاً لحكمه، ومحلها القلب.

والنية في الإسلام شرط أساسي مؤكد لقبول القول والعمل عند الخالق سبحانه، الذي يعلم السر وأخفى، والنية في الإسلام مهمة للغاية، فعليها يثاب المؤمن، وعليها يعاقب، وبها تقبل الأعمال، وبها ترد، والله تعالى مطلع على نية الإنسان المضمرة في صدره، وهو عز وجل لا يخفى عليه ما تثمره هذه النية من أقوال وأفعال وسلوك، فيحاسب كل امرئ بناءً على ذلك، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٢٩].

ومن لطف الله سبحانه بعباده أن النية قد تعد خيراً وقد تعد شراً، فالهم

بالسيئة لا عقاب عليه إن لم تنفذ، والهم بالحسنة له ثواب وإن لم ينفذ، وقد فصل الحديث النبوي الشريف الثواب والعقاب بحسب النية، فعن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى قال: «إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك، فمن هَم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هَم بها فعملها كتبها الله عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن هَم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هَم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة»[1].

فهنا أربع حالات:

١ – هَم بحسنة دون عمل الجزاء حسنة كاملة.

٢ – هَم بحسنة مع عمل الجزاء عشر حسنات وقد تزيد.

٣ – هَم بسيئة دون عمل حسنة كاملة لأنه يخشى الله تعالى.

٤ – هَم بسيئة مع عمل الجزاء سيئة كاملة.

ويتضح من هذا أن أمور الدين لا تؤخذ بالهوى ولا من العقل بل هي من عند الله ﷻ فلا شرع إلا ما شرعه الله ورسوله.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية عن أهمية النية المخلصة لله تعالى: النية

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٤٩١)، ومسلم (رقم ١٣١).

المجردة من العمل يثاب عليها، والعمل المجرد من النية لا يثاب عليه، فإنه قد ثبت بالكتاب والسنة واتفاق الأئمة أن من عمل الأعمال الصالحة بغير إخلاص لله لم يقبل منه ذلك، وتتوارد أحاديث أخرى في أهمية النية: إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. كقوله ﷺ ليزيد بن الأخنس: «لك ما نويت يا يزيد»[1]، وقد فسرت حقيقة النية في الجهاد بأن تكون كلمة الله هي العليا وعلى هذا تكون حقيقة الاستشهاد.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياءً أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[2].

وأخبر النبي ﷺ بأن بعض المسلمين الذين تخلفوا عن الجهاد لعذر أو مرض سينالون ثواباً مع المجاهدين أو سيشاركونهم في الأجر، لأن الله تعالى يعلم من نيتهم أنهم لو قدروا ما تخلفوا عن الجهاد، فقعدوا وقلوبهم تتقطع لوعة وأسى، وهم يتمنون النصر للمجاهدين.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: كنا مع النبي ﷺ في غزاة، فقال: «إن

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٤٢٢).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٢٣)، ومسلم (رقم ١٩٠٤).

بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم حبسهم المرض» وفي رواية لمسلم «إلا شركوكم في الأجر»(١).

وعن أنس رضي الله عنه قال: رجعنا من غزوة تبوك مع النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «إن أقواماً خلفنا بالمدينة ما سلكنا شعباً ولا وادياً إلا وهم معنا حبسهم العذر»(٢)، وإذا أنفق المسلم أي نفقة مقرونة بالنية الشرعية أجر عليها بإذن الله تعالى، ومنه أن يختار لقمة أو شربة يضعها في فم زوجته، ويقول صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ما تجعل في فِيِّ امرأتك»(٣).

ومن محاسن الإسلام وفضائل الله وجوده على عباده حينما يحسنوا النية لله سبحانه: أن المسلم إذا خرج من بيته وقت الصلاة المكتوبة فلم يخرجه هدف إلا نية الصلاة كان ثوابه عظيماً عند ربه سبحانه وتعالى، فقد جاء في الحديث الشريف: «صلاة الرجل في جماعة تزيد على صلاته في سوقه وبيته بضعاً وعشرين درجة، وذلك أن أحدهم إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم أتى المسجد لا يريد إلا الصلاة لا ينهزه» – أي لا يخرجه – «إلا الصلاة لم يخط

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٤٢٣)، ومسلم (رقم ١٩١١).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٨٣٩).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٥٦)، ومسلم (رقم ١٦٢٨).

خطوة إلا رفع له به درجة وحط عنه بها خطيئة حتى يدخل المسجد»[1].

وعلى هذا فإن النية قد تجعل ثواب العمل الصغير عظيماً، كما أنها قد تجعل ثواب العمل الكبير صغيراً أو معدوماً، وذلك عند حسن النية أو العكس.

ومن محاسن الإسلام وفضائله أنه يحرر المسلم من كل عبودية إلا للخالق سبحانه، حيث حذر ﷺ من الشرك الأصغر الذي هو الرياء، ومنبعه النية غير الخالصة لله تعالى، يقول ﷺ: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء، يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جزى العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء»[2].

وقد أكد الغزالي رحمه الله على أهمية الإخلاص في النية، ليبعد العبد عن مظاهر الرياء التي تهلكه، فهو يرى أن الإخلاص معناه أن تكون أعمالك

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٤٧)، ومسلم (رقم ٦٤٩).

(٢) أخرجه أحمد (٤٢٨/٥، ٤٢٩) قال المنذري في الترغيب (٣٤/١) رجاله كلهم ثقات رجال الشيخين، غير محمود بن لبيد، فإنه من رجال مسلم وحده. قال الحافظ: وهو صحابي صغير أوجل روايته عن الصحابة، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ١٥٥٥).

كلها لله تعالى، ولا يرتاح قلبك بمحامد الناس ولا تبالي بذمهم.

إن النية الحسنة تحث المسلم على العمل في سبيل الخير، وتوجب عليه الإخلاص والإتقان في كل ما يكلف به، كما أنها تبعده عن كل شر.

وفي النية الطيبة حض للمسلم على العمل في سبيل الخير والإخلاص فيه وإتقانه والإحسان فيه مع إبعاده عن الشر، لشعوره بأن الله تعالى مطلع على سريرته، ومع سلامة الصدر حيث لا حقد ولا حسد، بل هو حسن ظن بالله تعالى.

الحياء

الحياء خلق من أخلاق الإسلام، ومن محاسنه التي حث عليها الأنام ومبانيه العظام، دعا إليه القرآن ودعا إليه المصطفى ﷺ بقوله وفعله، قال ابن علان: الحياء خُلق يبعث على ترك القبيح من الأقوال والأفعال والأخلاق يمتنع صاحبه عن التقصير في حق ذي الحق.

ومظاهر الحياء كثيرة وأنواعه عديدة، فهناك الحياء من الذنب، وهو الشعور الذي يعتري نفس المذنب، فيخجل من ذنبه ويستحي.

والحياء من التقصير وهو أن يفعل الإنسان خيراً ولكنه يراه دون ما ينبغي فيستحي.

وحياء الإكبار وهو استحياء الصغير من الكبير الجليل.

وحياء الاحتشام وهو خجل الإنسان من التبسط في الكلام مع من يهابه.

وحياء الكرم وهو استحياء الرجل الكريم إذا أعطى وأحس بأن ما أعطاه دون ما ينبغي، فهذه بعض مظاهر الحياء.

ولقد كان رسول الله ﷺ مثلاً أعلى في الحياء، حتى قيل في وصفه: إنه كان أشد حياء من العذراء في خدرها[1] وذلك في غير حقوق الله تعالى وتبعات الدعوة ومواطن الحق.

ولقد عُني رسول الله ﷺ بخلق الحياء، وأكد التنويه به والرفع من مكانته، فجعل الحياء وثيق الارتباط بالإيمان، فقال «الحياء شعبة من الإيمان»[2] وقال: «إن الحياء والإيمان قرنا جميعاً في قرن، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر»[3] ورأى النبي ﷺ رجلاً يعاتب آخر بشأن الحياء فقال له: «دعه فإن الحياء من الإيمان»[4].

وكان رسول الله ﷺ قد جعل الحياء من الإيمان، لأن المستحي ينقطع بحيائه عن المعاصي، فصار كالإيمان الذي يحول بين الإنسان وهذه المعاصي، ولعل هذا هو الذي جعل الرسول ﷺ يقول: «استحيوا من الله حق الحياء».

وحينما قال الصحابة رضي الله عنهم: إنا نستحي من الله يا رسول الله والحمد لله. أجابهم قائلاً: ليس ذاك ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٥٦٢)، ومسلم (رقم ٢٣٢٠).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٩)، ومسلم (رقم ٣٥).
(٣) صححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ١٦٠٣).
(٤) أخرجه البخاري (رقم ٢٤)، ومسلم (رقم ٣٦).

الرأس وما وعى، والبطن وما حوى وتذكر الموت والبلى ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا[1] وآثر الآخرة على الأولى وإذا تحقق الحياء عند الإنسان بالصورة التي رسمها هذا الحديث الشريف فإن الحياء يصد صاحبه عن كل قبيح، ويصله بكل جميل، وبهذا يتحقق قول الرسول ﷺ «الحياء لا يأتي إلا بخير»[2].

الحياء أصل لكل خير، قال ابن القيم رحمه الله: وخلق الحياء أفضل الأخلاق وأجلها وأعظمها قدراً وأكثرها نفعاً، بل هو خاصية الإنسانية، فمن لا حياء فيه ليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم وصورتهما الظاهرة، كما أنه ليس معه من الخير شيء، ولولا هذا الخلق لم يُقْرَ الضيف، ولم يُوف بالوعد، ولم تؤد أمانة، ولم تقض لأحدٍ حاجة، ولا تحرى الرجل الجميل فآثره والقبيح فتجنبه، ولا ستر له عورة، ولا امتنع من فاحشة.

وكثير من الناس لولا الحياء الذي فيه لم يؤد شيئاً من الأمور المفترضة عليه، ولم يرع لمخلوق حقّاً، ولم يصل له رحماً ولا بَرَّ له والداً، فإن الباعث على هذه الأفعال: إما ديني وهو رجاء عاقبتها الحميدة، وإما دنيوي

---

(١) حسنه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٩٣٥).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦١١٧)، ومسلم (رقم ٣٧).

عُلويَّ وهو حياء فاعلها من الخلق، فقد تبين أنه لولا الحياء إما من الخالق أو من الخلائق لم يفعلها صاحُبها.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن للإنسان آمرين وزاجرين، آمر وزاجر من جهة الحياء فإذا أطاعه امتنع من فعل كل ما يشتهي، وله آمر وزاجر من جهة الهوى والطبيعة فمن لم يطع آمر الحياء وزاجره، أطاع آمر الهوى والشهوة ولابدَّ.

المعاصي تُذهب الحياء، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من عقوبات المعاصي ذهاب الحياء الذي هو مادة حياة القلب وهو أصل كل خير، وذهابه ذهاب الخير أجمعه، فقد جاء في الحديث الصحيح «الحياء خير كله» والمقصود أن الذنوب تضعف الحياء من العبد حتى ربما انسلخ منه بالكلية، حتى أنه ربما لا يتأثر بعلم الناس بسوء حاله، ولا باطلاعهم عليه، بل كثير منهم يخبر عن حاله وقبيح ما يفعل، والحامل له على ذلك انسلاخه من الحياء، وإذا وصل العبد إلى هذه الحال لم يبق في صلاحه مطمع.

ومن النماذج التطبيقية من حياة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحياء ما روته عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مضطجعاً في بيتي كاشفاً عن فخذيه أو ساقيه، فاستأذن أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فأذن له وهو على تلك الحال، فتحدث ثم استأذن عمر فأذن له وهو كذلك فتحدث، ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسوَّى ثيابه، فلما خرج قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: دخل أبو بكر فلم

تهتش له ولم تباله – أي لم تكترث به وتحتفل لدخوله – ثم دخل عمر فلم تهتش له ولم تباله ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك فقال: «ألا استحي من رجل تستحي منه الملائكة»[1].

والآثار وأقوال العلماء والمفسرين الواردة في الحياء كثيرة، منها:

قول عمر رضي الله عنه: (من قل حياؤه قل وَرَعه، ومن قل ورعه مات قلبه).

وقال عبدالله ابن مسعود: (الإيمان عريان وزينته التقوى ولباسه الحياء).

وعن الشعبي قال: مَر عمر بن الخطاب رضي الله عنه في بعض طرق المدينة فسمع امرأة تقول:

دعتني النفس بعد خروج عمرو ... إلى اللذات فأطلع التلاعا
فقلت لها عجلت فلن تطاعي ... ولو طالت إقامته رباعا
أحاذر إن أطعتك سَب نفسي ... ومخزاه تجللني قناعا

فقال عمر – وأتى بالمرأة – أي شيء منعك؟ قالت: الحياء، وإكرام عرضي فقال رضي الله عنه إن الحياء ليدل على هَناتٍ ذات ألوان، من استحى استخفى، ومن استخفى اتقى، ومن اتقى وفى، وكتب إلى صاحب زوجها فأقفله إليها – أي أرجعه وهو أميره السؤل.

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٤٠١).

ولابد من هذه الأوجه الثلاثة لكي يكمل الحياء ويتحقق كل وجهه التام، لأن من استحيا من الله تعالى ولم يستح من الناس فقد استهان بالناس ومن استحيا من الناس ولم يستح من الله فقد استهان بالله ﷻ، ومن استحيا من الناس ولم يستح من نفسه هانت عليه نفسه، ومن هانت عليه نفسه لم يكن أهلاً لمكارم الأخلاق، وكم يحتاج المسلمون اليوم إلى إحياء هذا الخلق بالالتزام بالكلمة والارتداع عن الوقوع في القبائح أو الشبهات بشيء من الحياء.

الرفق

من أخلاق القرآن ومن هدي سيد الأنام ومن محاسن الإسلام الرفق.

يقول الليث: الرفق لين الجانب، ولطافة الفعل وصاحبه رفيق. واصطلاحاً: هو لين الجانب بالقول والفعل، والأخذ بالأسهل، وهو ضد العنف.

وقال سفيان الثوري لأصحابه: (أتدرون ما الرفق؟ قالوا: قل: يا أبا محمد. قال: أن تضع الأمور في مواضعها، والشدة في موضعها، واللين في موضعه، والسيف في موضعه، والسوط في موضعه) وهذه إشارة إلى أنه لابد من مزج الغلظة باللين والفظاظة بالرفق، كما قيل:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا

مضر كوضع السيف في موضع الندى

فالمحمود وسط بين العنف واللين كما في سائر الأخلاق، ولكن لما كانت الطبائع إلى العنف والجدة أميل كانت الحاجة إلى ترغيبهم في جانب الرفق أكثر، فلذلك كثر ثناء الشرع على جانب الرفق دون العنف.

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: ومن أسمائه الرفيق في أفعاله وشرعه، ومن تأمل ما احتوى عليه شرعه من الرفق وشرع الأحكام شيئاً بعد شيء وجريانها على وجه السداد واليسر ومناسبة العباد وما في خلقه من الحكمة، إذ خلقَ الخلق أطواراً، ونقلهم من حالة إلى أخرى بحكم وأسرار لا تحيط بها العقول، وهو تعالى يحب من عباده أهل الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، والرفق من العبد لا ينافي الحزم، فيكون رفيقاً في أموره متأنياً، ومع ذلك لا يفوت الفرص إذا سنحت، ولا يهملها إذا عَرضتْ.

وقد ورد الرفق في كتاب الله آمراً به مبيناً فضله وآثاره، وذلك في قوله سبحانه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ١٥٩] ويقول سبحانه في شأن دعوة فرعون الذي قال: إنا ربكم الأعلى، وقال: ما علمت لكم من إله غيري. يقول سبحانه آمراً موسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٤].

وها هي سنة المصطفى ﷺ تبين أهمية الرفق وثمراته العاجلة

والآجلة، وذلك فيما روته عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه»[١] وعن عائشة رضي الله عنها أن يهود أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: السَّام عليكم. فقالت عائشة: عليكم ولعنكم الله وغضب الله عليكم. قال: «مهلاً يا عائشة عليك بالرفق وإياك والعنف والفحش» قالت أَوَ لم تسمع ما قالوا قال: «أَوَ لم تسمعي ما قلت رُددت عليهم، فيستجاب لي فيهم ولا يستجاب لهم فيَّ»[٢].

وإذا كان قصدنا الفوز برضى الله سبحانه والنجاة من النار، وهذا مطلب كل مسلم يخشى الله ويخافه، فإن المسلم لينال باللين ما لا يناله بالغلظة والشدة، كما في الحديث «حُرِّم على النار كل هين لين سهل قريب من الناس»[٣].

ويمكن أن تكون تكلف السلوكيات اللينة مدخلاً إلى اكتساب اللين القلبي، فقد شكا رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم قسوة قلبه، فقال له: «إن أردت أن يلين قلبك فأطعم المسكين وامسح رأس اليتيم»[٤] ولما سأل رجل رسول الله

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٩٤).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٤٠١)، ومسلم (رقم ٢١٦٥) بلفظ مختلف.
(٣) صححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٣١٣٥).
(٤) حسنه الألباني في صحيح الجامع (رقم ١٤١٠).

ﷺ عن أفضل الأعمال أوجزها له في صفات ذكر منها: لين الكلام، وبذل الطعام، والهين اللين، يتحسب رفقه على كل صور حياته، التي تقتضي السماحة واللين في التعامل مع المؤمنين حتى يحظى بمحبة الله: «إن الله تعالى يحب الرفق في الأمر كله»[1] كما يحظى بعون الله: (إن الله رفيق يحب الرفق ويرضاه ويعين عليه ما لا يعُين على العنف).

وليس المقصود باللين عدم إنكار المنكر، وإنما اللين في الأسلوب حيث يُغني اللين، ويحقق الغرض، وذلك باستنفاد جميع الوسائل الممكنة التي تضمن الاستجابة ولا تستعدي الآخرين.

ومن صور ذلك قصة الرجل الذي جامع أهله في نهار رمضان، كيف عرض عليه رسول الله ﷺ عدداً من الخيارات — للتكفير عن ذنبه فقال: «له وهل تجد رقبة تعتقها؟» قال: لا — قال: «فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتاليين؟» قال: لا، قال: «فهل تجد إطعام ستين مسكيناً؟» قال: لا، فجاء النبي ﷺ تمر، فأعطاه الرجل وقال له: «خذ هذا فتصدق به» فقال الرجل: على أفقر مني يا رسول الله، والله ما بين لابتيها أهل بيت أفقر من أهل بيتي، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت أنيابه ثم قال: «أطعمه

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٠٢٤)، ومسلم (رقم ٢١٦٥).

أهلك»[1].

والعلاقات الأسرية مع الأهل وذوي الرحم ينبغي أن يسودها الرفق واللين، للمحافظة عل تماسك بنيان الأسرة المسلمة وصفاء أجوائها، كما في الحديث: «إذا أراد الله بأهل بيت خيراً أدخل عليهم الرفق»[2]، وعن أبي الدرداء ﵁ عن النبي ﷺ قال: «من أُعطي حظه من الرفق فقد أُعطي حظه من الخير، ومن حُرم حظه من الرفق حُرم حظه من الخير»[3].

ما أحوج الناس إلى الرفق على اختلاف طبقاتهم ومراتبهم، فالمدرس في مدرسته، والإداري في إدارته، والداعي إلى الله في دعوته، وهكذا تجد ثمار الرفق واضحة جلية، يقول ﷺ: «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فأشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فأرفق به»[4].

قال النووي ﵀: وهذا من أبلغ الزواجر عن المشقة على الناس، ، وأعظم الحث على الرفق بهم، وقد تظاهرت الأحاديث بهذا المعنى.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٩٣٦)، ومسلم (رقم ١١١١).

(٢) صححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٣٠٣).

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٢٠١٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٤) أخرجه مسلم (رقم ١٨٢٨).

وقد وردت الآثار وأقوال العلماء في الرفق كثيرة منها: قال أبو الدرداء: إن من رفقة الرجل رفقته في معيشته. وعن هشام بن عروة عن أبيه قال: مكتوب في الحكمة: (الرفق رأس الحكمة). وقال بعضهم: ما أحسن الإيمان بزينة العلم، وما أحسن العلم بزينة العمل، وما أحسن العمل بزينة الرفق، وما أضيف شيء إلى شيء مثل حلم إلى علم.

وقد ذكر العلماء رحمهم الله تعالى فوائد كثيرة للرفق منها: أنه طريق موصل إلى الجنة، وأنه دليل كمال الإيمان وحسن الإسلام، وأنه يثمر محبة الله ومحبة الناس، وأنه عنوان سعادة العبد في الدارين، وأنه دليل على صلاح العبد وحسن خلقه، وأنه ينشئ مجتمعاً سالماً من الغل والعنف، فما أحوجنا إلى الفقه في ديننا والعمل بما فيه لنحظى بخيري الدنيا والآخرة.

الرفق

من محاسن الإسلام الرفق، عن جرير بن عبد الله ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من يحرم الرفق يحرم الخير كله»(١)، هذا الحديث يدل على أن الرفق ينتظم به خيري الدنيا والآخرة، ولذلك فالله تعالى يعطي على الرفق ما لا يعطي على غيره، فمن حُرِم الرفق حُرِم الخير العميم، فالرفق والأناة بالناس فيه أجر عظيم وخير كثير، فعن عائشة ﵂ أن النبي ﷺ قال: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على ما سواه»(٢)، يدل الحديث على منزلة الرفق بين مكارم الأخلاق، وما يستحقه صاحب الرفق من الثناء الجميل والأجر الجزيل من الله ﷻ، ويبين الحديث قبح العنف والشدة والغلظة، حيث إن صاحبها محروم من الخير لكونه لم يفعله أصلاً، وإن فعله لا يوفق فيه، ومن هنا كان الرفق يزين كل فعل، والعنف يشين كل فعل، كما جاء في الحديث

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٩٢).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٩٣).

الآخر عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه»[1]، فدل هذا الحديث على ضرورة التحلي بالرفق، فإنه يزين المرء ويجمله في أعين الناس وعند الله تعالى، وهو يدعو إلى البعد عن العنف والشدة والغلظة، لأنها تشين صاحبها، وتلحق به العيب عند الناس والإثم عند الله تعالى، والنماذج في ذلك كثيرة من خلق المصطفى صلى الله عليه وسلم ورفقه بالجاهل وحسن تعليمه وتوجيهه، مما كان له الأثر الكبير في إصلاح النفوس والأخلاق وغير ذلك.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بال أعرابي في المسجد فقام الناس إليه ليقعوا فيه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «دعوه وأهريقوا على بوله سجلا – من ماء – أو ذنوبا من ماء، فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»[2]، فالحديث يدل على أن الجهل يصاحبه جفاء وعدم حكمة في التصرف، وهذا هو حال كثير من جهلة الأعراب، الذين لا يعرفون أحكام الشرع، ومنهم هذا الأعرابي الذي جاء من البادية فتحرك البول في مجراه فأراقه حيث هو، وكأنه في الصحراء التي يعيش فيها دون مراعاة منه لجانب النجاسة وحرمة الموضع وجلالة المجلس الذي هو فيه، ومن هنا تحرك الصحابة رضي الله عنهم لمنعه بعنف

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٩٤).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٢٠).

تمسكاً منهم بالعموم دون النظر لحاله، وما يترتب عليه النهي عن منكر أكبر، لكن الرسول ﷺ وهو الحكيم في دعوته الرحيم في أمته وجههم توجيهاً حكيماً لكيفية التعامل مع الحدث، وهذا النهج يكون شاملاً له ولغيره في مثل هذه المواطن، وبيَّن ﷺ أن نقدم المصلحة الراجحة وهو دفع أعظم المفسدتين باحتمال أيسرهما، وتحصيل أعظم المصلحتين بترك أيسرهما، ولذلك نهاهم الرسول ﷺ عن الوقوع به، وأمرهم بالكف عنه، وقال لهم: «لا تزرموه» أي لا تقطعوا بوله، فإنهم لو فعلوا ذلك لهرب الأعرابي، ونالت نجاسة بوله مساحة أكثر من أرض المسجد، فعندئذ تكون قد حدثت مفسدة أعظم مما تلبس به الأعرابي، كما وضَّح لنا ﷺ أن المبادرة إلى تغيير المنكر وإزالة المفاسد لا تكون إلا عند زوال المانع، ولذلك أمرهم الرسول ﷺ عند فراغ الأعرابي من بوله بصب الماء عليه، كما دلنا ﷺ بكيفية التعامل مع الأحداث متى كان صاحبها جاهلاً وكيف أننا نأخذ باليسر وعدم كهره وقهره وزجره، لأن ذلك يجعله يقبل الحق ويُقدم على تعلمه.

الإسلام دين اليسر والسماحة، وقد أمر المصطفى ﷺ بالأخذ باليسر واجتناب الشدة، واستحباب البشارة بالخير والبدء به في الدعوة، ووجوب الرفق، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة

وشيء من الدلجة»[1]، وفي رواية: «سددوا وقاربوا واغدوا وروحوا، وشيء من الدلجة، القصد القصد تبلغوا»[2] ومعناه: استعينوا على طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ بالأعمال في وقت نشاطكم، وفراغ قلوبكم بحيث تستلذون العبادة ولا تسأمون، وتبلغون مقصودكم، كما أن المسافر الحاذق يسير في هذه الأوقات ويستريح هو ودابته فيصل إلى المقصود بغير تعب، والحديث يدل على أن الإسلام دين اليسر ورفع الحرج، وهذا من خصائص الأمة الإسلامية المرحومة.

ومن محاسن الإسلام فقد بعث الله محمداً ﷺ بخير الأديان، وبعثه بالحنيفية السمحة، كما يدل الحديث على أن كل متنطع في الدين ينقطع، لأن الإفراط يؤدي إلى الملل في التطوع، يعقبها الفتور أو إلى ترك الأفضل وإخراج الفرائض عن أوقاتها، والحديث يدل على استحباب الأخذ بالرخص الشرعية في وقتها.

ومن محاسن الإسلام أن المصطفى ﷺ يأمر العلماء ودعاة الإسلام بالتيسير وينهاهم عن التعسير، فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «يسروا

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٩).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٤٦٣).

ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا»[1].

يدل الحديث على أنه يجب على معلم الناس أن يحببهم في الدين ويرغبهم في الخير، فيجب على العلماء والدعاة إلى الله أن ينظروا بحكمة إلى كيفية تبليغ دعوة الإسلام إلى الناس بأن يكونوا ميسرين ومبشرين لا معسرين ولا منفرين، لأن التيسير والتبشير يولد السرور والإقبال والاطمئنان للدعاة ولما يعرضونه على الناس من خير بخلاف التنفير والتعسير، فإنه يولد النفور والإدبار والتشكيك في كلام الدعاة ويبعد المدعو عن الخير.

ومن محاسن الإسلام الأخذ بأيسر الأمور واجتناب العسر، وهو منهج المصطفى ﷺ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما خُير رسول الله ﷺ بين أمرين قط إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله تعالى. متفق عليه، فالحديث يدل على أن الإسلام دين يقوم على اليسر ورفع الحرج والأخذ بالأيسر في كافة الأمور الدينية والدنيوية، والمسلم يبعد كل البعد عن المعصية والإثم ولو كانت توافق هوى النفس، لأن الخير كل الخير في البر، والمسلم يعفو ويصفح عن الآخرين وعدوانهم عليه، ومتى كان

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٩)، ومسلم (رقم ١٧٣٤).

العدوان على دين الله وانتهاك حرماته نهض ينافح ويجالد عن دينه وعقيدته، لأنه متى انتهكت محارم الله فلا يسع أحد السكوت ما دام في وسعه ذلك، كما يدل على سماحة رسول الله ﷺ وتجاوزه عن كل من أساء إليه في شخصه، وذلك من عظيم رحمته بأمته.

الرفق بالدواب

من محاسن الإسلام الرفق بالدواب ومراعاة مصلحتها عند السفر عليها. وقد ذكر المصطفى ﷺ نماذج من الرفق بالحيوان، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سافرتم في الخصب فأعطوا الإبل حظها من الأرض، وإذا سافرتم في السَّنَةِ فأسرعوا عليها السير، وإذا عرستم فاجتنبوا الطريق فإنها مأوى الهوام بالليل»[1].

معنى قوله ﷺ: «أعطوا الإبل حظها من الأرض» — أي أرفقوا بها في السير، لترعى في حال سيرها. وقوله: نقيها: وهو المخ، أي أسرعوا بها حتى تصلوا المقصد قبل أن يذهب مخها من ضنك السير. والتعريس: هو النزول في الليل.

إذا كان المصطفى ﷺ رحمة للعالمين وعرف بشفقته ورحمته بالناس، فإن الحيوانات والدواب كانت محل عنايته ورعايته ﷺ، يوجه أصحابها إلى رعايتها وحفظها والاعتناء بها وإعطائها حقوقها من المآكل والمشارب، وعدم

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٩٢٦).

المشقة عليها عند السير، وعدم تحميلها ما لا تطيق. والحديث يدل على أن الإسلام يحض على الرفق بالحيوان، فهذا الرسول ﷺ يعمل على تعليم المسافر كيفية المسير، وأنه إذا سار في الخصب أي متى كثر المرعى والعشب عند نزول الأمطار، فليترك الدابة تأكل وترعى لتقوى. وإذا سار في الجدب - أي عند انعدام الأمطار وخلو الأرض من مراعي الحيوانات - أسرع حتى يصل إلى مقصده قبل أن تتعب من ضنك السير.

كما يدل الحديث على الحكمة النبوية، حيث تضع كل شيء في موضعه بتوجيه من العناية الإلهية، ويدل الحديث على النهي عن إيذاء الآخرين في المبيت في طريقهم ومنعهم من السير، ودفع الضرر عن المسافر وذلك بإخباره عن مسار الهوام والدواب في الليل.

ومن هدى المصطفى ﷺ الأمر بإعطاء الحيوان حقوقه ورعايته ما رواه سهل بن عمرو، وقيل سهل بن الربيع بن عمرو الأنصاري المعروف بابن الحنظلية، وهو من أهل بيعة الرضوان رضي الله عنه قال: مر رسول الله ﷺ ببعير قد لحق ظهره ببطنه، فقال: «اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة، فاركبوها صالحة وكلوها صالحة»[1].

---

(١) أخرجه أحمد (١٨١/٤)، وأبو داود (٣٥٤٨)، وابن خزيمة (رقم ٢٥٤٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ١٠٤).

الحديث يدل على وجوب الرفق بالحيوان ووجوب الإحسان إليه، حتى يتمكن صاحبه من استخدامه بوجه لا يعود عليه بالظلم. وإذا كان هناك من الدواب من لا تصلح للركوب إما لضعفها أو مرضها أو لأنها لم تخلق لذلك، فإنه ﷺ وجه بالإحسان إليها وأداء حقها حتى تصلح لما خلقت له، وتقدر على القيام بما هيئت له. وإن كان الحيوان مما يؤكل فالإحسان إليه بإصلاحه للأكل وبما يزيل عنه الضعف والضرر، كما يؤخذ من الحديث وجوب العناية بكل مركوب من السيارات ونحوها، فيجب تهيئتها وحفظها مما يسبب تلفها أو تلف من يركبها عند عدم الاعتناء بها، وتفقدها وإصلاح ما يحتاج لإصلاحه.

لقد أمر المصطفى ﷺ بإنصاف الحيوان ممن قصر في حقه، فعن أبي جعفر عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قال: أردفني رسول الله ﷺ ذات يوم خلفه وأسر إليَّ حديثاً لا أحدث به أحداً من الناس، وكان أحب ما استتر به رسول الله ﷺ لحاجته هدف أو حائش نخل يعني حائط نخل رواه مسلم هكذا مختصراً، وزاد فيه البرقاني بإسناد مسلم بعد قوله: حائط نخل، فدخل حائطاً لرجل من الأنصار، فإذا فيه جمل، فلما رأى رسول الله ﷺ جرجر وذرفت عيناه، فأتاه النبي ﷺ فمسح سراته – أي سنامه ودفراه فسكن، فقال: «من رب هذا الجمل؟» لمن هذا الجمل. فجاء فتى من الأنصار فقال:

هذا لي يا رسول الله، فقال: «أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها؟ فإنه شكى إليَّ أنك تجيعه وتدئبه»[1]. قوله ﷺ: دفراه: المقصود الموضع الذي يعرف من البعير خلف الأذن. وقوله: تدئبه: أي تتعبه.

فالحديث يدل على جواز الإرداف على الدابة، وقد كان رسول الله ﷺ من تواضعه وحبه لأصحابه وأبنائهم لا يتركهم يسيرون وهو راكب متى كانت الدابة تطيق الإرداف، فإن لم تطقه تعاقب معهم في الركوب، وقد كان رسول الله ﷺ يخص بعض أصحابه بسر دون غيرهم، متى علم محافظتهم على هذا السر وعدم إشاعته، ولكن ينبغي أن يعلم أن هذا يكون خاصاً به، ولا ينبني عليه حكم شرعي، لأن ما كان كذلك لا يجوز إخفاؤه وعدم كشفه. وكان الرسول ﷺ حريصاً على تعليم مرافقيه الأحكام الشرعية المناسبة لهم في السفر والحضر، ويدل الحديث على المبالغة في ستر العورة عند قضاء الحاجة والبعد عن أعين الناس وسمعهم، وكان يريهم بعض معجزاته ﷺ، ومن معجزاته ﷺ شكوى الجمل له، ويدل الحديث على شفقة الرسول ﷺ بالحيوان وإنصافه ممن ظلمه، وإيجاب أداء حقه على صاحبه، وبيان أن عدم إعطاء الدابة حقها من الطعام وإتعابه في العمل

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٢٥٤٩).

ظلـم لـه، كمـا بـين ﷺ أن للبهـائم شـعوراً تحـس بـه الآلام مـن الجـوع ونحـوه، كمـا بـين الحـديث للمـسلمين قيـام الـشرع بالعـدل والإنـصاف في كل ذي روح.

الرفق في المعاملة والعفو عند المقدرة

للإسلام محاسن كثيرة وفي كل صورة من الصور التي تمر بحياة الناس في التعامل وغيرها. ومن محاسن الإسلام الرفق في المعاملة والعفو عند المقدرة.

عرف اليهود بتحريف الكلم عن مواضعه ويتمنون الموت لغيرهم والحياة الطويلة لهم بقوله سبحانه: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البقرة: ٩٦]، والغمز واللمز والسخرية طبيعة فطروا عليها نحو غيرهم، لأنهم فيما زعموه ويعتقدونه أنه ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥]، ولهذا كانوا يواجهون حلم المسلمين وحكمتهم وتسامحهم معهم بالألفاظ المحرمة التي هي معاريض عندهم. وفي الحقيقة إنما تعني سخرية واستهزاء، بل يتمنوا الشر للمسلمين، وكانوا إذا وجدوا رسول الله ﷺ وغيره من المسلمين وأرادوا منهم الانتظار استعملوا لفظاً غير واضح، يحتمل الحق والباطل، ويقصدون منه الباطل، فيقولون: «راعنا»، ويريدون بذلك التورية لما يقصدونه من التنقيص، حيث يريدون به الرعونة؛ والراعن من القول: السخرية منه.

فلم يرد القرآن الكريم أمر المؤمنين باجتناب هذا القول وتركه فقط، بل وجههم سبحانه إلى ما ينبغي للمسلم فعله، فقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ [البقرة: ١٠٤].

وكان اليهود إذا دخلوا على النبي ﷺ سلموا عليه واستعملوا المعاريض المحرفة، والمراد بها السوء في لغتهم، وكانوا يقولون: السام عليكم. ليتوهم من يسمع ذلك أنهم قصدوا السلام، وإنما يقصدون الدعاء على المسلم بالموت، وقد دخلوا على رسول الله ﷺ فقالوا له لما جبلوا عليه من الحسد ومساوئ الأخلاق، كما يقولونه لغيره، ففطن النبي ﷺ له، فلم يغضب ولم يزد على أن قال: «وعليكم»، وسمعت عائشة رضي الله عنها وفهمت مرادهم، فغضبت رضي الله عنها وانتصفت منهم، فقالت: «عليكم السام واللعنة» وهنا تتجلى سماحة الإسلام على لسان رسول الله ﷺ المبلغ عن ربه، فيأمر عائشة بالكف عن الغضب والعدوان، ويأمرها باللين والرفق فتقول عائشة رضي الله عنها ظنًّا منها أنه لم يفهم مرادهم فيما قالوه له، فقال لها: «ألم أقل لهم: وعليكم»(١) وبيَّن لها أن عليها الرفق، وأن دعاءنا مستجاب فيهم بإذن

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٠٢٤)، ومسلم (رقم ٢١٦٥).

الله. ودعاؤهم ليس مستجاباً فينا. وبين ﷺ للمسلمين قاعدة الرد على أهل الكتاب وغيرهم من الكافرين، أنهم إذا سلموا أن نرد عليهم بقولنا: «وعليكم» فإن أرادوا الحق فقد ردينا بأحسن، وإن أرادوا غير ذلك رد شرهم عليهم ولا ينالنا منه شيء.

فهذه المواقف المشرفة وغيرها عن محاسن الإسلام ويسره، وهي تنفي على من قصر فهمه وتصور أن حسن التعامل مع المخالف فيه كلمة في البراء أو أن ذلك عيب ونقص، وإنما هو تمسك بمحاسن الإسلام وتعاليمه السمحة؛ حتى تقوم الحجة على الأعداء.

ومن محاسن الإسلام عدم الاعتداء على المخالف متى كان معاهداً أو مستأمناً، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة»(1) فدل الحديث على ما يأتي:

١ – تقرر في قواعد الشرع حرمة قتل المعاهد والمستأمن بغير جرم.

٢ – من محاسن الإسلام حماية النفس البشرية والأمن والقضاء على مظاهر القتل والاعتداء على الناس من دون حق.

ومن محاسن الإسلام ما ذكره الشيخ عبد الرحمن السعدي بقوله: (إن

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣١٦٦).

دين الإسلام دين رحمة وبركة وإحسان وحث على منفعة نوع الإنسان). فما اشتمل عليه هذا الدين من الرحمة وحسن المعاملة والدعوة إلى الإحسان والنهي عن كل ما يضاد ذلك هو الذي صيَّره نوراً وضياء بين ظلمات الظلم والبغي وسوء المعاملة وانتهاك الحرمات. وهو الذي جذب قلوب من كانوا قبل معرفته ألد أعدائه حتى استظلوا بظله الظليل، وهو الذي عطف وحنا على أهله حتى صارت الرحمة والعفو والإحسان يتدفق من قلوبهم على أقوالهم وأعمالهم، وتخطاهم إلى أعدائه حتى صاروا من أعظم أوليائه، فمنهم من دخل فيه بحسن بصيرة وقوة وجدان، ومنهم من خضع له ورغب في أحكامه وفضلها على أحكام أهل دينه، لما فيها من العدل والرحمة.

الوسطية

إن من محاسن الإسلام تميزه بالوسطية، فوسطية الإسلام من أبرز خصائصه، وهي بالتبع من أبرز خصائص أمة الاستجابة، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، ولذلك نجد الإسلام يقدم المنهج الوسط في كل شأن من شئون الحياة، ولا يكتفي بهذا، بل يحذر من المصير إلى أحد الانحرافين: الغلو أو التقصير. يقول تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ [الفاتحة: ٦ –٧].

وهذه الوسطية التي تميز الإسلام عما سواه من الأديان هي العدل، فإن معنى قوله ﷻ: ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] أي عدولاً خياراً.

وبهذا التفسير جاء القرآن والسنة وبه قال أهل التأويل وأهل اللغة حتى صار اتفاقاً، فأما تفسير الآية من القرآن فتبين فيما يلي أن هذا المعنى هو المتسق مع بقية الآية.

فقد كانت الوسطية علة لتكليف الأمة بالشهادة على الأمم، لتكونوا شهداء على الناس، والشهادة لا تقوم إلا بالعدل، ولا تقبل إلا من عدلٍ، وقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

والقرآن يفسر بعضه بعضاً، بين وصف بالخيرية ووصفها بالوسطية تلازم، إذ إن الوسط في لغة العرب الخيار.

وأما السنة فقد جاء تفسير وسطية الأمة بعدالتها صريحاً، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يجاء بنوح يوم القيامة فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم يا رب. فتسأل أمته. هل بلغكم؟ فيقولون: ما جاءنا من نذير. فيقال: من شهودك؟ فيقول: محمد وأمته. فيجاء بكم فتشهدون، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] قال عدلاً: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]»[1].

وهذا التفسير هو الذي قال به علماء التفسير من السلف، فبه قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة رحمهم الله وغيرهم من علماء التفسير المتأخرين، وهو الجاري على كلام العرب، حيث إن معنى

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٣٣٩).

الوسط في كلامهم العدل.

قال الطبري رحمه الله: وأما الوسط فإنه في كلام العرب الخيار، يقال منه فلان وسط الحسب في قومه أي متوسط الحسب، إذا أرادوا بذلك الرفعة في حسبه. والوسط: العدل، وذلك معنى الخيار، لأن خيار الناس عدولهم، ويدل على ذلك ما ورد عن أبي بكر رضي الله عنه في وصف المهاجرين يوم سقيفة بني ساعدة (هم أوسط العرب داراً) يقصد بذلك بيان خيرتهم.

قال الطبري رحمه الله: وأرى أن الله تعالى ذكره إنما وصفهم بأنهم وسط لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلوٍ فيه غلو النصارى الذين غلوا بالترهب، وقولهم في عيسى ما قالوا فيه. ولا هم أهل تقصير فيه تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله، وقتلوا أنبياءهم، وكذبوا على ربهم، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها، والعدل يأتي في الغالب وسطاً بين طرفين ذميمين.

قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: (اتقوا الله يا معشر القراء خذوا طريق من كان قبلكم، والله إن سبقتم لقد سبقتم سبقاً بعيداً، ولئن تركتموه يميناً وشمالاً لقد ضللتم ضلالاً بعيداً)، وكتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله كتاباً إلى عامل من عماله فقال بعد أن أوصاه بلزوم طريق من سلف فما دونهم مقصر، وما فوقهم محسر؟ لقد قصر دونهم أقوام فجفوا وطمع عنهم قوم

آخرون فغلوا، وإنهم بين ذلك لعلى هدى مستقيمٍ.

قال ابن القيم رحمه الله: ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان، إما إلى تفريط وإضاعة، وإما إلى إفراط وغلو، ودين الله وسط بين الجافي عنه والغالي فيه: كالوادي بين جبلين، والهدى بين ضلالتين، والوسط بين طرفين ذميمين، فكما أن الجافي عن الأمر مضيع له، فالغالي فيه مضيع له، هذا بتقصيره عن الحد، وهذا بتجاوزه الحد، وبهذا يتبين أن الوسطية ميزة تميز بها هذا الدين، وتميزت بها شرائعه، فالدين وأهله براء من الانحراف سواء الجانح إلى الغلو أو الجانح إلى التقصير.

وصور هذه الوسطية ومظاهره في الدين كثيرة، إذ هي شاملة لجميع جوانب الحياة، فكل أمر من أوامر الإسلام جاء على وفق العدل، ومثال ذلك أن مواقف الناس تتأرجح فيما يتعلق بالمادة بين موقفين متطرفين:

فقد زاغت طائفة فرأت أن المال هو الهدف الأسمى والغاية القصوى، وهم اليهود الذين وصفهم الله سبحانه بقوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [البقرة: ٩٦].

وزاغت طائفة أخرى وهم النصارى الذين حرموا أنفسهم حقها من الحياة فابتدعوا الرهبانية، قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧].

وأمام هذين الانحرافيين جاء الإسلام بالعدل، وأعطى كل ذي حقٍّ حقه، فقال: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [القصص: ٧٧] وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ﴾ [الأعراف: ٣٢].

ونهى عن الإفراط في حب المادة، فقال سبحانه: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: ٢٠].

كما نهى رسول الله ﷺ عن التشديد على النفس والترهب كما يفعله بعض النصارى فقال: «لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم، فإن قوماً شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع والديار، «ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم»[1].

والتشديد على النفس الذين هو ضرب من ضروب الغلو نهى عنه الإسلام بينت السنة أن عاقبة صاحبه إلى الانقطاع، وأنه ما من مشاد لهذا

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٤٩٠٤).

الذين إلا ويُغلب وينقطع، فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وابشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة»(١) وفي لفظ: «والقصد القصد تبلغوا».

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: والمعنى لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيغلب، وحتى لا يقع ذلك جاء ختم الحديث أمراً بالتسديد والمقاربة.

والتسديد: العمل بالسداد، وهو القصد والتوسط في العبادة، فلا يقصر فيما أمر به، ولا يتحمل منها ما لا يطيقه، وبهذا يتبين أن أصل الدين مخالف للغلو، وأن من محاسن الإسلام أنه دين الوسطية والاعتدال، وهذه ميزته عن سائر الأديان.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٩)، ومسلم (رقم ٢٨١٦).

الأمانة

الأمانة خلق من أخلاق الإسلام ومن محاسنه العظام، دعا القرآن الكريم للتخلق بها، وهي سمة من سمات الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين، ووردت الأحاديث تحث على الالتزام بها والتخلق بها.

ولقد فرض الإسلام على المسلمين الأخذ بخلق الأمانة، وحرَّم عليهم أن يسلكوا مسلك الخيانة، فمن كان أميناً كان مطيعاً لربه في إسلامه، ومن كان خائناً كان عاصياً لربه في إسلامه، وربما وصل إلى حالة كان فيها مجروح الإسلام والإيمان. فعن أبي هريرة ﵁ قال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن» قيل: من يا رسول الله؟ قال: «لا يأمن جاره بوائقه»(١) بوائقه أي غوائله وخياناته.

وعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم»(٢).

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٠١٦).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٢٦٢٧)، والنسائي (رقم ٥٠١٠)، وأحمد (٢/٣٧٩)، =

وعن أنس ﷺ قال: قلما حظينا رسول الله ﷺ إلا قال: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»[1] فربط رسول الله ﷺ في هذه الأحاديث الأمانة وكون الإنسان مأمون الجانب بالإيمان، وجعل عدم الأمانة مؤثرة في صحة الإيمان.

وعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «الخازن الأمين الذي يؤدى ما أمر به طيبة نفسه أحد المتصدقين»[2].

حين يعم التعامل بالأمانة يؤدي الذي اؤتمن أمانته، سواءً اؤتمن على قنطار أو دينار، لأن الله سبحانه أمر بأداء الأمانات إلى أهلها، ونهى عن خيانة الله ورسوله وخيانة الأمانات.

وجعل من صفات المفلحين أنهم يرعون عهودهم وأماناتهم، والنفوس البشرية بفطرتها تميل إلى الناصح الأمين، وتثق بالقوي الأمين، حتى غير المسلمين يؤثرون الأمين، فقد روي في قصة أهل نجران لما وافقوا على دفع

=والحاكم (١/ ١٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٦٧١٠).
وشطره الأول أخرجه البخاري (رقم ١٠)، ومسلم (رقم ٤٠).

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٣٥)، وأبو يعلى (رقم ٢٨٦٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٧١٧٩).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٢٦٠)، ومسلم (رقم ١٠٢٣).

الجزية: أنهم قالوا: إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلاً أميناً، ولا تبعث منا إلا أميناً. فقال: «لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين»(١) وأرسل معهم أبا عبيدة. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة»(٢).

والنبي صلى الله عليه وسلم الحريص على أمته الرؤوف بهم يحذر من يرى فيه ضعفاً عن أداء الأمانة، فيقول صلى الله عليه وسلم فيما يرويه أبو ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على منكبي، ثم قال: «يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها»(٣).

ومن الصور العملية للأمانة أن تنصح من استشارك، وأن تصدق من وثق برأيك، فقد جاء في الحديث «المستشار مؤتمن»(٤)، ومن أشار على أخيه بأمر يعلم أن الرشد في غيره فقد خانه، وماذا يكون قد بقي فيه من الخير من

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٣٨٠)، ومسلم (رقم ٢٤٢٠).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٣٨٢)، ومسلم (رقم ٢٤١٩).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ١٨٢٥).

(٤) أخرجه أبو داود (رقم ٥١٢٨)، والترمذي (رقم ٢٨٢٢)، وابن ماجه (رقم ٣٧٤٥)، وصححه الألباني (رقم ٦٧٠٠).

أشار على أخيه بما لا ينفعه، بل ربما قد يضره.

ومن أخطر الأمانات شأناً حفظ أسرار الناس وستر عوراتهم وكتمان أحاديث مجالسهم، فقد ورد في الحديث «المجالس بالأمانة»[1] وإن لم يوص المتحدث بكتمان حديثه الخاص إليك لم يكن لك أن تشيعه إلا بإذنه وعلمه، لقوله ﷺ إذا حدث رجل رجلاً بحديث ثم التفت فهو أمانة.

ومن الأمانة في العمل إتقانه وكتمان أسراره، ولذلك ترجم البخاري رحمه الله في كتاب الأحكام «باب يستحب للكاتب أن يكون أميناً عاقلاً مشيراً بذلك إلى قول أبي بكر لزيد بن ثابت رضي الله عنهما حين أراد أن يستعمله: «إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك»[2].

وعن رافع بن خديج رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «العامل على الصدقة بالحق كالغازي في سبيل الله حتى يرجع إلى أهله»[3].

وعن أبي زرارة عدي بن عميرة الكندي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله

---

(١) أخرجه أحمد (٣/٣٤٢)، وأبو داود (رقم ٤٨٦٩)، والخطيب البغدادي (١١/١٦٩)، وحسنه الألباني في صحيح (رقم ٦٦٧٨).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٧١٩١).

(٣) أخرجه أحمد (٤/١٤٣)، وأبو داود (رقم ٢٩٣٦)، والترمذي (رقم ٦٤٥)، والحاكم (١/٤٠٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٤١١٧).

ﷺ يقول: «من استعملناه منكم على عمل فكتمنا مخيطاً فما فوقه كان غلولاً، يأتي به يوم القيامة» قال: فقام إليه رجل أسود من الأنصار كأني أنظر إليه، فقال يا رسول الله اقبل عني عملك قال: «ومالك؟» قال: سمعتك تقول كذا وكذا. قال: «وأنا أقوله الآن: من استعملناه منكم على عمل فليجيء بقليله وكثيره، فما أوتي منه أخذ، وما نهي عنه انتهى»[1].

هناك كثير من الناس إذا سمعوا كلمة الأمانة تصوروها مقصورة على الوديعة التي تودع عند الناس: كالنقود والحلي وما شابه ذلك، مع أن مدلول الأمانة يشمل ألواناً كثيرة:

فأمانة العبد مع ربه تتحقق بحفظ ما أمر الله بحفظه، وبأداء واجباته والابتعاد عن منهياته.

وأمانة العلم تتحقق بنشره وتفهيمه للناس.

وأمانة الإنسان مع الناس تتحقق برد ودائعهم إليهم، وحفظ حقوقهم، وصيانة أعراضهم، وحفظ أسرارهم، والبعد عن غشهم والاعتداء عليهم.

وأمانة الحكام مع المحكومين تتحقق بالعدل بينهم، والحرص على مصالحهم، والسهر من أجلهم.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٨٣٣).

وأمانة الإنسان مع نفسه تتحقق باختياره الأصلح له في الدين والدنيا.

وأمانة الحياة الزوجية تتحقق بكتمان أسرارها وعدم الحديث عن دخائلها، يقول ﷺ: «إن شر الناس عند الله منزلة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرها»[1].

والأمانة في الكيل والميزان تتحقق بالضبط والعدل والابتعاد عن النقص والزيادة، وبذلك ينجو الإنسان من تهديد القرآن الشديد، وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: ١ – ٦].

للتحلي بخلق الأمانة فوائد ومحاسن منها: أن الأمانة من كمال الإيمان وحسن الإسلام، ومنها أنها يقوم عليها أمر السموات والأرض، ومنها أنها محور الدين وامتحان رب العالمين، الأمين يحبه الله ويحبه الناس، وبالأمانة يحفظ الدين والأعراض والأجسام والأرواح والمعارف والعلوم والولاية والوصاية والشهادة والقضاء والكتابة، والمجتمع الذي تفشو فيه الأمانة مجتمع

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٤٣٧). ولكن الحديث ضعفه الألباني في ضعيف الجامع (رقم ٢٠٠٧).

خير وبركة.

والأمانة من أعظم الصفات الخلقية التي وصف الله بها عباده المؤمنين بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المؤمنون: ٨]، و[المعارج: ٣٢].

خلق الأمانة

الإسلام يأمر بمحاسن الأخلاق وينهى عن سفسافها، ومن محاسن الإسلام خلق الأمانة، والأمانة مصدر أمنه يأمنه أمانة، أي وثق به واطمأن إليه ولم يخفه، والأمين هو الثقة المؤتمن.

والأمانة اصطلاحاً كما قال الكفوي: هي كل ما افترض الله على العباد فهو أمانة: كالصلاة والزكاة والصيام وأداء الدين، وأوكدها الودائع، وأوكد الودائع كتم الأسرار. وقال في موضع آخر: كل ما يؤتمن عليه من أموال وحرم وأسرار فهو أمانة.

وقد ظهر من تعريف الأمانة أنها تشتمل على ثلاثة عناصر: الأول: عفة الأمين عما ليس له به حق.

الثاني: تأدية الأمين ما يجب عليه من حق لغيره.

الثالث: اهتمام الأمين بحفظ ما استؤمن عليه وعدم التفريط بها والتهاون بشأنها أي بالأمانة.

ويقول القرطبي رحمه الله: والأمانة تعم جميع وظائف الدين على

الصحيح من الأقوال، كما يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ۝٨﴾ [المؤمنون: ٨].

والأمانة والعهد يجمع كل ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه قولاً وفعلاً، وهذا يعم معاشرة الناس والمواعيد وغير ذلك، وغاية ذلك حفظه والقيام به.

والمجالات التي تدخل فيها الأمانة كثيرة منها الدين والأعراض والأموال والأجسام والأرواح والمعارف والعلوم والولايات والوصاية والشهادة والقضاء والكتابة ونقل الحديث والأسرار والرسالات والسمع والبصر وسائر الحواس، ولكل واحدة من التفصيل ما يناسبها.

الأمانة في القرآن ذكر ابن الجوزي رحمه الله نقلاً عن بعض المفسرين أن الأمانة في القرآن على ثلاثة أوجه:

أحدها: الفرائض، ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾ [الأنفال: ٢٧].

الثاني: الوديعة، ومنه قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

الثالث: العفة والصيانة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ

﴿ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

ولقد وردت الآيات الكثيرة في كتاب الله سبحانه، كما ورد الحث على أداء الأمانات من ودائع ونحوها، قوله تعالى: ﴿۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾ [البقرة: ٢٨٣]، وقوله سبحانه: ﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ﴾ [آل عمران: ٧٥]، وقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾ [يوسف: ٥٤]، وقال سبحانه: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [يوسف: ٦٤]، كما وردت الآيات في الحث على أداء الأمانات في الفرائض والتكاليف، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢].

كما وردت الآيات في الحث على أداء ما يؤمن عليه الإنسان من

الأغراض والعفة والصيانة والتكاليف، قال سبحانه: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾ [النمل: ٣٩]، وقال سبحانه: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص: ٢٦].

ولقد أشار القرآن الكريم أكثر من مرة أن رسل الله عليهم الصلاة والسلام يتصفون بصفة الأمانة، ففي سورة الشعراء نرى أن نوحاً عليه السلام قد قال لقومه: ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ [الشعراء: ١٠٧]، أي إني رسول من الله إليكم، أمين فيما بعثني به، أبلغكم رسالات ربي، ولا أزيد فيها ولا أنقص منها، ونوح هو أول رسول أرسله الله تعالى إلى أهل الأرض بعد ما عبد الناس الأصنام وكذلك هود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ [الشعراء: ١٠٧] في سورة الشعراء، وأشار القرآن إلى أمانة موسى منذ شبابه، فجاءت سورة القصص على لسان ابنة شعيب: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص: ٢٦].

كما أشار القرآن إلى أمانة يوسف حيث جاء فيه على لسان العزيز ليوسف: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤]، ولقد كان محمد ﷺ مثلاً أعلى في فضيلة الأمانة، حتى لقبه الناس منذ فتوته بلقب: الصادق

الأمين، ومن الأدلة على ذلك أنهم جعلوه حكماً بينهم عند النزاع على وضع الحجر الأسود، وقالوا عندما رأوه: هذا هو الأمين، لقد رضيناه حكماً بيننا.

ووصف الله سبحانه المؤمنين فقال فيما وصفهم به: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ۝٨ ﴾ [المؤمنون: ٨]، أي إذا أؤتمنوا لم يخونوا الأمانة، بل أدوها إلى أهلها مهما كانت، كما أنهم يحفظون أماناتهم في دينهم واعتقادهم وقولهم وعملهم وسلوكهم مع الناس.

ولقد جاءت السنة النبوية المطهرة موضحةً ومبينةً ومشيدةً بفضيلة الأمانة ورفعت من شأنها، فقال ﷺ مخاطباً كل مسلم قائلاً له «أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظ إمانة، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعفة في طعمة»[(١)].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ خطب في حجة الوداع فكان مما قال: «اتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، وإن لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه»[(٢)].

---

(١) أخرجه أحمد (٢/١٧٧)، والحاكم (٤/٣١٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (رقم ٥٢٥٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٨٧٣).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٢١٨).

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: أخبرني أبو سفيان عن هرقل قال له: سألتك ماذا يأمركم؟ فزعمت أنه يأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة. قال: وهذه صفة نبي. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك»[1].

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٣٥٣٥)، والترمذي (رقم ١٢٦٤)، والحاكم (٢/٤٦)، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٢٤٠).

خلق الوفاء

محاسن الإسلام كثيرة ومتعددة ومتنوعة في الأخلاق والعبادات والمعاملات وغيرها، ومن هذه المحاسن خلق الوفاء، هذا الخلق الضروري للمسلم معرفته والعمل به مع ربه ومع الناس في عبادته ومعاملته، فالوفاء كلمة لها معانٍ متعددة، فمادة وَفى تدل على الإكمال فقد وفى وتم. والوفي هو الذي يعطي الحق، وسمي الموت وفاة لاستيفاء الميت مدته التي وفيت له، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾[الزمر: ٤٢]، أي المستوفي مدد آجالهم، وعُرف الوفاء بأنه ملازمة طريق المواساة والمحافظة على عهود الخلطاء.

ووصف بعضهم وفاء الأخ لأخيه بأنه الثبات على حبه حتى الموت وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه.

ولقد تحدث القرآن الكريم عن فضيلة الوفاء ومحاسنه في مواطن كثيرة؛ ولعل أشرفها أن يصف الله نفسه بالوفاء، وذلك في قوله سبحانه في سورة التوبة: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ

يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ [التوبة: ١١١]، ومعنى قوله سبحانه: ﴿ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ ﴾ [التوبة: ١١١]، أنه لا أحد أوفى بعهده ولا أصدق في إنجاز وعده من الله ﷻ، فهو القادر سبحانه المتمكن من الوفاء وهو أصدق الواعدين، وأوفى المعاهدين.

ويقول سبحانه في اتصاف الله سبحانه بالوفاء في سورة آل عمران: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٥٧].

ويقول أيضاً: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ﴿٣٠﴾ ﴾ [فاطر: ٢٩ – ٣٠]، والله ﷻ يوفي كل إنسان حقه على حسب عمله، سواءً كان مستقيماً أو منحرفاً، صالحاً أو طالحاً، فكل واحد منهم وما يستحقه ويليق به.

يقول سبحانه في سورتي البقرة وآل عمران: ﴿ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨١]، و[آل عمران: ١٦١].

ويقول سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران: ١٨٥].

ويقول سبحانه: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الزمر: ٧٠].

ويقول سبحانه: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأحقاف: ١٩].

ويقول سبحانه: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النجم: ٣٩ – ٤١].

ولقد أشار القرآن الكريم ووضح سمو فضيلة الوفاء، حين جعلها صفة وسمة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فقال سبحانه: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: ٣٧]، وذلك لأن إبراهيم عليه السلام بذل غاية جهده في كل ما طولب به من ربه، فبذل ماله في طاعة الله، وقدم ولده إسماعيل قرباناً لله حتى فداه الله، ووفى بكلمات الله المشار إليها في قوله: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ﴾ [البقرة: ١٢٤]، وقاوم الوثنية والإشراك وفضل حق ربه

على حق أبيه، واحتمل ابتلاء الإحراق بالنار في سبيل الله إلى غير ذلك من ألوان الوفاء.

وقال سبحانه: ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ ﴾ [مريم: ٥٤]، وإنما خصه بذكر صفة الوفاء له هنا وصدقه في الوعد، لأنه كان مشهوراً بذلك، وحسبنا أنه وعد بالبصر على الذبح وقال لأبيه: ﴿ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٢]، ووفى بعهده وصدق في وعده، وكان من المخلصين.

ولقد حدثنا القرآن بالوفاء صفة للمؤمنين الأخيار الأبرار، حيث يقول سبحانه: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [آل عمران: ٧٦]، وقال أيضاً: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الرعد: ١٩ – ٢٠]، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾ [الفتح: ١٠].

والوفاء بالعهد في هذه الآيات الكريمة يشمل الوفاء بمختلف أنواع العهد بين الناس، كما يشمل الوفاء بعهد الله تبارك وتعالى.

جاء في تفسير المنار: العهد ما تلتزم الوفاء به لغيرك، فإذا اتفق اثنان على

أن يقوم كل منهما للآخر بشيء مقابلة ومجازاة يقال: إنهما تعاهدا. ويقال: عاهد فلان فلاناً عهداً. فيدخل فيه العقود المؤجلة والأمانات، فمن ائتمنك على شيء أو أقرضك مالاً إلى أجل أو باعك بثمن مؤجل وجب عليك الوفاء بالعهد وأداء حقه في وقته، من غير أن تلجئه إلى التقاضي والإلحاح في الطلب، بذلك تقضي الفطرة وتحتمه الشريعة، وهذا مثال العهد مع الناس.

ثم قال: ويدخل في الإطلاق عهد الله تعالى، وهو ما يلزم المؤمن الوفاء له به من اتباع دينه والعمل بما شرعه على لسان رسوله وعهد للناس العمل به، والقرآن الكريم يخبرنا أن الوفاء أنواع:

فهناك الوفاء بالعهد الذي يقول عنه سبحانه: ﴿ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وهناك الوفاء بالوعد الذي يشير إليه بقوله: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ ﴾ [مريم: ٥٤].

وهناك الوفاء بالنذر الذي يشير إليه قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾ [الإنسان: ٧].

وهناك الوفاء بالكيل الذي تشير إليه قوله سبحانه: ﴿ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ۝١٨١﴾ [الشعراء: ١٨١].

وهناك الوفاء بالعقود الذي تشير إليه قوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ﴾ [المائدة: ١].

وقد أمر الله سبحانه عباده بأن يتخذوا من فضيلة الوفاء ذرعاً وحصناً وزينة لنفوسهم وأخلاقهم، فقال سبحانه في سورة الحج: ﴿ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ ﴾ [الحج: ٢٩]، وقال في سورة الإسراء: ﴿ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ﴾ [الإسراء: ٣٥]، وقال في سورة الأنعام: ﴿ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

ومن سمو مكانة الوفاء في القرآن الكريم أن الله ﷻ جعل الوفاء جزاء لمكارم الأعمال والخصال، ففي سورة البقرة ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال في سورة الزمر: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ [الزمر: ١٠].

وهكذا نجد أن صفة الوفاء كانت صفة لله سبحانه وسمة لأنبيائه وعباده الصالحين، فعلى المسلم أن يتفقه في دينه ويتدبر ويتفكر في كتاب ربه، ينهل من معينه الصافي، لينعم بالسعادة في الدنيا والآخرة.

صفة الوفاء

صفة الوفاء من محاسن الإسلام، ذلك لأنها ذكرت في كتاب الله سبحانه صفة من صفاته سبحانه، ومن سمات أنبيائه وعباده الصالحين، والسنة تفسر القرآن وتوضحه، ولأهمية هذه الصفة نذكر ما تيسر من سنة المصطفى ﷺ ومن سيرته العطرة، يقول ﷺ عن فضيلة الوفاء رافعاً قدرها ذاكراً أثرها: «المسلمون على شروطهم إلا شرطاً أحل حراماً أو حرم حلالاً»(١)، وهذا تعبير وجيز أعطيه المصطفى ﷺ، حيث أعطي جوامع الكلم، فهذا يصور ارتباط المسلمين بعهودهم ووقوفهم عند كلمتهم ووفائهم بما يشترطونه على أنفسهم، لما في الوفاء بذلك من أثر كبير في حياتهم الدنيا والأخرى، وفي الأثر أيضاً: عدة المؤمن دين، والعدة هي الوعد، وقيل أيضاً: عدة المؤمن كالأخذ باليد.

ولقد ضرب الرسول ﷺ المثل الرائع في الوفاء حينما حفظ عهد

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٣٥٩٤)، والترمذي (رقم ١٣٥٢)، والحاكم (٤٩/٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٦٧١٤).

زوجته خديجة رضي الله عنها، حفظه في حياتها وبعد مماتها، فكان يكثر من الحديث عنها والثناء عليها، وحينما قالت عائشة رضي الله عنها مشيرة إلى خديجة بمقتضى الغيرة التي هي طبيعة النساء: هل كانت إلا عجوزاً، أبدلك الله خيراً منها. أنكر عليها ذلك وأجابها غاضباً: «لا والله ما أبدلني الله خيراً منها، آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، وكانت وكانت، وكان لي منها ولد»(١).

ولقد روى الإمام مسلم في صحيحه أن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه كان في مكة عقب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، ثم أراد حذيفة أن يهاجر مع أبيه إلى المدينة، فقبض عليهما المشركون، وقالوا لهما: إنكما تريدان محمداً؟ فقالا: ما نريد إلا المدينة. ثم أخذ المشركون عليهما العهود والمواثيق حتى لا يقاتلا مع النبي صلى الله عليه وسلم، وأعطى حذيفة ووالده على ذلك عهد الله وميثاقه، ثم هاجرا وجاءت غزوة بدر، فأراد أن يشاركا فيها، وأخبرا النبي صلى الله عليه وسلم بما أعطياه المشركين من عهد وميثاق، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «نفي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (٦/١١٨)، والجزء الأخير من الحديث عند البخاري (رقم ٣٨١٨).

(٢) أخرجه أحمد (٥/٣٩٥)، ومسلم (رقم ١٧٨٧).

وفي السيرة النبوية أن المسلمين اضطروا أمام ظروف قاهرة واستجابة لنظرة عميقة بعيدة أن يقبلوا عهد الحديبية بينهم وبين المشركين وكان من شروطه أنه إن جاء أحد من مكة فاراً من المدينة رده المسلمون إلى مكة، واشتد هذا الشرط على المسلمين، ولكن الرسول ﷺ قال لأصحابه: «إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم فرددناه فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً»(١)، وبعد كتابة عهد الحديبية ورجوع النبي ﷺ إلى المدينة جاءه أبو بصير عتبة بن أسيد الثقفي، جاءه هارباً من مكة بعد أن أسلم، وجاءه رجلان من أهل مكة يطلبان رده إليهم، فأبى وفاء النبي ﷺ إلا أن ينفذ الشرط، ولما تألم أبو بصير من ذلك قال له النبي ﷺ: «يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت من العهد، ولا يصلح في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً»(٢) وقد حقق الله تعالى ظن رسوله ﷺ ورجاءه بعد قليل.

وهناك موقف مشابه لموقف أبا بصير السالف الذكر، وهذا الموقف المشابه يتعلق بأبي جندل بن سهيل بن عمرو، فقد كان والده ممثلاً للمشركين في عهد الحديبية، ولكن ابنه أبا جندل أسلم وهرب واتجه إلى المدينة مهاجراً

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٧٨٤).

(٢) أصل القصة في صحيح البخاري (رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢).

وعلم أبوه بذلك، فأخذ يطالب الرسول برد ابنه فلم يملك الرسول ﷺ إلا الوفاء بالشرط، ولما تألم أبو جندل من ذلك، قال له الرسول: «يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم عهداً، وأعطيناهم على ذلك، وإنا لا نغدر بهم»(1).

وتُحدثنا السيرة النبوية العطرة أن الوفاء سمة بارزة للمسلمين على عهد رسول الله ﷺ وفي صدر الإسلام، حتى نزل فيهم قرآن يتلى إلى يوم القيامة، حيث يقول سبحانه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب: ٢٣].

جاء في سبب نزول هذه الآية الكريمة أن الصحابي الجليل أنس بن النضر لم يستطع أن يشهد غزوة بدر، فحزن لذلك، وقال للنبي ﷺ: يارسول الله غبت عن أول قتال قاتلت فيه المشركين، لئن أشهدني الله مع النبي ﷺ قتال المشركين ليرين ما أصنع، وجاء يوم الوفاء، جاء يوم أحد، وانكسر المسلمون في القتال، وثبت أنس رضي الله عنه، وهتف يقول: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء. يعني أصحابه، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء. يعني

(١) انظر المصدر السابق.

المشركين. ثم انطلق يدافع ويجاهد، وقابله سعد بن معاذ فقال له أنس محرضاً على الجهاد حتى النصر أو الاستشهاد يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر إني لأجد ريحها من دون أحد. ولم يستطع سعد كما اعترف أن يجاري أنساً في صنع ما صنع، حيث انطلق أنس يكافح ويجاهد ويؤدي واجب الوفاء والفداء، حتى نال الشهادة في سبيل الله بلا تردد ولا تقهقر، بعد أن أصابه بضعة وثمانون جرحاً ما بين ضربة بالسيف أو طعنة بالرمح أو رمية بالسهم، ومثل بجثته المشركون الطغاة حتى خفيت معرفته على قومه، فلم يعرفه إلا أخته بعلامة كانت فيه عليه رضوان الله تعالى.

ولقد ضرب الأنصار أروع الأمثال في الوفاء، عن أنس بن مالك ﵁ قال: لما كان يوم حنين أقبلت هوازن وغطفان وغيرهم بذراريهم ونعمهم ومع رسول الله ﷺ يومئذ عشرة آلاف ومعه الطلقاء، فأدبروا عنه حتى بقي وحده فنادى يومئذ نداء الدين لم يخلط بينهما شيئاً، التفت عن يمينه فقال: «يا معشر الأنصار» فقالوا: لبيك يا رسول الله نحن معك أبشر، ثم التفت عن يساره فقال: «يا معشر الأنصار» فقالوا: لبيك يا رسول الله أبشر نحن معك. وهو على بغلة عضاء فنزل، وقال: «أنا عبد الله ورسوله» فانهزم المشركون.

وأصاب النبي غنائم كثيرة، فقسمها بين المهاجرين والطلقاء، ولم يعط

الأنصار شيئاً، فقالوا أي بعضهم: إذا كان الشدة ندعى ويعطى الغنائم غيرنا. فبلغه ذلك فجمعهم، وقال: «يا معشر الأنصار ما شيء بلغني عنكم؟!» فسكتوا فقال: «يا معشر الأنصار أما ترضون أن يذهب الناس بالدنيا وتذهبون بمحمد ﷺ تحوزونه إلى بيوتكم! » قالوا: بلى يا رسول الله رضينا. فقال رسول الله ﷺ: «لو سلك الناس وادياً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار»[1].

وهكذا يكون الوفاء عند أهل الصدق والوفاء، الذين تخرجوا من مدرسة محمد ﷺ.

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٣٣٣، ٤٣٣٤)، ومسلم (رقم ١٠٥٩).

الرحمة

الإسلام رسالة خير وسلام وعطف على البشر كلهم، ومحاسنه كثيرة معلومة، يقول الله سبحانه لرسوله ﷺ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وسور القرآن الكريم كلها مفتتحة باسم الله الرحمن الرحيم.

والرحمة هي الرقة والتعطف وهي إرادة إيصال الخير.

قال ابن القيم رحمه الله: الرحمة سبب واصل بين الله عز وجل وبين عباده، بها أرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه، وبها هداهم، وبها يسكنهم دار ثوابه، وبها رزقهم وعافاهم وأنعم عليهم، فبينهم وبينه سبب العبودية، وبينه وبينهم سبب الرحمة، وقد وردت الآيات الكثيرة في الرحمة.

فمن رحمة الله تعالى لعباده قبول التوبة والعفو عن العاصين، كما قال تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧ ﴾ [البقرة: ٣٧]، وأخبر في غير ما آية أنه هو التواب الرحيم، وأن الله غفور رحيم.

وأخبر سبحانه أن إرسال الرسل وإنزال الكتب رحمة من الله بعباده، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ

﴿يُؤْمِنُونَ ۝﴾ [الأعراف: ٥٢] وكما قال سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

يقول المصطفى ﷺ فيما رواه النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: تقبلون الصبيان، فما نقبلهم؟! فقال النبي ﷺ: «أو أملك لك أن نزع الله في قلبك الرحمة»(٢) وقد دعى النبي ﷺ للمتصف بصفة السماحة في البيع والشراء وغيره وذلك في قوله ﷺ فيما رواه جابر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع سمحاً إذا اشترى وإذا اقتضى»(٣).

وفي حياة المصطفى ﷺ وتطبيقه للرحمة بالناس أمثلة كثيرة ونماذج فيها عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: أرسلت ابنة النبي ﷺ إليه أن ابناً لي قبض فأتنا فأرسل يقرئ السلام، ويقول: «إن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكُلٌّ عنده

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٠١١)، ومسلم (رقم ٢٥٨٦).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٩٩٨)، ومسلم (رقم ٢٣١٧).
(٣) أخرجه البخاري (رقم ٢٠٧٦).

بأجل مسمًّى، فلتصبر ولتحتسب» فأرسلت إليه تُقسم عليه ليأتينها فقام ومعه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ورجال، فرفع إلى رسول الله ﷺ الصبي ونفسه تتقعقع، قال: حسبته أنه قال: كأنها شَنٌّ، ففاضت عيناه، فقال سعد: يا رسول الله ما هذا؟ فقال: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»[1].

ولقد وردت الآثار الكثيرة من أقوال العلماء والمفسرين في الرحمة: منها قول ابن حجر رحمه الله تعليقاً على حديث «من لا يرحم لا يُرحم»[2].

قال ابن بطال: فيه الحض على استعمال الرحمة لجميع الخلق، فيدخل المؤمن والكافر والبهائم المملوك منها وغير المملوك، ويدخل في الرحمة التعاهد بالإطعام والسقي والتخفيف في الحمل وترك التعدي بالضرب.

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: إن الشريعة كلها مبنية على الرحمة في أصولها وفروعها وفي الأمر بأداء الحقوق سواء، كانت لله أو للخلق، فإن الله لم يكلف نفساً إلا وسعها، وإذا تدبرت ما شرعه الله عز وجل في المعاملات والحقوق الزوجية وحقوق الوالدين والأقربين والجيران وسائر ما

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٢٨٤)، ومسلم (رقم ٩٢٣).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٩٩٧)، ومسلم (رقم ٢٣١٨).

شرع وجدت ذلك كله مبنيّاً على الرحمة.

ثم قال: لقد وسعت هذه الشريعة برحمتها وعدلها العدو والصديق، ولقد لجأ إلى حصنها الحصين الموفقون من الخلق، وقال الحسن وقتادة في قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] قالا: وسعت في الدنيا البَر والفاجر، وهي يوم القيامة للذين اتقوا خاصةً.

وللرحمة مواطن كثيرة، فهناك موطن الرحمة بالأبوين، والرحمة بالأولاد والزوجات، والرحمة بالأقارب وذوي الأرحام، والرحمة باليتامى والمساكين والضعفاء: كالمرضى والمصابين وذوي العاهات، ثم الرحمة بالحيوان.

وهكذا تتسع الرحمة حتى تشمل جوانب فسيحة من الحياة وعدداً ضخماً من الأحياء، والرحمة صفة من صفات الله سبحانه، وقد ذكر القرآن ذلك في جملة من آيات، فقال في سورة الأنعام: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢] وفيها ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٣٣] وفي سورة المؤمنون ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [المؤمنون: ١١٨] وفي سورة غافر ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧] وهناك عشرات الآيات الكريمة جاء فيها وصف الله تعالى بالرحمة.

وجعل الله من صفات المؤمنين أن يوصي بعضهم بعضاً برحمة الضعيف

والتعطف عليه، فقال في سورة البلد: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ١٧﴾ [البلد: ١٧] والرسول ﷺ وهو المثل الأعلى والقدوة الحسنة لأهل القرآن، قد وصفه القرآن بالرحمة، وذلك في قوله سبحانه في سورة التوبة: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التوبة: ١٢٨] وقال في سورة الأنبياء: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وللرحمة فوائد: منها أن الجنة دار الرحمة، ولا يدخلها إلا الراحمون برحمة الله سبحانه، لا يستحق رحمة الله إلا الراحمون الموفقون.

أن الرحمة في الإسلام عامة وشاملة، لا تخص أحداً دون أحدٍ، ولا نوع دون نوع. ومن آثار رحمة الله تعالى إنزال المطر وإرسال الرسل وإنزال الكتب وغفران الذنوب، والابتلاء بشتى المصائب والعيوب، الاجتماع على الحق دليل الرحمة، والافتراق دليل الشقاء، إشاعة الرحمة بين أفراد المجتمع ترفع من مستواه وتجمع شمله، الرحمة تثمر محبة الله ومحبة الناس، الرحمة دليل رقة القلب وسمو النفس، برحمة الله تعالى يوفق العبد لترك المعاصي ونيل الدرجات.

الرحمة

الرحمة خلق من أخلاق القرآن ومن محاسن الإسلام، ذكرها الله سبحانه في كتابه، وذكرها المصطفى ﷺ في سنته: قولاً وفعلاً، وذكرها السلف رحمهم الله تعالى في أقوالهم وأفعالهم، فكانوا أسوة في الخير، والرحمة في لغة العرب تدل على الرقة والعطف والرأفة والمغفرة.

والرحمة كما يقول العلماء: رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد من الرقة، نحو: رحم الله فلاناً.

يقول الأصفهاني: الرحمة من الله إنعام وإفضال، ومن الآدميين رقة وتعطف. وعلى هذا جاء الحديث القدسي «أنا الرحمن، وأنت الرحم شققت اسمك من اسمي، فمن وصلك وصلته ومن قطعك قطعته»(1).

فهذا إشارة إلى أن الرحمة منطوية على معنيين: الرقة والإحسان،

---

(1) أخرجه بلفظ قريب البخاري (رقم ٥٩٨٨، ٥٩٨٩)، ومسلم (رقم ٢٥٥٤، ٢٥٥٥).

فركز الله تعالى في طبائع الناس الرقة وتفرد بالإحسان، والرحمة فضيلة إسلامية قرآنية، تدل على قوة صاحبها ونبله، لأنه لا يحتكر الخير لنفسه، ولا يهمل التفكير في سواه، بل هو يحس بآلام الآخرين، ويقدر مشاعرهم، ويسهم في معاونتهم، ويخفف عنهم حينما يستحقون التخفيف.

ومن معاني كلمة الرحمة في القرآن الكريم أنها وردت في القرآن الكريم على أوجه منها:

١ – بمعنى أرزاق الإنسان والحيوان، قال تعالى: ﴿لَّو أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ﴾ [الإسراء: ١٠٠].

٢ – الرحمة بمعنى قطرات ماء الغيث (المطر)، قال تعالى: ﴿وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨].

٣ – الرحمة بمعنى العافية من الابتلاء والامتحان: ﴿أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ﴾ [الزمر: ٣٨].

٤ – الرحمة بمعنى النجاة من عذاب النيران، قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾ [النور: ١٠، ٢٠، ١٤، ٢١].

٥ – الرحمة بمعنى النصرة على أهل العدوان، قال تعالى: ﴿أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ﴾ [الأحزاب: ١٧].

٦ – الرحمة بمعنى الألفة والمحبة بين أهل الإيمان، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧].

٧ – الرحمة بمعنى وصف الكتاب المنزل على موسى، قال تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [هود: ١٧].

٨ – الرحمة بمعنى الجنة دار السلام والأمان، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

٩ – الرحمة صفة الرحيم الرحمن، قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

لقد وردت الأحاديث الكثيرة التي تبين أن الرحمة خلق من أخلاق القرآن الكريم، فعن سليمان الفارسي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله خلق يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة، كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض، فجعل منها في الأرض رحمة، فبها تعطف الوالدة على ولدها، والوحش والطير بعضها على بعض، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة»[1].

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٧٥٣) (٢١).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قدم على النبي صلى الله عليه وسلم سبي فإذا امرأة من السبي تحلب ثديها تسقي، إذا وجدت صبيًّا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي صلى الله عليه وسلم: «أترون هذه طارحة ولدها في النار؟» قلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحه. فقال: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لما خلق الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي»(٢).

ومن صور رحمة الله بعباده ما ذكره ابن القيم رحمه الله بقوله: ومن رحمته سبحانه ابتلاء الخلق بالأوامر والنواهي رحمة لهم وحمية، لا حاجة منه إليهم بما أمرهم به.

ومن رحمته أن نغَّص عليهم الدنيا وكدَّرها، لئلا يسكنوا إليها، ولا يطمئنوا إليها، ويرغبوا عن النعيم المقيم في داره وجواره، فساقهم إليها بسياط الابتلاء والامتحان، فمنعهم ليعطيهم، وابتلاهم ليعافيهم، وأماتهم ليحييهم.

ومن رحمته بهم أن حذرهم نفسه، لئلا يغتروا به فيعاملوه بما لا تحسن

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٩٩٩)، ومسلم (رقم ٢٧٥٤).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٧٤٠٤)، ومسلم (رقم ٢٧٥١).

معاملته به.

ومن رحمته أن أنزل لهم كتباً، وأرسل لهم الرسل، لكن الناس افترقوا إلى فريقين، فأما المؤمنون فقد اتصل الهدى في حقهم بالرحمة، فصار القرآن لهم هدى ورحمة، وأما الكافرون فلم يتصل الهدى بالرحمة، فصار لهم القرآن هدى بلا رحمة.

وهذه الرحمة المقارنة للهدى في حق المؤمنين رحمة عاجلة وآجلة، فأما العاجلة فما يعطيهم الله في الدنيا من محبة الخير والبر وذوق طعم الإيمان ووجدان حلاوته والفرح والسرور والأمن والعافية، قال تعالى: ﴿**قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨**﴾ [يونس: ٥٨] فأمرهم ﷻ بأن يفرحوا بفضله ورحمته، فهم يتقلبون في نور هداه، ويمشون به في الناس، ويرون غيرهم متحيراً في الظلمات، فهم أشد الناس فرحاً بما آتاهم ربهم من الهدى والرحمة، وغيرهم جمع الهم والغم والبلاء والألم والقلق والاضطراب مع الضلال والحيرة.

وهذه الرحمة التي تحصل للمهتدين تكون بحسب هداهم، فكلما كان نصيب الواحد من الهدى أتم كان حظه من الرحمة أوفر، فتجد الصحابة كانوا أرحم الأمة، كما قال تعالى: ﴿**مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ**﴾ [الفتح: ٢٩].

والصديق أرحم الأمة بالأمة فقد جمع الله له بين سعة العلم وسعة الرحمة، وهكذا الرجل كلما اتسع علمه اتسعت رحمته، وقد وسع ربنا كل شيء رحمة وعلماً، فهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، بل هو أرحم بالعبد من نفسه، كما هو أعلم بمصلحة العبد من نفسه،.

ما أحوج الأمة الإسلامية أفراداً وجماعات إلى رحمة بعضهم ببعض، اقتداءً بمحمد ﷺ في كل حالة من حالاتهم، يرحم الكبير الصغير، والقوي الضعيف والمسكين، وقال ﷺ: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا»[1] وقال ﷺ: «مثل المسلمين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»[2].

(١) أخرجه الترمذي (رقم ١٩١٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٥٤٤٥).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٠١١)، ومسلم (رقم ٢٥٨٦).

العفو

العفو خلق من أخلاق القرآن الكريم التي كرر ذكرها ورفع قدرها، والعفو كلمة تدل معناها على المحو والطمس، يقال: عفت الريح الأثر، إذا محته وطمسته. والعفو يكون من الله وهو محو الذنوب، ويكون من الناس وهو أن يخطئ معك إنسان وتكون قادراً على معاقبته ومؤاخذته، ولكنك تعرض وتصفح، وهو من محاسن الإسلام، لأن الذي يعفو من العباد يطمع في مغفرة الله وعفوه وصفحه ويتذلل لربه، ويخضع له، يطلب عفوه ومغفرته.

وقد تقدم بعض الكلام عن هذه السمة الفاضلة والخلق الرفيع، ولأهمية ذلك رأينا استكمال ذلك، وقد ورد ذكر العفو في القرآن في آيات كثيرة وبمعان مختلفة، فالعفو من أسماء الله تعالى، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ [النساء: ١٤٩].

وجاء العفو في القرآن بمعنى الصفح، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿فَٱعْفُواْ

وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ١٠٩]، كما مدح الله سبحانه العافين عن الناس، وذلك في قوله سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

كما أمر الله سبحانه نبيه محمداً ﷺ بالعفو في قوله سبحانه: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال سبحانه: ﴿ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الحج: ٦٠]، كما قال سبحانه: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النور: ٢٢].

كما ورد العفو في القرآن الكريم بمعنى الترك، وذلك في قوله سبحانه: ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا

﴿...تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢٣٧﴾ [البقرة: ٢٣٧].

وورد العفو بمعنى الفاضل من المال، وذلك في قوله سبحانه: ﴿۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ۝٢١٩﴾ [البقرة: ٢١٩].

والسنة النبوية تذكر صفة العفو وأن المسلم ينبغي له أن يتخلق بها مع الناس، ويطلب الله سبحانه عفوه ومغفرته، ومن ذلك ما رواه عبد الله بن مسعود ﵁: قال قالت أم حبيبة ﵂: اللهم متعني بزوجي رسول الله ﷺ وبأبي أبي سفيان وبأخي معاوية. فقال لها رسول الله ﷺ: «إنك سألت الله لآجال مضروبة وآثار موطوءة وأرزاق مقسومة، لا يعجل الله شيئاً منها قبل حله، ولا يؤخر منها شيئاً بعد حله، ولو سألت الله أن يعافيك من عذاب في النار وعذاب في القبر لكان خيراً لك»[1].

وعن عوف بن مالك الأشجعي ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ على جنازة فحفظت من دعائه وهو يقول: «اللهم اغفر له وارحمه وعافه، واعف عنه، وأكرم نزله، ووسع مدخله، واغسله بالماء

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٦٣/٣٣).

والثلج والبرد، ونقه من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله داراً خيراً من داره، وأهلاً خيراً من أهله، وزوجاً خيراً من زوجه. وأدخله الجنة، وأعذه من عذاب القبر» أو «عذاب النار» قال: حتى تمنيت أن أكون أنا ذلك الميت(١).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: فقدت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة من الفراش، فالتمسته، فوقعت يدي على قدميه وهو في المسجد، وهما منصوبتان، وهو يقول: «اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله أرأيت إن علمت أيُّ ليلةٍ ليلةُ القدر ما أقول فيها قال: «قولي: اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عني»(٣).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال كان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك وتحول عافيتك وفجاءة نقمتك وجميع

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٩٦٣).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٤٨٦).

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٣٥١٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٤٤٢٣).

سخطك»[1].

كما حذر النبي ﷺ من المجاهرة بالمعصية، وذلك كأن يعمل العبد معصية بالليل فيستره الله، ثم يحدث بها الناس. وذلك فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل أمتي معافى إلا المجاهرين وإن من الإجهار أن يعمل العبد بالليل عملاً ثم يصبح قد ستره ربه فيقول: يا فلان قد عملت البارحة كذا وكذا. وقد بات يستره ربه، فيبيت يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه»[2].

والمصطفى ﷺ تحلى بصفة العفو، فعن جابر رضي الله عنهما أنه غزا مع رسول الله ﷺ قبل نجد فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه فأدركتهم القافلة في واد كثير العضاه فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس يستظلون بالشجر، فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة وعلق بها سيفه وغفا نومه فإذا رسول الله ﷺ يدعونا وإذا عنده أعرابي فقال: «إن هذا اخترط عليّ سيفي وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده صلتا، فقال: من يمنعك مني؟ فقلت (الله)» ثلاثاً ولم يعاقبه وجلس[3].

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٧٣٩).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٠٦٩)، ومسلم (رقم ٢٩٩٠).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٢٩١٠)، ومسلم (رقم ٨٤٣).

والآثار وأقوال السلف الواردة في العفو كثيرة منها قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: كل الناس مني في حل. وعن الحسن قال: أفضل أخلاق المؤمن العفو. وقال عمرو بن ميمون قال عمر رضي الله عنه: أوصى الخليفة بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم، وأوصى الخليفة بالأنصار الذين تبؤوا الدار والإيمان من قبل أن يهاجر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقبل من محسنهم ويعفو عن مسيئهم. ودخل رجل على عمر بن عبد العزيز رحمه الله فجعل يشكو إليه رجلاً ظلمه ويقع فيه، فقال له عمر: إنك إن تلقى الله ومظلمتك كما هي خير لك من أن تلقاه وقد اقتصصتها. وقال الشافعي رحمه الله:

قالوا سكت وقد خوصمت قلت لهم ... إن الجواب لباب الشر مفتاح
فالعفو عن جاهل أو أحمق أدب ... نعم وفيه لصون العرض إصلاح
إن الأسود لتخشى وهي صامتة ... والكلب يحثى ويرمى وهو نباح

وللعفو فوائد عظيمة منها:

أنه مظهر من مظاهر حسن الخلق، وهو دليل كمال الإيمان وحسن الإسلام، كما أنه دليل على سعة الصدر وحسن الظن. وهو يثمر محبة الله عز وجل ومحبة الناس، وهو أمان من الفتن وعاصم من الزلل، ودليل على كمال النفس وشرفها، وطريق نور وهداية لغير المسلمين.

كما أن فيه تهيئة المجتمع والنشئ الصالح لحياة أفضل.

العفو

إن من محاسن الإسلام أنه يدعو إلى معالي الأمور ومكارم الأخلاق، ومنها العفو. فالعفو كلمة يدل أصل معناها على المحو والطمس، يقال: عفت الريح الأثر إذا محته وطمسته. وعفا الشيء أمحى ولم يبق له أثر. والعفو اصطلاحاً هو محو الذنوب، وكل من استحق عقوبة فتركته فقد عفوت عنه. ويقال: عفا الله عنك أي محا الله عنك. فعفو الله هو محوه الذنوب عن العبد.

وقيل: إن العفو معناه الترك، فعفو الله إذاً هو تركه العقوبة على الذنب. وفي الدعاء المأثور «أسألك العفو والعافية»[1] أي أسألك ترك العقوبة وتحقيق السلامة، لأن العافية هي الصحة، وهي أن تسلم من الأسقام والبلايا.

والعفوُّ هو كثير العفو، وهو اسم من أسماء الله تعالى التي تكرر ذكرها في القرآن الكريم.

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٥٠٧٤)، والنسائي (رقم ٥٥٣١)، وابن ماجه (رقم ٣٨٧١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: ومن كلمته عَزَّ وَجَلَّ تعريفه عبده أنه لا سبيل له إلى النجاة إلا بعفوه ومغفرته، وإلا فهو من الهالكين لا محالة، فليس أحد من خلقه إلا وهو محتاج إلى عفوه ومغفرته، كما هو محتاج إلى فضله ورحمته.

وقال الغزالي: العفو صفة من صفات الله تعالى وهو الذي —يمحو السيئات ويتجاوز عن المعاصي، وهو قريب من الغفور، ولكنه أبلغ منه، فإن الغفران ينبئ عن الستر، والعفو ينبئ عن المحو، والمحو أبلغ من الستر. وحظ العبد من ذلك لا يخفى وهو أن يعفو عن كل مظلمة، بل يحسن إليه، كما يرى الله تعالى محسناً في الدنيا إلى العصاة والكفرة غير معاجل لهم بالعقوبة، بل ربما يعفو عنهم بأن يتوب عليهم، وإذا تاب عليهم من سيئاتهم إذا التائب من الذنب كما لا ذنب له، وهذا غاية المحو للجناية.

العفو خلق من أخلاق القرآن الكريم التي كرر ذكرها ورفع قدرها.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: ذكر أهل التفسير أن العفو في القرآن الكريم على أربعة: أحدها الصفح والمغفرة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، والثاني في الترك، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، والثالث الفاضل من المال، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، والرابع الكثرة، ومنه

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ [الأعراف: ٩٥]، أي كثروا قاله أبو عبيد، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤]، قال: الصبر عند الغضب والعفو عن الإساءة، فإذا فعلوه عصمهم الله عز وجل، وخضع لهم عدوهم.

العفو خلق من أخلاق القرآن الكريم التي كرر ذكرها، ورفع قدرها، ولعل مما يبين هذا القدر الرفيع للعفو أن القرآن الكريم جعله صفة من صفات الله عز وجل، وأشار إلى ذلك في طائفة من الآيات، ففي سورة البقرة يقول سبحانه: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [البقرة: ٥٢]، وفيها أيضاً ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وفي سورة آل عمران: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وفيها أيضاً: ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، وفي سورة النساء: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ [النساء: ٩٩].

وهكذا نجد أن كتاب الله عز وجل قد نسب صفة العفو إلى رب العزة والجلال أكثر من عشر مرات، ونرى أن الله سبحانه يعفو، وفي الوقت نفسه يهدد بالمؤاخذة من يعود أو يصر، وهو يعفو عن طائفة تستحق العفو،

ويعاقب من لا يستحق العفو.

وما دام العفو صفة من صفات الله التي تؤكدها آيات القرآن فإنه مما يزكي الإنسان ويسمو بقدره عند الله وعند الناس أن يتخلق بهذا الخلق الكريم النبيل، ولذلك دعا القرآن إلى العفو، وحث عليه، ونوّه به في أساليب مختلفة، فتارة يذكر سبحانه أن العفو عوناً على تحقيق التقوى عند الإنسان وعلى تجنب الحيف والظلم، وذلك في قوله سبحانه: ﴿ **وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۚ** ﴾[البقرة: ٢٣٧].

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله حدثنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ **وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ٣٠** ﴾ [الشورى: ٣٠]، وسأفسرها لك يا علي، ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم، والله تعالى أكرم من أن يثني عليهم العقوبة في الآخرة، وما عفا الله تعالى عنه في الدنيا، فالله تعالى أحلم من أن يعود بعد عفوه.

والسنة النبوية زاخرة بالأحاديث التي تبين العفو وما له من الفضل والأجر عند الله، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كان تاجر يداين الناس فإذا رأى معسراً قال لفتيانه: تجاوزوا عنه، لعل الله أن يتجاوز

عنا. فتجاوز الله عنه»(١).

وعن حذيفة ﵁ قال: «أتى الله تعالى بعبد من عباده أرشاه الله مالاً، فقال له: ماذا عملت في الدنيا؟ قال: ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٤٢]، قال: يا رب آتيتني مالك فكنت أبايع الناس، وكان من خلقي الجواز، وكنت أتيسر على الموسر وأنظر المعسر. فقال تعالى: أنا أحق بهذا منك، تجاوزوا عن عبدي»(٢). فقال عقبة بن عامر الجهني وأبو مسعود الأنصاري ﵄: هكذا سمعناه من في رسول الله ﷺ، وعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»(٣).

وفي سيرة المصطفى ﷺ العطرة وحياته العملية ما يبين بوضوح سماحة المصطفى ﷺ وعفوه، فعن ابن مسعود ﵁ قال: «كأني أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ضر به قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه، ويقول: رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»(٤) ومثال آخر

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٨٠)، ومسلم (رقم ١٥٦٢).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٥٦٠/٢٩).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٨٨).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٧٧)، ومسلم (رقم ١٧٩٢).

يوضح سماحة المصطفى ﷺ وصفحه وعفوه، فعن أنس رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة، فنظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مُرْ لي من مال الله الذي عندك. فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء[1].

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣١٤٩)، ومسلم (رقم ١٠٥٧).

السماحة

الإسلام يدعو إلى محاسن الأقوال والأفعال والأحوال وإن من محاسن الإسلام السماحة، وقد دعا رسول الله ﷺ بالرحمة للرجل السمح «رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى»[1].

وفي رواية «وإذا قضى» ويعلق ابن حجر على رواية البخاري بقوله: «السهولة والسماحة متقاربان في المعنى، والمراد بالسماحة ترك المضاجرة ونحوها، وإذا اقتضى أي طلب قضاء حقه بسهولة وعدم إلحاق. وإذا قضى أي أعطى الذي عليه بسهولة بغير مطل.

وفيه الحض على السماحة في المعاملة واستعمال معالي الأخلاق وترك المشاحنة والحض على ترك التضييق على الناس في المطالبة وأخذ العفو منهم.

وأكثر ما تكون الخصومات في المعاملات المالية وغيرها والتحلي بكرم الخلق وجود النفس وسماحة الطبع قليل إلا من عصم الله وهداه، إن صاحب السماحة لا تطيب نفسه بأن يحصل حقاً لم تطب به نفس الطرف

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٠٧٦).

الآخر، فيؤثر التنازل أو السماحة وإن كان الحق له، وهذا ما كان من عثمان ﵁ حين اشترى من رجل أرضاً فتأخر صاحب الأرض في القدوم عليه لقبض الثمن وتبين له أن سبب تأخره أنه بعد أن تم العقد شعر البائع أنه مغبون، وكان الناس يلومونه كيف تبيعها بهذا الثمن، قال عثمان: «فأختر بين أرضك ومالك» ثم ذكر له الحديث «أدخل الله الجنة رجلاً كان سهلاً مشترياً وبائعاً وقاضياً ومتقاضياً»[1].

إن إنكار المعسر أو التجاوز عن القرض أو عن جزء منه صورة عظيمة من صور الكرم وسماحة النفس، قال رسول الله ﷺ «كان تاجر يداين الناس وإذا رأى معسراً قال لفتيانه: تجاوزوا عنه، لعل الله أن يتجاوز عنا. فتجاوز الله عنه»[2].

بل إن توفيق الدنيا والآخرة مرهون بتيسيرك على أخيك المعسر: «من يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة»[3] وقد كان رسول الله ﷺ يأمر برد القرض بخير منه وبالزيادة فيه ويقول: «أعطوه». وقال ﷺ: «إن

---

(١) أخرجه أحمد (١/٦٧)، والنسائي (رقم ٤٧١٠)، وابن ماجه (رقم ٢٢٠١)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٢٤٣).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٠٧٨)، ومسلم (رقم ١٥٦٢).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٩٩).

خياركم أحسنكم قضاء»[1].

وما ترك صاحب القرض يمضي إلا وهو راضٍ كما شهد لرسول الله ﷺ شريكه في التجارة قبل البعثة السائب بن عبد الله بقوله له كنت شريكي في الجاهلية فكنت خير شريك كنت لا تداريني ولا تماريني، أي كنت لا تدافعني في أمر ولا تجادلني، بل كنت شريكاً موافقاً ولم ينسها له، وكانت سبباً من أسباب محبته له، وتكون سبباً من أسباب النجاة من النار لمن تخلق لها «حرم على النار كل هين لين سهل قريب من الناس»[2].

صاحب السماحة لا يحرص على إيقاع الناس في الحرج، ففي الحديث الصحيح أن الصحابي أبا اليسر رضي الله عنه كان له على رجل قرض، فلما ذهب لاستيفاء حقه اختبأ الغريم في داره، لئلا يلقى أبا اليسر، وهو لا يملك السداد، فلما علم أبو اليسر أن صاحبه يختفي منه حياء لعدم تمكنه من أداء ما عليه؛ أتى بصحيفة القرض فمحاها، وقال: إن وجدت قضاء فأقض، وإلا فأنت في حل[3].

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٣٠٥)، ومسلم بنحوه (رقم ١٦٠١).

(٢) أخرجه أحمد (١/٤١٥)، والترمذي (رقم ٢٤٨٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٣١٣٥).

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه (رقم ٥٠٤٤)، والحاكم (رقم ٢٢٢٤).

وبسماحته تلك أخرج أخاه من الحرج الشديد، وأبرز مواقف السماحة ما يكون مع من أساء إليك كالذي جرى مع أبي بكر الصديق ﷺ حين أقسم ألا ينفق على مسطح بن أثاثة لتورطه في حديث الإفك فأمره الله أن يعفو ويصفح، فكفر عن يمينه، وعاد ينفق عليه[1].

وفي ذلك يقول ﷺ «ارحموا ترحموا واغفروا يغفر الله لكم»[2] وقد وصف الله عباده المؤمنين بأنهم: ﴿**وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ**﴾ [الشورى: ٣٧].

تظهر آثار السماحة في جميع مظاهر الحياة ومن ذلك ما جرى لرسول الله ﷺ مع عائشة رضي الله عنها حين قصدت الحج والعمرة فأصابها الحيض فحزنت لعدم تمكنها من أداء العمرة، وبكت لذلك، وقالت: يرجع الناس بحجة وعمرة وأرجع بحجة.

يقول جابر بن عبد الله رضي الله عنه: وكان رسول الله ﷺ رجلاً سهلاً، حتى إذا هويت الشيء تابعها عليه. فأرسلها مع عبد الرحمن بن أبي بكر فأهلت بعمرة من التنعيم[3].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٧٥٧).

(٢) أخرجه أحمد (١٦٥/٢)، والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٣٨٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٨٩٧).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ١٢١٣) (١٣٧).

قال النووي: (سهلاً أي سهل الخلق، كريم الشمائل، لطيفاً ميسراً في الخلق) فما أعظم سماحته ﷺ مع أهله في مثل هذا الموطن المزدحم وفي حال السفر، ومن مظاهر سماحته ﷺ في دعوته، وذلك حينما وجد ريح ثوم في مسجده نهى الصحابة عن أن يرد أحد مسجده قبل ذهاب الثوم منه، وكان المقصود بالنهي «المغيرة بن شعبة» يقول رضي الله عنه: أتيته فقلت: يا رسول الله إن لي عذراً ناولني يدك. قال: فوجدته والله سهلاً. فناولني يديه، فأدخلتها في كمي إلى صدري، فوجده معصوباً، فقال: «إن لك عذراً»[1].

فعذره حين وجد أنه أكل الثوم لمرض، وكم يحتاج المسلمون وطلبة العلم والدعاة إلى الله التأسي بمحمد ﷺ في سماحته؛ لنكون مبشرين غير منفرين، وميسرين غير معسرين، ومما عرف به رسول الله ﷺ وهو القدوة يحتذى في جميع أموره، حيث عرف الإيمان بقوله: «الإيمان الصبر والسماحة»[2].

والصبر هو حبس النفس عن الجزع والتشكي، وهو صبر على طاعة الله، فيعملها العبد. وصبر عن معصية الله، فيتركها. وصبر على أقدار الله المؤلمة. والسماحة علاقة العبد بأخيه بحيث تغلب عليها السهولة والسماحة

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٣٨٢٦)، وأحمد (٢٤٩/٤، ٢٥٢).

(٢) أخرجه أبو يعلى (رقم ١٨٥٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٢٧٩٥).

وقابلية التنفيس عن إخوانه، وذلك بالتنازل لرضى الله وفيما يُرضي الله.

ومن الحكمة الربط بين السماحة والصبر، حيث تتطلب قدراً كبيراً من الصبر، قال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى: ٤٣].

بعدما عرضت عليك من آيات الله وسنة رسوله ﷺ وأقوال أهل العلم من محاسن الإسلام في السماحة فكن سمحاً إذا عاملت، سمحاً في دعوتك، وفي بيعك وشرائك ومعاملتك؛ لتحظى بالأجر عند الله سبحانه، ولتجسد أخلاقيات الإسلام في كل تصرفاتك، وتكون قدوة حسنة بأفعالك وأقوالك، كما أمرك الله.

اليسر والسهولة

ومن محاسن الإسلام اليسر والسهولة والرفق والسعة وضده العسر والأمر بيسر أي هين واليسر فضيلة أخلاقية قرآنية فالمؤمن إنسان سمح سهل هين.

ولقد وردت مادة «اليسر» في مواطن من القرآن الكريم توحي بالتقدير والتكريم لهذه الفضيلة الأخلاقية يقول الله سبحانه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[البقرة: ١٨٥]، أي إن من حكمة الله في تشريعه كما يشير إلى ذلك في تفسير المفاز أن يجعله الله معتدلاً وسطاً ميسوراً رحمة بكم وفضلاً عليكم.

وفي هذا ترغيب في قبول ما شرعه الله سبحانه من تيسير ورخصة والله تعالى يحب أن تؤتى رخصه، كما تؤتى عزائمه والله تعالى لا يريد إعنات الناس بأحكامه وإنما يريد اليسر بهم ويريد خيرهم ونفعهم.

ومن هذه الرحمة أخذ العلماء قاعدتهم التي تقول: «المشقة تجلب التيسير» وكأن الله سبحانه حين يستن مع عباده هذه السنة الكريمة سنة اليسر

والسهولة والرفق يوحي إليهم أن يأخذوا أنفسهم بالتياسر والملاينة مع الناس ليعطوا صورة عملية للأبرار الذين أفادوا أنفسهم وغيرهم من التطبع بأخلاق القرآن المجيد والله ﷻ يقول في سورة القمر: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾ [القمر: ٢٢].

وكرر هذا النص الحكيم هنا أربع مرات، فهو جل شأنه جعل كتابه شريعة يسودها اليسر والرفق والرحمة: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وهو سبحانه ييسر قرآنه على ألسنة الناس وييسر علمه على قلوب قوم – وفهمه على قلوب قوم – وييسر حفظه على قلوب قوم وكلهم من أهل القرآن.

يقول سبحانه: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾﴾ [الأعلى: ٨]، أي نوفقك للشريعة السمحة التي يسهل على النفوس قبولها، ولا يصعب لهم الإيمان واليقين، وإذا كان الله سبحانه قد تفضل بهذا على الإنسان فما أجدره بأن يقابل الجميل بالجميل، قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٦٠].

ويقول سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الليل: ٥– ٧]، أي من أعطى المال والجهد لمعاونة المحتاج ووقى نفسه وصانها عن الشر والسوء وصدق بأفضل الطرق وهو طريق الله ﷻ

تفضل الله عليه فيسره لليسرى أن هيأه لأيسر الخطتين وأسهلهما في أصل الفطرة، وإذا كنا قد عرفنا أن الله ﷻ قد قال لرسوله ﷺ: ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الأعلى: ٨].

فهذه بشرى عظيمة ليست مقصورة على الرسول ﷺ، بل تشمل أتباعه من ورائه، إذ تبشرهم بأن دينهم دين يسر، وأن فيهم رسول الرحمة والرفق، وأن عقيدتهم عقيدة الوضوح والسهولة واليسر، ومن يسره الله لليسرى فقد وصل في يسر ورفق وسهولة.

ويقول سبحانه في سورة الشرح: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح: ٥ – ٦]، أي أن كل شدة أو عسر معه يسر يهيئه الله تبارك وتعالى للإنسان العاقل ولفظة «مع» تفيد معنى المصاحبة والاقتران بين العسر واليسر، أي لابد من اليسر مع العسر بفضل الله وتوفيقه، والعسر إنما يكون في الدنيا بالشدائد التي تنالهم، وأما اليسر بالنسبة للمؤمنين فيسران: أحدهما في الدنيا بزوال البلاء وتحقيق الرجاء، واليسر الآخر في الآخرة بالثواب وحسن الجزاء.

والقرآن الكريم يحث على فضيلة اليسر والتياسر مع الذين يستحقون التيسير كمن يتعرضون للعسر عند قضاء ما عليهم من ديون فيرشد سبحانه

في معاملة منْ عليه دين يعجز عن أدائه في موعده، ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ [البقرة: ٢٨٠]، أي إن كان هناك غريم لكم أصابه عسر فعجز عن أداء الدين الذي عليه لكم فيسروا عليه وأمهلوه إلى أن يتيسر له المال، فيؤديه عندما يتمكن من الأداء.

وننتقل من رياض القرآن الكريم إلى رياض السنة المطهرة، لنجد من وراء آيات الله البينات الواردة في اليسر والسماحة والرفق فيضاً من الأحاديث الشريفة الداعية إلى هذه الفضيلة الحاثة عليها المذكرة بها، فالرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول «بعثت بالحنيفية السمحة»(١) أي المستقيمة السهلة الميسرة، ويقول ﷺ: «اعملوا وسددوا وقاربوا فكل ميسر لما خلق له»(٢) أي مهيئ مسهل مصروف، ويقول ﷺ: «يسروا ولا تعسروا»(٣) وقد أخبر ﷺ عن نفسه بقوله: «ولكن الله بعثني معلماً ميسراً»(٤) وقال ﷺ: «إن هذا الدين يسر»(٥) أي سمح سهل قليل التشدد.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٦٦/٥)، (١١٦/٦، ٢٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٦٠٥)، ومسلم (رقم ٢٦٤٧).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٦٩)، ومسلم (رقم ١٧٣٤).

(٤) أخرجه مسلم (رقم ١٤٧٨).

(٥) أخرجه البخاري (رقم ٣٩)، ومسلم (رقم ٢٨١٦).

وإذا كان المصطفى ﷺ هو المثل الأعلى لكل مسلم بمقتضى قول الله ﷻ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢١]، فمن واجبنا أن نحذو حذوه عليه الصلاة والسلام، فقد كان القدوة المثالية في التحلي بفضيلة اليسر والرفق والسعة واللين، فما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أختار أيسرهما[(١)]. وفي رواية أخرى: ما عرض على رسول الله ﷺ أمران أحدهما أيسر من الآخر إلا اختار الذي هو أيسر.

وكان صلوات الله وسلامه عليه ولا يتعنت ولا يتشدد ولا يتكلف، بل كان يمضي على طبيعته وجبلته التي جبله الله عليها، يلبس ما تيسر من الثياب، ويأكل ما تيسر من الطعام، وما عاب طعاماً قط، إن اشتهاه أكله، وإن كرهه تركه دون أن يعيبه.

وكان ينام على ما تيسر من فراش: نام على السرير، ونام على الحصير، ونام على النطع، ونام على الأرض، ولقد تحدث أنس بن مالك رضي الله عنه فقال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي أف قط ولا قال لشيء صنعته لِمَ صنعته ولا لشيء تركته لم تركته[(٢)]، ولا أمر بأمر فتوانيت

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٧٨٦)، ومسلم (رقم ٢٣٢٧).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٧٦٨، ٦٠٣٨)، ومسلم (رقم ٢٣٠٩).

فيه فعاتبني عليه فإن عاتبني أحد من أهله، قال: دعوه فلو قدر شيء كان.

ولقد حدث أن دخل أعرابي مسجد الرسول ﷺ وقعد يبول فيه فسارع الصحابة رضي الله عنهم إلى منعه والإنكار عليه فمنعهم الرسول ﷺ قائلاً لا تزرموه «أي لا تقطعوا عليه بولته» وأريقوا على بوله سبحلاً «أي دلواً من ماء فإنما بعثتم ميسرين لا معسرين»[1] ثم وجههم إلى صيانة المساجد وحفظ نظافتها فقال: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر»[2].

إن ديناً هذه مكارمه ومحاسنه وسهولته ويسره، وإن نبياً هذه صفاته ومكارم أخلاقه وسماحته ويسره، لواجب على كل مسلم أن يتمسك بهذا الدين، وأن يطيع خاتم النبيين محمداً ﷺ، وهو القائل: «تركت فيكم شيئين: ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً: كتاب الله، وسنتي»[3].

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٢٠)، ومسلم (رقم ٢٨٤، ٢٨٥).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٨٥).

(٣) صححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٢٩٣٧).

الرعاية بالأيتام والفقراء والمساكين

الحمد لله الذي أمر عباده بالإحسان إلى الأيتام والضعفاء والمساكين، وأشاد بذكرهم ورفع قدرهم في كتابه المبين وفي سنة سيد المرسلين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أتم الصلاة والتسليم.

إن المتأمل والمتدبر في كتاب الله المبين وفي سنة سيد المرسلين يجد العجب العجاب من العناية والرعاية بالأيتام والفقراء والمساكين، وجزيل الأجر وعظم المثوبة من رب العالمين للعاملين بإخلاص لهذه الفئة من الناس المقصوصة الجناح، والتي تحتاج إلى المحسنين والموفقين والمسددين إلى لفت نظر لهؤلاء الناس والاهتمام بهم ورعايتهم ليحظى المحسن إليهم بعظيم الأجر وجزيل المثوبة من الله ﷻ، وإن من محاسن الإسلام الاهتمام بهؤلاء، وقد جاء أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يرى أن له فضلاً على من دونه فقال رسول الله ﷺ أنه قال «من كان في عون أخيه كان الله في عونه»(1) وهذا

(1) أخرجه البخاري بلفظ: «ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته» (رقم ٢٤٤٢)، ومسلم (رقم ٢٥٨٠). =

عام يتناول إعانة كل مسلم، ومن باب أولى الضعفاء كالأرملة واليتيم والمسكين، فكم دفع الله عن المحسنين والراحمين للضعفاء واليتامى من بلية، ووقاهم شر كوارث وحوادث ورزية.

فالله تعالى يحسن لمن أحسن لعباده، ولا يضيع لديه عمل عامل، فمن عامل عباده باللطف والإحسان وبذل المعروف عامله الله كذلك، بل أحسن وأبقى وأفضل، فالحسنة بعشر أمثالها. فيا أخوة الإسلام الإحسان الإحسان إلى الفقراء والضعفاء والأيتام والأرامل، يا من أراد النجاة من النار وعلو المنزلة من الدار الآخرة فقد جعل الله لكم أبواباً كثيرة من الخير، ومنها اللجوء إلى الله من باب الشفقة والإحسان إلى الضعفاء والمساكين والأرامل والأيتام وذوي الحاجات، وليحسن إليهم بما يستطيع، فالله تعالى قريب من المنكسرة قلوبهم، رحيم بمن يرحم عباده، فلا تحقر شيئاً من المعروف ولو بكلمة طيبة، قال ﷺ في الحديث الصحيح: «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق»[1].

إن المتأمل والمتدبر في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ وفي آثار السلف الصالح يجد محاسن الإسلام بارزة واضحة جلية في العطف على الفقراء

=أما اللفظ المذكور فهو عند مسلم (رقم ٢٦٩٩)، والترمذي (رقم ١٤٢٥).

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٢٦).

والأيتام والأرامل وضعفة المسلمين، وما أفاضه سبحانه لهم من الأجر العظيم والثواب الجزيل لمن أحسن إليهم. وسيأتي بيان ذلك.

فاليتيم هو الذي فقد والديه أو أحدهما وهو الذي لا كاسب له، وليس له قوة يكتسب بها، مقصوص الجناح، ولهذا أكثر الله سبحانه من ذكر اليتيم في كتابه ترغيباً في الإحسان إليه، وترهيباً من الاعتداء عليه وهضم حقه والتساهل في ذلك وأكل ماله أو أهانته، فوصى الله سبحانه عباده بالأيتام وحضهم ورغبهم في إيصال الخير والإحسان إليهم، وفرض عليهم في أموالهم حقاً للأيتام والفقراء والمساكين، وتعظيم شأن اليتيم وشدة الاعتناء به من الرب الكريم ذكر عنه آيتين بلفظ واحد في سورتين من القرآن الكريم، تتضمن النهي الأكيد والتحذير الشديد عن تناول ماله والابتعاد عنه، إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده، قال تعالى: ﴿ **وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥ** ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿ **وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ** ﴾ [الإسراء: ٣٤]، وقال تعالى في التحذير من أكل أموال اليتامى ظلماً: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ﴿١٠﴾** ﴾ [النساء: ١٠]، وعند ذلك تحرج الصحابة رضي الله عنهم ممن كان عنده يتيم فلحقهم الخوف الشديد وانزعجت

قلوبهم، إذ هم أهل القلوب الواعية والهمم العالية والقلوب الخائفة من الله تعالى، حتى نزل قوله سبحانه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، إلى قوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، كان طاوس رحمه الله إذا سئل عن اليتيم تلى هذه الآية ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، قال بعض السلف: كن لليتيم كالأب.

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾ [الضحى: ٩]، والنهي للنبي ﷺ فهو لأمته، قال بعض المفسرين على هذه الآية: أي لا تسيء معاملة اليتيم، ولا يضيق صدرك عليه، ولا تنهره، بل أكرمه وأعطه ما تيسر، واصنع به كما تحب أن يصنع لولدك من بعدك، وقال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾ [الماعون: ١ - ٣]، قال بعض المفسرين: هو الذي يدفع اليتيم بعنف وشدة ولا يرحمه، لقساوة قلبه، وذلك لأنه لا يرجو ثواباً ولا يخاف عقاباً.

فليحذر المؤمن الذي يخاف الله واليوم الآخر أن يقع منه على اليتيم زلات أو غلظة كلام وشدة وقسوة قلب أو يكلفه ما لا يطيق من الأعمال، وليجعل الآيات والأحاديث النبوية الواردة عن الأيتام نصب عينه، لعله يحظى بالثواب وينجو من العقاب، ولخوف رسول الله ﷺ على أصحابه

من ولاية اليتيم قال لأبي ذر: «يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً وإني أحب لك ما أحب لنفسي لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم»[1] ومن رحمة الله تعالى بالأيتام ولطفه ورأفته بهم أن جعل لهم نصيباً من الفيء والغنيمة ومن النفقات الواجبة على المسلمين والمستحبة، قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ ﴾ [البقرة: ٢١٥]، وقد ورد في حديث صحيح أن رسول الله ﷺ قال: «من مسح رأس يتيم فله بكل شعرة تمر عليها يده حسنة» وفي لفظ آخر: «من مسح رأس يتيم لا يمسحه إلا لله فله بكل شعرة مرت عليها يده حسنة»[2] فما أعظم هذا الثواب وما أهونه وأيسره على من يسره الله عليه، وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنة»[3] وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٨٢٦).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٠، ٢٦٥)، وعزاه في المشكاة إلى أحمد والترمذي، وقال: هذا حديث غريب.

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٥٣٠٤).

بشارة المسلم بما يسره

التبشير – شعار أعلنه المنصرون وتسموا به وسلكوا طرقاً وأساليب يريدون التوصل به إلى غايتهم وهدفهم وكثيراً ما نرى من أساليبهم ما يستميل قلوب ضعاف الإيمان أو من لا دين له فيكسبون بذلك الوصول إلى غاياتهم وأهدافهم بإدخالهم دين النصرانية حيث يقدمون الغذاء والكساء والدواء والتعليم وكل ما يوصل إلى إيناسهم وارتياحهم وبث الأمل في القلوب، هكذا يفعلون ونحن المسلمون أحوج ما نكون إلى جذب قلوب الناس لهذا الدين وهذا النبي الذي اصطفاه الله وجعله خاتم الرسل ودين الإسلام خاتم الديانات، فالداعية إلى الله يجب أن يتحبب إلى الناس ويستميل قلوبهم ويبشرهم ولا ينفرهم قال ﷺ: «بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا»(١).

لقد بُعث رسول الله ﷺ بشيراً ونذيراً لأعدائه بل مهمة الرسل جميعهم لا تعدو هذين الوصفين: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ﴾

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٩)، ومسلم (رقم ١٧٣٤).

[الأنعام: ٤٨، والكهف: ٥٦]، وقد أمر الله سبحانه في كتابه بتبشير المؤمنين والصابرين والمحسنين والمخبتين في آيات كثيرة، وكان من أساليب المصطفى ﷺ أن يختار الوقت المناسب والقدر المناسب لأداء الموعظة والعلم كي لا ينفر الصحابة وفي ذلك يقول ﷺ «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا»(١).

وعلق عليه ابن حجر بقوله المراد تأليف من قرب إسلامه وترك التشديد عليه في الابتداء وكذلك الزجر عن المعاصي ينبغي أن يكون بتلطف ليقبل، وكذا تعليم العلم ينبغي أن يكون بالتدرج لأن الشيء إذا كان في ابتدائه سهلاً حبب إلى من يدخل فيه وتلقاه بانبساط وكانت عاقبته غالباً الازدياد.

ومن محاسن الإسلام وحكمه العالية أنه أستعمل أساليب التبشير في إيقاظ الهمم والتنشيط للطاعة ومن ذلك قوله ﷺ: «بشر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة»(٢).

وعن أنس رضي الله عنه قال: أخّر رسول الله ﷺ الصلاة ذات ليلة إلى شطر الليل، ثم خرج علينا، فلما صلى أقبل علينا بوجهه، فقال: «إن الناس قد صلوا ورقدوا، وإنكم لن تزالوا في صلاة ما انتظرتم الصلاة»(٣).

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٩)، ومسلم (رقم ١٧٣٤).
(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٢٢٣)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٢٨٢٣).
(٣) أخرجه البخاري (رقم ٨٤٧)، ومسلم (رقم ٦٤٠).

وفي رواية قال رسول الله ﷺ: «على رسلكم، أبشروا، فإن من نعمة الله عليكم، أنه ليس أحد من الناس يصلي هذه الساعة غيركم»، أو قال: «ما صلى هذه الساعة عن أحد غيركم» قال: قال أبو موسى: فرجعنا ففرحنا بما سمعنا من رسول الله ﷺ(١).

والمؤمن محتاج في حال البلاء إلى من يكشف همه ويبشره بما يسره إما بفرح عاجل أو بأجر آجل، ولقد وجد رسول الله ﷺ أم العلاء مريضة فقال لها: «أبشري يا أم العلاء، فإن مرض المسلم يذهب خطاياه، كما تُذهب النار خبث الحديد»(٢).

ويحتاج الإنسان في حالات الاضطراب والقلق النفسي في بعض المواقف إلى التبشير بما يزيل عنه دواعي الاضطراب، وينفس عنه الهم والغم، فبعد نزول الوحي على رسول الله ﷺ ذكر لخديجة رضي الله عنها ما جرى به وأخبرها بخوفه على نفسه فبشرته رضي الله عنها بأن له من سوابق الخير ما يستبعد معها أن يصله في نفسه ما يكره، فقالت: «كلا أبشر فو الله لا يخزيك الله أبداً، فو الله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم،

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٦٧)، ومسلم (رقم ٦٤١).

(٢) صححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٣٧).

وتعين على نوائب الحق»[1].

وكان هذا شأن رسول الله ﷺ مع أمته ليزيل عنها دواعي القلق على مستقبل هذا الدين، قال ﷺ: «بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة والدين والنصر والتمكين في الأرض»[2].

وكان ﷺ يعامل أصحابه بالبشر والسماحة فلم يكن ليعنف أصحابه بفظاظة وغلظة، فحينما سمع أصحاب رسول الله ﷺ بقدوم أبي عبيدة بجزية البحرين اجتمعوا على صلاة الفجر، وتبعوا رسول الله ﷺ بعد الصلاة، ففهم رسول الله ﷺ ماذا يريدون قال: «فأبشروا وأمِّلوا ما يسركم، فو الله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا»[3].

لقد بشر الله المبايعين على الجهاد بما أدخر الله لهم من الأجر إن أوفوا بالبيعة وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ﴾ [التوبة: ١١١]، وبشر رسول الله ﷺ الموحدين بالجنة جزاء التزامهم بكلمة التوحيد قولاً واعتقاداً وعملاً رحمة منه سبحانه وفضلاً أبشروا وبشروا من وراءكم

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣)، ومسلم (رقم ١٦٠).
(٢) صححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٢٨٢٥).
(٣) أخرجه البخاري (رقم ٤٠١٥)، ومسلم (رقم ٢٩٦١).

أنه من شهد أن لا إله إلا الله صادقاً من قلبه دخل الجنة، وقال جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ مبشراً المؤمنين الحذرين من صور الشرك كبيرها وصغيرها: «وبشر أمتك أنه من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة».

وفي رواية: «بشر الناس أنه من قال: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وجبت له الجنة»[1].

وقد وعد الله الذين آمنوا وكانوا يتقون بأن ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ﴾[يونس: ٦٤]، ومن البشرى العاجلة في الحياة الدنيا أن يلقى المسلم قبولاً حسناً من إخوانه، وأن تشكره على إحسانه، فذلك من التبشير، وقد روى مسلم في باب «إذا أثنى على الصالح فهي بشرى ولا تضره» قيل لرسول الله ﷺ: أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير، ويحمده الناس عليه؟ قال: «تلك عاجل بشرى المؤمن»[2].

وحال النبي ﷺ مع أصحابه التبشير كما قوله ﷺ: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا، وقاربوا، وابشروا»[3].

قال في الفتح وابشروا أي بالثواب على العمل الدائم وإن قل.

---

(١) صححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٢٨٢٤).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٤٢).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣٩)، ومسلم (رقم ٢٨١٦).

وفي توبة كعب بن مالك صورة عملية من صور التعاطف الاجتماعي والتهنئة بقبول التوبة حيث ذهب إليه عدد من المبشرين فناداه أحدهم قبل أن يصل إليه «يا كعب بن مالك» أبشر، يقول كعب فخررت ساجداً وعرفت أنه قد جاء فرج، وتلقاه الناس فوجاً فوجاً يهنئونه بالتوبة ويقولون له نهنئك توبة الله عليك، ولما سلم على رسول الله ﷺ قال ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور «أبشر بخير يوم مَرَّ عليك منذ ولدتك أمك»(١).

مما مر من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ تبين أن رسول الله ﷺ يحب الفأل وتبشير المسلم بما يسره وفي ذلك حث لكل مسلم ولاسيما الدعاة إلى الله سبحانه أن يسلكوا هذا المسلك وذلك من محاسن الإسلام التي حث عليها الإسلام.

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٤١٨)، ومسلم (رقم ٢٧٦٩).

إرشاد المسلم إلى العمل لمحبة الله

محبة الله سبحانه واجبة على كل مسلم ولها أسباب، العمل بها يوجب محبة الله تعالى، ومن محاسن الإسلام إرشاده إلى العمل لمحبة الله، لأن المسلم في أشد الحاجة إلى الوقوف عليها والتأمل فيها، حتى يستجمع زاداً أثناء السفر وبعد انتهاء السفر إلى دار المستقر.

وقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله عشرة أسباب موجبة لمحبة الله، ومنها: التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض، فإنها موصلة إلى درجة المحبوبية بعد المحبة، والعمل بها سبب لرضاه سبحانه، فمؤدي الفرائض كاملة محب لله، ومؤديها وبعدها النوافل محبوب لله، يدل على ذلك الحديث الذي رواه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه سبحانه وذلك بقوله: «وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه»[1]،

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٥٠٢).

فللمتقرب بالنوافل خصوصية وميزة تجعله أعلى مرتبة من الذي يؤدي الفرائض فقط، لأن الفرائض مطلوبة من العبد أصلاً وهو مكلف بها، وآثم بتركها والتفريط فيها.

قال ابن حجر رحمه الله: من جملة ما شرعت له النوافل جبر الفرائض كما صح في الحديث: «انظروا هل لعبدي من تطوع فتكمل به فريضته»[1]. الحديث بما معناه، فتبين أن المراد بالتقرب بالنوافل أن تقع ممن أدى الفرائض لا من أخل بها، والنوافل المتقرب بها إلى الله تعالى أنواع، وهي الزيادات على أنواع الفرائض: كالصلاة والزكاة والصيام والحج والعمرة.

النوافل في الصلاة ثلاثة أقسام: سنن، ومستحبات، وتطوعات. والمقصود بالسنن ما نقل عن رسول الله ﷺ المواظبة عليه، والمستحب ما ورد الخبر بفضله ولم ينقل المواظبة عليه، والتطوعات ما وراء ذلك ممن لم يرد به، لكن ورد الإذن به، والعبد يتطوع بفعله، فالسنن الراتبة عشر ركعات في الحضر، ثبت عن رسول الله ﷺ أنه كان يحافظ عليها قال عبدالله بن عمر: حفظت عن النبي ﷺ عشر ركعات: ركعتين قبل الظهر وركعتين بعدها، وركعتين بعد المغرب في بيته، وركعتين بعد العشاء في بيته،

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٤١٣) وقال: حديث حسن غريب. وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٢٠٢٠).

وركعتين قبل صلاة الصبح.

فهذه الركعات العشر كما قال ابن القيم كان النبي ﷺ لا يدعها في الحضر أبداً، ولما فاتته الركعتان قبل الظهر قضاهما بعد العصر وداوم عليها، وكان ﷺ يصلي أربعاً قبل الظهر، فقد روت عائشة رضي الله عنها أنه ﷺ كان لا يدع أربعاً قبل الظهر[1]، عن أم حبيبة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صلى في يوم وليلة اثنتي عشرة ركعة بني له بهن بيت في الجنة»[2].

ومن الصلوات التي كان النبي ﷺ يحافظ عليها صلاة الوتر فقد كان لا يدعها – هي وركعتي الفجر – في سفر ولا حضر وأمر عليه الصلاة والسلام بها فقال: «اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وتراً»[3].

قال ابن القيم رحمه الله وكان في السفر يواظب على سنة الفجر والوتر أشد من جميع النوافل دون سائر السنن ولم ينقل عنه في السفر أنه صلى سنة راتبة غيرهما[4]، وأما المستحبات فصلاة الضحى فقد وردت فيها أحاديث

(١) أخرجه النسائي (رقم ١٧٥٥).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٧٢٨).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٩٩٨) وبمعناه أخرجه مسلم (رقم ٧٤٩).

(٤) انظر: زاد المعاد (١/ ٤٧٣ – ٤٧٤).

صحيحة تؤكد فضلها، وورد في فضلها عن أبي ذر ﵁ أن النبي ﷺ قال: «يصبح على كل سُلامى من أحدكم صدقة، فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى»[1].

والقسم الثالث من نوافل الصلاة وهو التطوعات: الركعتان قبل المغرب، فقد أذن النبي ﷺ لأصحابه بصلاتهما.

قال ابن القيم ﵀: وأما الركعتان قبل المغرب فإن لم ينقل عنه ﷺ أنه كان يصليهما، وصح عنه أنه أمر صحابته عليهما، وكان يراهم يصلونها فلم يأمرهم ولم ينههم، وثبت تخييره ﷺ لأصحابه في الصلاة قبل المغرب في حديث عبد الله المزني، قال، قال رسول الله ﷺ: «صلوا قبل صلاة المغرب» قال في الثلاثة: «لمن شاء». كراهية أن يتخذها الناس سنة[2].

أما نوافل الصيام فما نقل عن النبي ﷺ المواظبة عليه في الغالب فهو سنة مؤكدة، وما وردت الأحاديث بفضله، ولم ينقل عن النبي ﷺ المواظبة عليه فهو من مستحبات الصوم، أما ما وراء ذلك من الصيام في

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٧٢٠).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١١٨٣).

الأيام والأحوال غير المنهي عنها فهو من التطوعات المطلقة المثاب عليها.

فمن السنن المؤكدة صيام الاثنين والخميس، فقد كان رسول الله ﷺ يتحرى صومهما، كما أخبرت عائشة رضي الله عنها وكان ﷺ يقول: «تعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس، فأحب أن يعرض عملي وأنا صائم»[1]، وصيام ثلاثة أيام من كل شهر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أوصاني خليلي ﷺ بثلاث: بصيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أنام[2]. وصيام يوم عاشوراء.

وقد كان النبي ﷺ يتحرى صومه على سائر الأيام ويأمر بصيامه، وروي عن ابن عباس أنه قال: صوموا التاسع والعاشر وخالفوا اليهود. وصح أنه يكفر السنة الماضية[3]، وصيام يوم عرفة لغير الحاج فقد صح عنه ﷺ أنه قال: يكفر السنة الماضية والباقية[4]، وصيام ستة أيام من شوال وقد كان ﷺ يصومها، وصح عنه أنه قال: «من صام رمضان ثم أتبعه ستاً من

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٧٤٧) وقال: حديث حسن غريب. وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٢٩٥٩).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٩٨١) ومسلم (رقم ٧٢١).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ١١٦٢).

(٤) أخرجه مسلم (رقم ١١٦٢).

شوال كان كصيام الدهر»(١).

والتنفل المطلق في الصيام قال ﷺ: «من صام يوماً في سبيل الله بَعَّدَ الله وجهه عن النار سبعين خريفاً»(٢)، وصيام التطوع يزداد فضلاً بحسب شرف الزمان، كما أن صلاة التطوع تزداد ثواباً بحسب شرف المكان، وصدقة التطوع وهي ما زاد على الزكاة المفروضة، فالمتطوع بالصدقة محب لله ومحبوب من الله، لأنه غلب نفسه المجبولة على حب المال، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العاديات: ٨] وقال عليه الصلاة والسلام: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها، كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل»(٣).

والصدقة بغير المال نوعان: أحدهما ما فيه تعدية الإحسان إلى الخلق فيكون صدقة عليهم، وذلك كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنه دعاء إلى طاعة الله وكف عن معاصيه، وذلك خير من النفع بالمال، وكذلك تعليم العلم النافع وإقراء القرآن وإزالة الأذى.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١١٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٨٤٠)، ومسلم (رقم ١١٥٣).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ١٤١٠)، ومسلم بلفظ قريب (رقم ١٠١٤).

والنوع الثاني من الصدقة التي ليست مالية ما نفعه قاصر على فاعله، كأنواع الذكر من التكبير والتسبيح والتحميد والاستغفار والمشي إلى المساجد صدقة، والتطوع في الحج والعمرة قال ﷺ: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»(١) والعمرة مفضلة في كل مواسم العام وأيامه، ولكن فضلها يضاعف في رمضان، لقوله ﷺ: «عمرة في رمضان حجة» وفي رواية: «تعدل حجة معي»(٢)، وعلى العبد المؤمن أن يتنقل بقلبه بين الأعمال التي تذيقه حلاوة الإيمان، وذلك بالتنويع بين أعمال أهل الإحسان.

قال الحسن البصري رحمه الله: تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة، وفي الذكر، وفي قراءة القرآن، فإن وجدتم وإلا فاعلموا أن الباب مغلق.

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٧٧٣)، ومسلم (رقم ١٣٤٩).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٩٣٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٤٠٩٧، ٤٠٩٨).

مكارم الأخلاق

من محاسن الإسلام الإحسان وهو خُلق رفيع من مكارم الأخلاق، وهو نوعان: إحسان في عبادة الخالق بأن يعبد الله وكأنه يراه فإن لم يكن يراه فإن الله يراه، وهو الجد في القيام بحقوق الله على وجه النصح والتكميل لها. وإحسان في حقوق الخلق، بل وحتى الإحسان إلى البهائم والرحمة بالحيوان والإحسان إليه عند ذبحه، عن شداد بن أوس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته»(١).

فالحديث يدعو المسلم لفعل الخير والإحسان إلى الخلق والرفق بهم والشفقة عليهم، كما يحث على الإتقان في كل الأعمال. لكن كل شيء بحسبه حتى مع الذبيحة حيث ينبغي الإسراع، الإسراع في إزهاق النفوس التي يباح إزهاقها على أسهل الوجوه. لأنه لا يجوز تعذيب الحيوان عند

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٩٥٥)، وأبو داود (رقم ٢٨١٥)، والترمذي (رقم ١٤٠٩)، والنسائي (رقم ٤٤١٧)، وابن ماجه (رقم ٣١٧٠).

ذبحه، كما لا يجوز التمثيل بالرجل الذي يراد قتله لا قبل القتل ولا بعده، إلا الذي استحق حكم الحرابة على نحو ما جاء في آية الحرابة متى استحق الميتة مثل به. فالإحسان هو بذل جميع المنافع من أي نوع كان لأي مخلوق يكون، ومن كانت طريقته الإحسان أحسن الله جزاءه.

- ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٦٠].
- ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].
- ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ [الزمر: ١٠].
- ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

أي المحسنين في عبادة الله، المحسنين إلى عباد الله، والله تعالى يوجب على عباده العدل من الإحسان ويندبهم إلى زيادة الفضل منه، قال تعالى في المعاملة: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ﴾ [البقرة: ٢٣٧]. أي اجعلوا للفضل والإحسان موضعاً من معاملاتهم، ولا تستقصوا في جميع الحقوق، بل يسروا ولا تعسروا، وتسامحوا في البيع والشراء، والقضاء والاقتضاء ومن ألزم نفسه هذا المعروف نال خيراً كثيراً وإحساناً كبيراً.

حرمة تعذيب الحيوان والأمر بالإحسان إلى المملوك خلق دعا إليه الإسلام، وحذر من مغبة تعذيبه، فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ

قال: «عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها ولا سقتها ـ أي حبستها ـ ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»[1].

خشاش الأرض هو هوامها وحشراتها، والحيوان مخلوق لله تعالى ومنه المسخر والمتوحش، والمسخر للإنسان قد يتمرد عليه وقد بيَّن الإسلام كيفية التخلص منه متى كان مصدراً للإيذاء. وتلك الطريق رسمها الإسلام عارية من التعذيب، وإنما فيها راحة له وخلاص من شره، وهذا الحديث ينفر من استعمال الطريق المؤلم للحيوان المعذب له، فقد دل على تحريم قتل من أمر الله بقتله عطشاً ولو كان هرة. وعدم جواز حبس الحيوان من أجل اتخاذه غرضاً، وفي ذلك حث على الإحسان إلى الحيوان، وبيان أنه يجوز إمساك ما يقتنى من الحيوان بشرط القيام بكفايته والإحسان إليه.

لقد أمر المصطفى ﷺ اجتناب إيذاء الحيوان وترك سبه ولعنه، فعن عمران بن الحصين رضي الله عنهما قال: بينما رسول الله ﷺ في بعض أسفاره وامرأة من الأنصار على ناقة فضجرت فلعنتها، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: «خذوا ما عليها ودعوها فإنها ملعونة»[2] قال عمران: فكأني أراها الآن

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٣٦٥)، ومسلم (رقم ٢٢٤٢).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٩٥).

تمشي في الناس ما يعرض لها أحد.

النبي ﷺ رحمة مهداة للخلق إنسهم وجنهم، وهو رحمة للحيوان أيضاً، والحيوان مسخر للإنسان نعمة من الله وفضلاً منه، يقضي الإنسان عليه حاجته، وقد أمر بالإحسان إليه، والرسول ﷺ مؤدب الخلق وحامي حقوق المخلوقات، حتى وإن كان حيواناً. فالتعدي عليه وحرمانه من حقه أمر محرم شرعاً، والحيوان مخلوق مسخر على العبد شكر الله على نعمته، وعليه رعايته ورفع الظلم عنه وتجنب ما يضره ويؤذيه ولو كان شتماً. ولهذا نرى الرسول ﷺ يقف موقف المدافع عن الحيوان ويؤدب صاحبه لما لعن الحيوان ويأمر صاحبه بتركه وعتقه من ملكه بسبب الاعتداء عليه بغير مبرر. وهل دليل على حرمة لعن الدواب وشمتها والإساءة إليها، وقد جاء في حديث آخر ما يشبه ذلك، فعن أبي برزة نضلة بن عبيد الأسلمي رضي الله عنه قال: بينما جارية على ناقة عليها بعض متاع القوم إذ بصرت بالنبي ﷺ وتضايق بهم الجبل فقالت حَل، اللهم العنها فقال النبي ﷺ: «لا تصاحبنا ناقة عليها لعنة»[1].

خوف الله ومراقبته في السر والعلن وإحسان العمل يأمر به المصطفى

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٩٦).

ﷺ، فعن أبي ذر جندب بن جنادة، وأبي عبد الرحمن معاذ بن جبل رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»(١).

فالحديث يدل على استحباب وصية المسلم لأخيه وتذكيره بما يجب عليه نحو ربه ونفسه وإخوانه المسلمين. ومن حسن الخلق طلاقة الوجه، وكف الأذى وبذل المعروف ومعاملة الناس بمثل ما تحب أن يعاملوك، ويدل الحديث أيضاً على أن الله معبود في كل مكان، وأن فعل الحسنات تمحو السيئات، وأهمية معاملة الناس بالأخلاق الحسنة، وهذا الحديث من جوامع كلمه ﷺ، فقد اشتمل على الوصية بأداء حقوق الله عز وجل في أي مكان كان العبد في سره وعلنه وحضره وسفره.

كما يحض الحديث على تطهير النفس وتزكيتها، وعلى المحافظة على حق نفس الإنسان الدينية، وعلى مخالطة العباد وأداء حقوقهم عند المخالطة، ومعاملتهم بالخلق الحسن، فصلوات الله وسلامه على النبي الكريم.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/١٥٣)، والترمذي (رقم ١٩٨٧)، والحاكم (١/٥٤). وقال الترمذي: حسن صحيح. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. وحسنه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٩٧).

مكارم الأخلاق

لا يخفى على كل منصف كمال الشريعة الإسلامية من جميع النواحي، وإن من محاسن الإسلام في كمال الشريعة من ناحية الأخلاق ما ذكره الشيخ محمد بن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث قال: إن النبي ﷺ أخبر أن من مقاصد بعثته إتمام محاسن الأخلاق، فقد قال ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[1] فالشرائع السابقة التي شرعها الله تعالى لعباده كلها تحث على الأخلاق الفاضلة.

ولهذا ذكر أهل العلم أن الأخلاق الفاضلة مما أطبقت الشرائع على طلبها، ولكن هذه الشريعة الكاملة جاء النبي ﷺ فيها بتمام مكارم الأخلاق ومحاسن الخصال، ولنضرب لذلك مثلاً: مسألة القصاص ذكر أهل العلم في مسألة القصاص أي لو أن أحداً جنى على أحد، فهل يقتص منه أم

---

(١) أخرجه أحمد (٢/٣٨١)، والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٢٧٣)، والحاكم (٢/٦١٣)، وصححه ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٢٣٤٩).

لا؟ ذكروا: أن القصاص في شريعة اليهود حتمي ولابد منه ولا خيار للمجني عليهم فيه، وأن الأمر في شريعة النصارى بالعكس، وهو وجوب العفو، لكن شريعتنا جاءت كاملة من الوجهين: ففيها القصاص وفيها العفو، لأن في أخذ الجاني بجنايته حزماً وكفاً للشر، وفي العفو عنه إحساناً وجميلاً، وبذل المعروف فيمن عفوت عنه، فجاءت شريعتنا والحمد لله مكملة، خيَّرت من له الحق بين العفو والأخذ، لأجل أن يعفو في مقام العفو، وأن يأخذ في مقام الأخذ، وهذا بلا شك أفضل من شريعة اليهود التي ضيعت حق المجني عليهم في العفو، الذي قد يكون فيه مصلحة لهم، وأفضل من شريعة النصارى التي ضيعت حق المجني عليهم أيضاً، فأوجبت العفو، وقد تكون المصلحة في الأخذ وإنزال العقوبة.

مجالات حسن الخلق كثيرة مع الخلق ومع الخالق ﷻ، فحسن الخلق في معاملة الخالق يجمع ثلاثة أمور:

١ – تلقي أخبار الله بالتصديق.

٢ – تلقي أحكامه بالتنفيذ والتطبيق.

٣ – وتلقي أقداره بالصبر والرضا.

فهذه ثلاثة أشياء عليها مدار حسن الخلق مع الله، فتلقي أخباره بالتصديق بحيث لا يقع عند الإنسان شك أو تردد في تصديق خبر الله تعالى،

لأن خبر الله صادر عن علم، وهو سبحانه أصدق القائلين، كما قال الله تعالى عن نفسه: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾[النساء: ٨٧]، ولازم تصديق أخبار الله أن يكون الإنسان واثقاً بها مدافعاً عنها مجاهدًا بها وفي سبيلها، بحيث لا يداخله شك أو شبهة في أخبار الله ﷻ وأخبار رسوله ﷺ، وإذا تخلق العبد بهذا الخلق أمكنه أن يدفع أي شبهة يوردها المغرضون على أخبار الله ورسوله ﷺ، سواءً أكانوا من المسلمين الذين ابتدعوا في دين الله ما ليس فيه، أم كانوا من غير المسلمين الذين يلقون الشبه في قلوب المسلمين بقصد فتنتهم وإضلالهم.

ومن حسن الخلق مع الله ﷻ أن يتلقى الإنسان أحكام الله بالقبول والتنفيذ والتطبيق، فلا يرد شيئاً من أحكام الله، فإذا رد شيئاً من أحكام الله هذا سوء الخلق مع الله ﷻ، سواء ردها منكراً حكمها، أو ردها مستكبراً عن العمل بها، أو ردها متهاوناً بالعمل بها، فإن ذلك كله منافٍ لحسن الخلق مع الله ﷻ.

ومن حسن الخلق مع الله تعالى تلقي أقدار الله تعالى بالرضا والصبر، فأقدار الله التي يجريها على خلقه ليست كلها ملائمة للخلق، فالمرض مثلاً لا يلائم الإنسان فكل إنسان يحب أن يكون صحيحاً معافى، وكذلك الفقر لا يلائم الإنسان، فالإنسان يحب أن يكون غنياً، وكذلك الجهل لا يلائم

الإنسان فحسن الخلق مع الله نحو أقداره أن ترضى بما قدر الله لك، وأن تطمئن إليه وأن تعلم أنه ﷻ ما قدره إلا لحكمة عظيمة وغاية محمودة، يستحق عليها الحمد والشكر.

وعلى هذا فإن حسن الخلق مع الله سبحانه نحو أقداره هو أن يرضى الإنسان ويستسلم ويطمئن، ولهذا امتدح الله الصابرين فقال: ﴿ **وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾** ﴾ [البقرة: ١٥٥ – ١٥٦].

مثال لحسن الخلق مع الله ﷻ: فالصلاة مثلاً لاشك أنها ثقيلة على بعض الناس، وهي ثقيلة على المنافقين، كما قال ﷺ: «أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر»(١) لكن الصلاة بالنسبة للمؤمن ليست ثقيلة، قال تعالى: ﴿ **وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾** ﴾ [البقرة ٤٤ – ٤٥].

ولهذا قال ﷺ: «وجعلت قرة عيني في الصلاة»(٢) فالصلاة هي قرة

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٥٧)، ومسلم (رقم ٦٥١).

(٢) أخرجه أحمد (١٢٨/٣)، والنسائي (رقم ٣٩٥٠)، والحاكم (١٦٠/٢)، والبيهقي في سننه الكبرى (٧٨/٧)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٣١٢٤).

عين المؤمن وزاده اليومي الذي يتزود به للقاء الله تعالى، ولذلك فهو يعظم قدرها، ويهتم بها أعظم الاهتمام، لأنها عماد الدين، وأول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة، فحسن الخلق مع الله ﷻ بالنسبة للصلاة أن تؤديها وقلبك منشرح مطمئن وعينك قريرة، تفرح إذا كنت متلبساً بها، وتنتظرها إذا فات وقتها، ولهذا كان النبي ﷺ يقول لبلال: «أرحنا بالصلاة»[1] لأن فيها الراحة والطمأنينة والسكينة، وهكذا نجد أن محاسن الإسلام وكماله في كل جانب من جوانب الحياة ومع الخالق والخلق.

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٤٩٨٥، ٤٩٨٦)، وصححه الألباني (رقم ٧٨٩٢).

حسن الخلق

حسن الخلق سمة من سمات المؤمنين، وحلية يتحلى بها الصالحون من عباد الله المفلحين، قال القزويني رحمه الله: معنى حسن الخلق سلامة النفس نحو الأرفق الأحمد من الأفعال. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ قال: «تقوى الله وحسن الخلق» وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار قال: «الفم والفرج»(٣).

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٤٧٩٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ١٩٣٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣٨١/٢)، والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٢٧٣)، والحاكم (٦١٣/٢)، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٢٣٤٩).

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٢٠٠٤) وقال: هذا حديث صحيح غريب.

والتواضع وعدم التفاخر من محاسن الأخلاق، عن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد»[1].

ومن الأمثال التطبيقية في حياة المصطفى ﷺ في حسن خلقه في الصبر والحلم والعفو ما ورد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه غزا مع رسول الله ﷺ قبل نجد فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه فأدركتهم القافلة في واد كثير العضاه – فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس يستظلون بالشجر، فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة، وعلَّق بها سيفه ونام نومه فإذا رسول الله ﷺ يدعونا وإذا عنده أعرابي، فقال: «إن هذا اخترط عليَّ سيفي وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده صلتا، فقال: من يمنعك مني؟ فقلت: الله» ثلاثاً – ولم يعاقبه وجلس[2].

ومن النماذج في حسن خلق المصطفى ﷺ وهو القدوة التي يحتذى مع الخدم ما رواه أنس رضي الله عنه قال: خدمت النبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي أفٍّ قط، وما قال لشيء صنعته: لِمَ صنعته؟ ولا لشيء تركته لِمَ تركته[3]؟

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٨٦٥/٦٤).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٩١٠)، ومسلم (رقم ٨٤٣).
(٣) أخرجه البخاري (رقم ٦٠٣٨)، ومسلم (رقم ٢٣٠٩).

وكان ﷺ من أحسن الناس خلقاً، ولا لمست خزاً قط ولا حريراً ولا شيئاً كان ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا مسست مسكاً قط، ولا عطراً كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ[1].

ومن حسن خلقه ﷺ الكرم والسخاء، فلا يرد سائلاً، فعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ ببردة فقال سهل للقوم: أتدرون ما البردة؟ فقال القوم: هي شملة. فقال سهل: هي شملة منسوجة فيها حاشتها. فقالت: يا رسول الله ألبسك هذه. فأخذها النبي ﷺ محتاجاً إليها فلبسها، فرآها عليه رجل من الصحابة فقال: يا رسول الله ما أحسن هذه فأكسنيها فقال: «نعم» — فلما قام النبي ﷺ لامه أصحابه، فقالوا: ما أحسنت حين رأيت النبي ﷺ أخذها محتاجاً إليها ثم سألته إياها، وقد عرفت أنه لا يسأل شيئاً فيمنعه. فقال: رجوت بركتها حين لبسها النبي ﷺ لعلى أكفن فيها[2].

ومن الآثار الواردة في حسن الخلق قول الماوردي رحمه الله: إذا حسنت أخلاق الإنسان كثر مصافوه، وقل معادوه، فتسهلت عليه الأمور الصعاب، ولانت له القلوب الغضاب. جمع بعضهم علامات حسن الخلق فقال: هو

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٥٦١)، ومسلم (رقم ٢٣٣٠).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٠٩٣).

أن يكون كثير الحياء، قليل الأذى، كثير الصلاح، صدوق اللسان، قليل الكلام، كثير العمل، قليل الزلل، قليل الفضول، تراه وصولاً، شكوراً رضياً حليماً رفيقاً عفيفاً وقوراً صبوراً شفيقاً لا لعاناً ولا سباباً، ولا نماماً ولا مغتاباً ولا عجولا ولا حقوداً، ولا بخيلاً ولا حسوداً، بشاشاً هشاشاً، يحب في الله، ويبغض في الله، ويرضى في الله ويغضب في الله، فهذا هو حسن الخلق، وصدق من قال:

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه فقوم النفس بالأخلاق تستقم

ومن ثمرات حسن الخلق وفوائده أنه من كمال الإيمان وحسن الإسلام، وأنه أفضل ما يقرب العبد من الله، وإذا أحسن العبد خلقه مع الناس أحبه الله والناس، وحسن الخلق يألف الناس ويألفونه، والسعادة كل السعادة في حسن الخلق، ولا يكرم العبد نفسه بمثل حسن الخلق، ولا يهينها بمثل سوء الخلق، حسن الخلق سبب في رفع الدرجات وعلو الهمم، وهو سبب في حب رسول الله ﷺ والقرب منه يوم القيامة، وصاحبه في الدرجات العلى في الجنة، وهو يدل على سماحة النفس وكرم الطبع.

حسن الخلق

محاسن الإسلام كثيرة ومتعددة، شملت العبادات والمعاملات والأخلاق وغيرها، فحسن الخلق سمة دعا إليها الإسلام، وأرشد إليها سيد الأنام محمد بن عبد الله عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام. وحسن الخلق كما قال الماوردي رحمه الله: أن يكون سهل العريكة، لين الجانب، طلق الوجه، قليل النفور، طيب الكلمة. وهي صفة نبينا محمد ﷺ، حيث أثنى عليه ربه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ٤].

وقد دعا القرآن إلى هذه الصفة بألوان متنوعة، فقال سبحانه: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٨٣]، وقال سبحانه في دعوة أهل الكتاب: ﴿۞ وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، كما أثنى سبحانه وتعالى على الدعاة إلى الله العاملين بالأعمال الصالحة، وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٣].

كما استفاضت السنة المطهرة بذكر حسن الخلق وآثاره الحميدة على الفرد والمجتمع، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»[(1)] والمعاملة الحسنة من الأخلاق الحسنة، فعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أتى الله بعبد من عباده آتاه الله مالاً، فقال له: ماذا عملت في الدنيا؟ قال: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾[النساء: ٤٢]، قال: يا رب آتيتني بمالك فكنت أبايع الناس وكان من خلقي الجواز، فكنت أتيسر على الموسر وأنظر المعسر. فقال الله: أنا أحق بذا منك تجاوزوا عن عبدي»[(2)].

وفي حسن الخلق في العشرة الزوجية يقول ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم خلقاً»[(3)]، كما يبين المصطفى ﷺ جزاء من حسن خلقه ببيت في أعلى

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٣/٥)، والترمذي (رقم ١٩٨٧)، والحاكم (٥٤/١)، وصححه ووافقه الذهبي، وقال الترمذي حسن صحيح، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٩٧).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٥٦٠/٢٩).

(٣) أخرجه أحمد (٤٧٢/٢)، وابن حبان في صحيحه (رقم ٤٧٩)، والترمذي (رقم ١١٦٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ١٢٣٢).

الجنة، فعن أبي أمامة الباهلي ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه»(١).

وعن عائشة ﵂ أن سعد بن هشام سألها فقال: يا أم المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: أليس تقرأ القرآن؟ قال: بلى. قالت: كان خلق نبي الله ﷺ القرآن(٢). وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ﵄ قال: لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً، وكان يقول: «إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً»(٣).

وعن النواس بن سمعان ﵁ قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم؟ فقال: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناس»(٤)، وعن أبي ذر الغفاري ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق»(٥).

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٤٨٠٠)، وحسنة الألباني في صحيح الجامع (رقم ١٤٦٤).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٧٤٦) وأحمد (٦/٩١)، وأبو داود (رقم ١٣٤٢).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣٥٥٩)، ومسلم (رقم ٢٣٢١).

(٤) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٥٣)، والترمذي (رقم ٢٣٨٩).

(٥) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٢٦).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال لأشج عبد القيس: «إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة»[1].

كما يبين المصطفى ﷺ أثر الأخلاق الحسنة في المجالسة، وذلك فيما رواه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «وإنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكبر، فحامل المسك: إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير: إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة»[2].

كما وردت الآثار الكثيرة عن السلف في حسن الخلق، فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: خالطوا الناس بالأخلاق وزايلوهم بالأعمال.

وقال الحسن رحمه الله: من ساء خلقه عذب نفسه.

وصدق من قال:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت	فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا
وليس بعامر بنيان قوم	إذ أخلاقهم كانت خرابا

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٨).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٥٣٤)، ومسلم (رقم ٢٦٢٨).

حُسن الخلق

لا زال الحديث موصولاً عن حسن الخلق، وأنها من محاسن الإسلام لما لها من أثر كبير على الفرد والجماعة، فالخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة عنها، تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة تصدر عنها الأفعال الجميلة المحدودة عقلاً وشرعاً سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً. وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً.

ولقد اتسم المصطفى ﷺ بحسن الخلق، كما قال سبحانه: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾[آل عمران: ١٥٩].

ولقد زخرت السنة النبوية بحسن الخلق ومزيته في كل شيء، ومن ذلك في المعاملات، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كان تاجر يداين الناس فإن رأى معسراً قال لفتيانه تجاوزوا عنه، لعل الله أن يتجاوز

عنا، فتجاوز الله عنه»[1].

ومن النماذج التطبيقية في حياة المصطفى ﷺ وحسن خلقه وصبره على الجاهل وحسن تعليمه ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: أن أعرابيًّا بال في المسجد، فثار عليه الناس ليقعوا به، فقال لهم رسول الله ﷺ: «دعوه وأهْرِيقوا على بوله ذنوباً من ماء أو سجلاً من ماءٍ، فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»[2]، وفي أمره ﷺ بالرفق ونهيه عن العنف والفحش ما روته عائشة رضي الله عنها: أن يهود أتوا النبي ﷺ فقالوا: السّام عليكم – أي الموت – فقالت عائشة رضي الله عنها: عليكم ولعنكم الله، وغضب الله عليكم، قال ﷺ: «مهلاً يا عائشة عليك بالرفق وإياك والعنف والفحش» قالت: أو لم تسمع ما قالوا؟ قال: «أو لم تسمعي ما قلت؟ رددت عليهم، فيستجاب لي فيهم ولا يستجاب لهم فيَّ»[3].

ولقد وردت آيات كثيرة وأقوال للعلماء والمفسرين في حسن الخلق، فمنها عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحرِّ بن قيس، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القراء

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٨٠)، ومسلم (رقم ١٥٦٢).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٢٠).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٦٠٣٠)، ومسلم باختلاف (رقم ٢١٦٥).

أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شباناً. فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي هل لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه. قال سأستأذن لك عليه. قال ابن عباس فاستأذن الحرُّ لعيينة، فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هي يا ابن الخطاب، فو الله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل. فغضب عمر رضي الله عنه حتى هم أن يوقع به، فقال له الحرُّ: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وإن هذا من الجاهلين. والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله[1].

وعن عبد الله بن المبارك رحمه الله في تفسير حسن الخلق قال: هو طلاقة الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى. وقال: حسن الخلق أن تتحمل ما يكون من الناس.

وقال الإمام أحمد رحمه الله: حسن الخلق أن لا تغضب ولا تحقد، وقال علي رضي الله عنه: حسن الخلق في ثلاث خصال: اجتناب المحارم، وطلب الحلال، والتوسعة على العيال.

وقال الشيخ تقي الدين أبو العباس ابن تيمية في كتاب الإيمان: ما همَّ

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٦٤٢).

العبد به من القول الحسن والعمل الحسن فإنما يكتب له به حسنة واحدة، وإذا صار قولاً وعملاً كتب له عشر حسنات إلى سبعمائة، وذلك للحديث المشهور في الهمّ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: جمع النبي ﷺ بين تقوى الله وحسن الخلق، لأن تقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تصلح ما بين العبد وربه، وحسن الخلق يصلح ما بينه وبين خلقه، فتقوى الله توجب له محبة الله، وحسن الخلق تدعو الناس إلى محبته.

وقال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: حسن الخلق قد يراد به التخلق بأخلاق الشريعة، والتأدب بآداب الله التي أدب بها عباده في كتابه، كما قال لرسوله ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤]، وصدق من قال:

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه ... فقوم النفس بالأخلاق تستقم

حسن الخلق مع الخلق

تقدم الكلام في بيان محاسن الإسلام وحسن الخلق في معاملة الخالق ﷻ وقد ذكر الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله كلاماً جميلاً في حسن الخلق في معاملة الخلق. فحسن الخلق عرَّفه بعضهم بأنه التخلي من الرذائل والتحلي بالفضائل. وقيل: هو بذل الجميل وكف القبيح.

وقال الحسن البصري رحمه الله: حُسن الخلق مع المخلوق هو: كف الأذى، وبذل الندى، وطلاقة الوجه. ومعنى كف الأذى أن يكف أذاه عن غيره، سواءً كان هذا الأذى بالمال أو يتعلق بالنفس أو يتعلق بالعرض.

فمن لم يكف أذاه عن الخلق فليس بحسن الخلق بل هو سيء الخلق، وقد أعلن الرسول ﷺ حرمة أذية المسلم بأي نوع من الإيذاء، وذلك في أعظم مجمع اجتمع فيه بأمته، حيث قال: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٧، ١٠٥)، ومسلم (رقم ١٦٧٩).

فإذا كان رجل يعتدي على الناس بأخذ المال، أو يعتدي على الناس بالغش، أو يعتدي على الناس بالخيانة، أو يعتدي على الناس بالضرب والجناية، أو يعتدي على الناس بالسب والغيبة والنميمة لا يكون هذا حسن الخلق مع الناس، لأنه لم يكف أذاه، ويعظم إثم ذلك كلما كان موجهاً إلى من له حق عليك أكبر.

ومعنى بذل الندى، الندى هو: الكرم والجود. يعني أن تبذل الكرم والجود، والكرم ليس كما يظنه بعض الناس أنه بذل المال فقط، بل الكرم يكون في بذل النفس، وفي بذل الجاه، وفي بذل المال، وفي بذل العلم، فإذا رأينا شخصاً يقضي حوائج الناس ويساعدهم فهذا من حسن الخلق، ولهذا قال ﷺ: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»(١).

ومن مخالقة الناس بخلق حسن أنك إذا ظلمت أو أسيء إليك فإنك تعفو وتصفح، وقد امتدح الله العافين عن الناس، فقال في أهل الجنة: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ

(١) أخرجه أحمد (٥/١٥٣)، والترمذي (رقم ١٩٨٧)، والحاكم (١/٥٤)، وصححه ووافقه الذهبي. وقال الترمذي: حسن صحيح. وحسنه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٩٧).

﴿ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وقال تعالى: ﴿ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وقال سبحانه: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى: ٤٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (الإصلاح واجب، والعفو مندوب) فإذا كان في العفو فوات الإصلاح فمعنى ذلك أننا قدمنا مندوباً على واجبٍ، وهذا لا تأتي به الشريعة، والحاصل أن من حسن الخلق. العفو عن الناس، وهذا من باب بذل الندى، لأن بذل الندى إما إعطاء وإما إسقاط، والعفو من الإسقاط.

ومن حسن الخلق مع الخلق طلاقة الوجه، وطلاقة الوجه إشراقه حين مقابلة الخلق، وضد ذلك عبوس الوجه، ولهذا قال النبي ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق»[1] وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن البر؟ فقال: وجه طلق، ولسان لين.

وقد قال بعضهم:

بني إن البر شيء هين وجه طليق ولسان لين

وقال آخر:

كيف أصبحت كيف أمسيت فما يغرس الود في فؤاد الكريم

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٢٦).

فطلاقة الوجه تدخل السرور على الناس، وتجلب المودة والمحبة، وتوجب انشراح الصدر منك وممن يقابلك، لكن إذا كنت عبوساً، فإن الناس ينفرون منك ولا يستريحون بالجلوس إليك، ولا بالتحدث معك، وربما تصاب بأمراض خطيرة، فإن انشراح الصدر وطلاقة الوجه من أنجح الأدوية المانعة من هذا الداء، ولهذا ينصح الأطباء من ابتلي بهذا الداء بأن يبتعد عما يثيره ويغضبه لأن ذلك يزيد من مرضه، فانشراح الصدر وطلاقة الوجه تقضي على بعض الأمراض، ويكون بذلك الإنسان محبوباً إلى الخلق، كريماً عليهم، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾ ﴾[مريم: ٩٦].

ومن علامات حسن الخلق مع الخلق أن يكون الإنسان حسن المعاشرة مع من يعاشره من أصدقاء وأقارب، لا يضيق بهم ولا يضيق عليهم، بل يدخل السرور على قلوبهم بقدر ما يمكنه في حدود شريعة الإسلام، وهذا القيد لابد منه لأن من الناس لا يسر إلا بمعصية الله والعياذ بالله، فهذا لا ينبغي أن نوافقه عليه، لكن إدخال السرور على من يعاشرك من أهل وأصدقاء وأقارب في حدود الشرع من حسن الخلق، ولهذا قال ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم

لأهلي»[1].

وكثير من الناس ومع الأسف الشديد يحسن الخُلق مع الناس، ولكن لا يحسن الخُلق مع أهله، وهذا خطأ عظيم وقلب للحقائق، إذ كيف تحسن الخلق مع الأباعد وتسيء الخلق مع الأقارب؟! فالأقارب أحق الناس بأن تحسن إليهم في الصحبة والعشرة، ولهذا قال رجل: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمك» قال: ثم منْ؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أبوك»[2].

والأمر عند بعض الناس على العكس تجده يسيء العشرة مع أمه ويحسن العشرة مع زوجته، فيكون مقدماً إحسان العشرة مع زوجته التي هي عنده بمنزلة الأسير كما قال ﷺ «استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوانٍ عندكم»[3] يعني بمنزلة الأسرى والحاصل أن إحسان العشرة مع الأهل والأصحاب والأقارب كل ذلك من محاسن الإسلام، ومن مكارم الأخلاق.

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٨٩٥) وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٩٧١)، ومسلم (رقم ٢٥٤٨).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣٣٣١)، ومسلم (رقم ١٤٦٨).

صور من مكارم الأخلاق

من محاسن الإسلام أنه يأمر بمكارم الأخلاق ومحاسنها، وينهى عن رذائل الأخلاق وسفاسفها، وصور مكارم الأخلاق ومحاسنها كثيرة جداً، ومنها ما ذكره الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله حيث قال: ومن مكارم الأخلاق أن تصل من قطعك من الأقارب ممن تجب صلتهم عليك إذا قطعوك فصلهم، ولا تقل: من وصلني وصلته. فإن هذا ليس بصلة، كما قال ﷺ: «ليس الواصل بالمكافئ، وإنما الواصل من إذا قطعت رحمه وصلها»(١).

فالواصل هو الذي إذا قطعت رحمه وصلها، وسأل النبي ﷺ رجل فقال: يا رسول الله إن لي أقارب أصلهم ويقطعونني، وأحسن إليهم ويسيئون إليَّ وأحلم عنهم ويجهلون عليَّ. فقال النبي ﷺ: «إن كنت كما قلت فكأنما تسفهم الملَّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك»(٢).

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٩٩١).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٥٨).

وكذلك عليك أن تعطي من حرمك أي من منعك، ولا تقل: منعني فلا أعطيه، وتعفو عمن ظلمك أي انتقصك حقك: إما بالعدوان وإما بعدم القيام بالواجب، فالعفو عند المقدرة من مكارم الأخلاق لكن بشرط أن يكون العفو إصلاحاً، فإن تضمن العفو إساءة فإنه لا يندب إلى ذلك، لأن الله اشترط، فقال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾[الشورى: ٤٠]، أي كان في عفوه إصلاح.

ومن مكارم الأخلاق بر الوالدين، وذلك لعظم حقهما، فلم يجعل الله لأحد حقاً يلي حقه وحق رسوله ﷺ إلا الوالدين، فقال تعالى: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾[النساء: ٣٦]، فالوالدان تعبا على الولد ولاسيما الأم، قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ﴾[الأحقاف: ١٥].

فالأم تتعب في الحمل وعند الوضع وبعد الوضع، وترحم صبيها أشد من رحمة الوالد له، ولهذا كانت أحق الناس بحسن الصحبة والبر حتى من الأب قال رجل: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أمك» ثم قال في الرابعة: «ثم أبوك»(١).

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٩٧١)، ومسلم (رقم ٢٥٤٨).

والأب أيضاً يتعب على أولاده، ويضجر لضجرهم ويفرح لفرحهم، ويسعى بكل الأسباب التي فيها راحتهم وطمأنينتهم وحسن عيشهم، يضرب القيافي والقفار من أجل تحصيل العيش له ولأولاده. وبر الوالدين إيصال الخير بقدر ما تستطيع وكف الشر، الإيصال الخير بالمال، وإيصال الخير بالخدمة، وإيصال الخير بإدخال السرور عليهما من طلاقة الوجه، وحسن المقال والفعال، وبكل ما فيه راحتهما، وإذا تأملنا في أحوال الناس اليوم ومع الأسف الشديد وجدنا كثيراً منهم إلا من عصم الله لا يبر والديه، بل هو عاق، تجده يحسن إلى أصحابه، ولا يمل الجلوس معهم، لكن لو يجلس إلى أبيه أو أمه ساعة من نهار لوجدته متململاً، كأنما هو على الجمر، فهذا ليس ببار، بل البار من يشرح صدره لأمه وأبيه، ويخدمهما على أهداب عينيه، ويحرص غاية الحرص على رضاهما بكل ما يستطيع.

وهناك قصص كثيرة تفيد أن من الناس من بر والديه فبر به أولاده، وكذلك في العقوق هناك قصص كثيرة تدل على أن الإنسان إذا عق أباه وأمه عقه أولاده.

ومن مكارم الأخلاق صلة الأرحام، فصلة الأرحام واجبة وقطعها سبب للعنة والحرمان من دخول الجنة، قال تعالى: ﴿ **فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ**

أَبْصَـٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد: ٢٢ - ٢٣].

وقال ﷺ: «لا يدخل الجنة قاطع»[1] أي قاطع رحم.

وهناك فرق بين الوالدين والأقارب الآخرين، فالأقارب لهم الصلة، والوالدان لهما البر، والبر أعلى من الصلة، لأن البر كثرة الخير والإحسان، لكن الصلة ألا يقطع، ولهذا يقال في تارك البر: إنه عاق. ويقال فيمن لم يصل: إنه قاطع.

وفي زماننا هذا الصلة بين الناس قليلة، وذلك لانشغال الناس في حوائجهم وانشغال بعضهم عن بعض، والصلة التامة أن تبحث عن حالهم وأولادهم وترى مشاكلهم، ولكن هذه الأمور مع الأسف مفقودة، كما أن البر التام مفقود عند كثير من الناس إلا من عصم الله.

ومن مكارم الأخلاق حسن الجوار مع الجيران، والجيران هم الأقارب من المنزل وأدناهم أولاهم بالإحسان والإكرام، قال تعالى: ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾ [النساء: ٣٦].

فأوصى الله سبحانه بالإحسان إلى الجار القريب والجار البعيد، وقال

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٩٨٤)، ومسلم (رقم ٢٥٥٦).

ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره»[1].

وقال ﷺ: «إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك»[2].

ومن المؤسف أن بعض الناس هداهم الله يسيئون إلى الجار أكثر ما يسيئون إلى غيره، فتجده يعتدي على جاره بالأخذ من ملكه وإزعاجه إلى غير ذلك.

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٠١٩)، ومسلم (رقم ٤٧).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٢٤/١٤٢).

صور من مكارم المصطفى ﷺ

من محاسن الإسلام أن الله سبحانه اصطفى لنا أفضل رسول وإمام، ذلكم هو محمد بن عبد الله عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأتم السلام، فكان قدوة في جميع الصفات والأعمال، تحلى بمكارم الأخلاق، فكان من أحسن الخلق أخلاقاً وقد قال الله تعالى فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤].

وفي الصحيح أن هشام بن حكيم سأل أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن خُلق رسول الله ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن. فقال: لقد هممت أن أقوم ولا أسأل شيئاً. أخرجه مسلم.

فهو ﷺ أكمل الناس خُلقاً في جميع محاسن الأخلاق وجميل الخصال والأفعال، والحوادث والوقائع التي وقعت في عهد رسول الله ﷺ تدل على حسن خلقه، بل إنه ﷺ كان حسن الخلق حتى مع الأطفال، فكان يلاطفهم ويلاعبهم، وكان يقول لأحد الأطفال: «يا أبا عمير ما فعل النغير»[(١)]

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦١٢٩)، ومسلم (رقم ٢١٥٠).

وأبو عمير كنية لطفل صغير وكان معه نغير وهو طائر صغير مثل العصفور هلك هذا النغير فحزن عليه الصبي واغتم، فكان ﷺ يلاطفه قائلاً: «يا أبا عمير ما فعل النغير».

ومن حسن خلقه ﷺ ورحمته بالخلق أن أعرابيًّا جاء وبال في المسجد، فزجره الناس ونهروه بشدة، فنهاهم ﷺ، فلما قضى بوله أمر النبي ﷺ بذنوب من ماء فأهريق على البول، ثم دعا الأعرابي فقال له: «إن هذه المساجد لا يصلح فيها شيء من الأذى أو القذر، إنما هي للصلاة وقراءة القرآن»[1] أو كما قال ﷺ ووجه حسن الخلق في هذه القصة ظاهر فهو لم يوبخ هذا الأعرابي ولم يضربه، بل تركه حتى قضى بوله، ثم أعلمه أن المساجد لا تصلح لما فعل، وإنما هي للصلاة والذكر وقراءة القرآن.

ومن حسن خلقه ﷺ أنه كان ليناً لطيفاً رحيماً، فلم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ولا صخاباً في الأسواق، ولا يجزئ السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح. قال أنس رضي الله عنه: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، والله ما قال لي أف قط، ولا قال لي لشيء فعلته: لِمَ فعلت كذا؟ وهَلا فعلت كذا؟[2].

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٨٥).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٠٣٨)، ومسلم (رقم ٢٣٠٩).

وكـان ﷺ يمـازح أصـحابه ويخـالطهم ويحـادثهم ويـداعب صـبيانهم ويضعهم في حجره، وربما بال الصبي في حجره فلا يعنف.

وكان ﷺ يجيب دعوة الحر والعبد والغني والفقير، ويعـود المريض في أقصى المدينة، ويقبـل عـذر المعتـذر، وكـان يـسمع بكـاء الـصبي وهـو يـصلي بالناس فيسرع في الصلاة، مخافة أن تفتن أمه، وهذا من تواضعه ﷺ.

قـال ابـن القـيم عـن تواضـع الـنبي ﷺ: وكـان الـنبي ﷺ يمـر عـلى الصبيان فيسلم عليهم، وكانت الأمة تأخذ بيده وتنطلق بـه حيـث شـاءت، وكان ﷺ إذا أكل لعق أصابعه الثلاثة، وكان ﷺ في بيته في خدمة أهلـه، ولم يكن ينتقم لنفسه قط، وكان ﷺ يخصف نعله، ويرقـع ثوبـه، ويحلـب الشاة لأهله، ويعلف البعير، ويأكل مع الخادم، ويجالس المساكين، ويمـشي مع الأرملة واليتيم في حاجتهما، ويبدأ من لقيه بالسلام، ويجيب دعـوة مـن دعاه ولو إلى أيسر شيء.

وكان ﷺ هـين المؤنـة، ولـين الخلـق، كـريم الطبـع، جميـل العـشرة، طلق الوجه، بساماً، متواضعاً مـن غـير ذلـة، جـواداً مـن غـير سرف، رقيـق القلب، رحيماً بكل مسلم، خافض الجناح للمؤمنين، لين الجانب لهم[1].اهـ.

---

(١) انظر: مدارج السالكين (٢/ ٣١٠).

يقول الحسين بن علي رضي الله عنهما: سألت أبي عن سير النبي ﷺ في جلسائه؟ فقال: كان النبي ﷺ دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب، ولا عياب ولا مشاح، يتغافل عمّا لا يشتهي ولا يؤيس راجيه، ولا يخيب فيه، قد ترك نفسه من ثلاث: المراء، والإكثار، وما لا يعنيه، وترك الناس من ثلاث: كان لا يذم أحداً ولا يعيبه ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه، وإذا تكلم أطرق جلساؤه كأنَّ على رؤوسهم الطير، فإذا سكت تكلموا، لا يتنازعون عنده الحديث، من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ حديثهم عنده حديث أولهم.

يضحك مما يضحكون منه، ويتعجب مما يتعجبون منه، ويصبر على الجفوة في منطقه ومسألته، حتى إن كان أصحابه يستجلبونهم، ويقول إذا رأيتم طالب حاجة يطلبها فأرفدوه، ولا يقبل الثناء إلا من مكافئ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز، فيقطعه بنهي أو قيام.

إن نبيًّا هذه صفاته وسماته وأخلاقه أرسل من لدن حكيم خبير لواجب على كل مسلم طاعته وأتباعه.

فهذه درر من أخلاقه ﷺ سمعتموها فلنخذها نبراساً لنا، نأتمر بأمره، وننتهي عن نهيه، ونسير على هديه، فإن الله سبحانه جبله على محاسن الأخلاق ومكارمها، وأمرنا بالاقتداء به قال تعالى: ﴿**لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ**

ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: ٧]، وقال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

التعاون

التعاون هو تبادل المعونة. والعون هو الظهير على الأمر القوي عليه. والتعاون خلق من أخلاق القرآن الكريم، وفضيلة من فضائل الإسلام، وجانب من هدي المصطفى ﷺ، وهو من محاسن الإسلام، والإنسان مدنيٌّ بطبعه، اجتماعي بفطرته، ويصعب عليه أن يعيش منفرداً عن غيره من بني جنسه، مهما كثر ماله وعظم جاهه وكبرت وظيفته أو منصبه، وقد أمر الله به سبحانه في كتابه بقوله: ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ** ﴾ [المائدة: ٢].

فالإسلام ينظر إليه إلى أنه أصل من أصول الدين، ومبدأ من مبادئه، وأنه يساعد على الخير، وأنه خُلق يثاب عليه أهله، ومن مكانة التعاون العليا أنه من صفات الله تعالى، فهو المستعان، كما قال سبحانه: ﴿ **وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ** ﴾ [يوسف: ١٨].

وشرع سبحانه لعباده أن يقولوا في كل صلاة من كل يوم: ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ**

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفاتحة: ٥]، والله سبحانه حينما يقول: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]، ليوجه العباد ليكون التعاون في الأغراض الطيبة الطاهرة النافعة للفرد والجماعة، فذكر (البر والتقوى) بوصفين لهذا التعاون، والبر هو التوسع في فعل الخير والعمل الصالح. والتقوى: اتقاء كل ما يضر بالفرد والجماعة في الدين والدنيا، وهو أن يجعل العبد وقاية من عذاب الله، وذلك باتباع أوامره واجتناب نواهيه.

كما أنه يحذر سبحانه من التعاون على الإثم والباطل والعدوان، والإثم هو كل فعل قبيح لا ترتضيه العقول السليمة ولا الفطر المستقيمة مما يغضب الله سبحانه، وفي كتاب الله سبحانه صور كثيرة تبين أهمية التعاون، فها هو القرآن الكريم يعرض علينا صورة تتعلق برسولين من رسله، هما موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام، فعلى الرغم من أن موسى نبي ورسول لم يتردد أن يطلب من ربه أن يحقق له عن طريق التعاون مزيداً من القوة، حتى يستطيع أداء الرسالة على الوجه المطلوب، ولذلك قال يدعو ربه تبارك وتعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝ هَٰرُونَ أَخِي ۝ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ۝ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ۝﴾ [طه: ٢٩ – ٣٢].

والقرآن الكريم يقرر أن التعاون كما يكون في وقت السلم يلزم أن

يكون في وقت الحرب، ولذلك بقوله سبحانه في سورة الصف: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ [الصف: ٤]، ولا يتحقق الصف إلا بالتجمع والترابط والتعاون، والبنيان المرصوص هو المتلاحم المحكم، ولا يتم ذلك إلا بتعاون وثيق.

نأتي إلى سنة رسول الله ﷺ لنجد في هذه السنة المطهرة فيضاً من النصوص الداعية إلى التعاون النبيل المصطبغ بصبغة الإيمان والعقيدة، ومنها قوله ﷺ:

١ – «الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»[١].

٢ – «من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته»[٢].

٣ – «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»[٣].

٤ – «مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»[٤].

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٩٩).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٤٤٢)، ومسلم (رقم ٢٥٨٠).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٢٤٤٦)، ومسلم (رقم ٢٥٨٥).

(٤) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٨٦).

وكل حديث من هذه الأحاديث الشريفة يحتاج إلى وقفات تأمل وتدبر، وذلك لما يحمله من معنى التعاون على البر والتقوى، ومكانة ذلك في نظر الإسلام، وكان المصطفى ﷺ يحرص على التذكير بالتعاون في الخير وطلب المعونة من الله سبحانه، وكان من دعواته ﷺ: «رب أعني ولا تعن علي»[1].

يصور لنا المصطفى ﷺ سلسلة النبوات والرسالات على أنها طراز رفيع مجيد من التعاون على نشر دين الله ودعوته بين البشر، خلال عصور التاريخ وكل رسول يبني جزءاً يمهد لجزء مقبل، ويتفق الرسل والرسالات على توحيد الله حتى يتم البناء بالرسالة الجامعة الخاتمة رسالة نبينا محمد ﷺ، وفي ذلك يقول ﷺ: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة (أي حجر) من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة. فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»[2].

إن المتأمل والناظر إلى التاريخ الإسلامي في صدره الأول يجد مواقف

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ١٥١٠)، والترمذي (رقم ٣٥٥١) وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٥٣٥)، ومسلم (رقم ٢٢٨٦).

عملية تجلى فيها تطبيق التعاون في المجتمع الإسلامي، فكان من وراء ذلك خير وبر، فالهجرة مثلاً اشترك فيها كهول مثل النبي ﷺ وأبي بكر، وشباب كعلي وعبد الله بن أبي بكر، ونساء كزوجة أبي بكر، وفتيات كأسماء وعائشة ابنتي أبي بكر، وأسهم كل واحد منهم بمجهود، فأبو بكر أعد العدة وسيلة الانتقال بعد أن رسم النبي ﷺ الخطة، وحدد لها الميقات. وعلي رقد على سرير النبي، ليظن المشركون أن النبي ما زال موجوداً في فراشه، وزوجة أبي بكر تعد الطعام مع ابنتيها، وأسماء تحمل الزاد والماء إلى الغار.

وعقب الهجرة شرع المسلمون في بناء مسجد الرسول ﷺ بالمدينة، ولقد تم في أقصر مدة ممكنة، ولولا تعاون الأيدي المؤمنة في جمع المواد وتهيئة الوسائل وتشييد البناء لما تم المسجد بهذه السرعة، التي كانت ثمرة من ثمرات التعاون.

ومن صور التعاون أن النبي ﷺ ارتحل مع جماعة من أصحابه، وفي أثناء الرحلة أرادوا أن يهيئوا شاة لطعامهم، فقال أحد الصحابة رضي الله عنهم: عليَّ ذبح الشاة. وقال الثاني: وعليَّ سلخها. وقال الثالث: وعليَّ طبخها. فقال ﷺ: «وأنا عليَّ جمع الحطب» فقال له أصحابه: يا رسول الله نحن نكفيك ذلك. فقال: «أنا أعلم أنكم تكفوني، ولكن لا أحب أن أتميز عليكم، فإن

الله تعالى لا يحب من عبده أن يتميز على أصحابه»(١).

وفي غزوة الأحزاب أراد المسلمون حفر الخندق حول المدينة من الجهة التي لا تحصنها جبال، وكان الوقت ضيقاً، وكانت الأحزاب تتقدم نحو المدينة بسرعة، ولكن التعاون جاء فحل المشكلة، واشترك الجميع في العمل، واستطاع المؤمنون بتعاونهم الكريم أن يتموا حفر الخندق الطويل قبل أن تصل جموع الأعداء المشركين.

فهذا قليل من كثير مما يزخر به كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وتاريخنا الإسلامي من الصور المضيئة لفضيلة التعاون وأثرها في الإسلام وأنها من محاسن الإسلام، التي يشهد لها القاصي والداني.

(١) لم أجده.

العزة

العزة والإباء والكرامة من أبرز الخلال ومن محاسن الإسلام التي نادى بها، وغرسها في أنحاء المجتمع، وتعهد نماءها بما شرع من عقائد وسن من تعاليم، وإليها يشير عمر بن الخطاب ﷺ بقوله: أحب من الرجل إذا سيم خطة خسف أن يقول بملأ فيه: «لا».

العزة كلمة فيها معنى القوة والشدة والغلبة، والعزيز هو الغالب لسواه، قال الراغب: العزة حالة مانعة للإنسان من أن يغلب، والعزيز اسم من أسماء الله تعالى. قال ابن الأثير: هو الغالب القوي الذي لا يُغلب، ذكر ابن القيم رحمه الله: أن عزة الله تعالى متضمنة لأمور ثلاثة:

١ - عزة القوة الدال عليها من أسمائه القوي المتين، وهي صفة العظيم، الذي لا تنسب إليه قوة المخلوقات وإن عظمت.

٢ - عزة الامتناع فإنه هو الغني بذاته، فلا يحتاج إلى أحد، ولا يبلغ العباد ضره فيضروه ولا نفعه فينفعوه، بل هو الضار النافع المعطي المانع.

٣ – عزة القهر والغلبة لكل الكائنات، فهي كلها مقهورة لله خاضعة لعظمته، منقادة لإرادته، فجميع نواصي المخلوقات بيده، لا يتحرك منها متحرك، ولا يتصرف متصرف إلا بحوله وقوته وإذنه، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلا به.

والعزة في القرآن الكريم قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: قال بعض المفسرين: العزة في القرآن على ثلاثة أوجه:

أحدها: العظمة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤]، قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢].

الثاني: المنعة، ومنه قوله تعالى: ﴿أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩].

الثالث: الحمية، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ﴾ [البقرة: ٢٠٦]، وقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ٢﴾ [ص: ٢].

يُمدح بالعزة تارة ويذم به أخرى، فالعزة الممدوحة التي لله ولرسوله وللمؤمنين، هي الدائمة الباقية، لأنها هي العزة الحقيقية، والعزة المذمومة

هي التي للكافرين، وهي التعزز، وهو في الحقيقة ذل، كما قال عليه الصلاة والسلام: «كل عز ليس بالله فهو ذل»(١) وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ۝﴾ [مريم: ٨١]، أي ليمتنعوا بهم من العذاب.

وقد ذكر الله سبحانه العزة في كتابه مقترنة بحكمة الله في ستة وأربعين موضعاً: كقوله سبحانه: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝﴾ [الحديد: ١].

كما ذكر الله سبحانه العزة مقترنة برحمة الله سبحانه في آيات كثيرة: كقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝﴾ [الشعراء: ٩].

كما ذكر الله سبحانه العزة مقترنة بقوة الله ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦]، وقد أشار كتاب الله الكريم إلى أن العزة خلق من أخلاق المؤمنين التي يجب أن يتحلوا بها ويحرصوا عليها، فقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]، وقال عن عباده الأخيار: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾ [الفتح: ٢٩]، والشدة

---

(١) لم أجده.

على الكافرين تستلزم العزة قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وهذا يقتضي أن يكونوا أعزاء.

وفي هدي النبوة الرائع ما يهدي أتباع محمد ﷺ إلى منهج الشرف وطريق الكرامة والعزة، فإن هذا الهدي النبوي الكريم يعلم الإنسان أن لا يرضى الدنية في دينه ولا في دنياه، بل يحفظ لنفسه حقها، ويذود عن هذا الحق ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فإن مات دونه فهو شهيد، فإن فاز وانتصر عاش عيشة الأحرار، وباء أعداؤه بالسعير وبئس القرار، جاء رجل إلى رسول الله ﷺ وقال له: يا رسول الله أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ «اغتصاباً» قال الرسول ﷺ: «لا تعطه»، قال الرجل: أرأيت إن قاتلني؟ قال الرسول ﷺ: «قاتله»، فقال الرجل: أرأيت إن قتلني؟ قال الرسول: «فأنت شهيد» فقال الرجل: أرأيت إن قتلته؟ قال الرسول: «هو في النار»[1].

وعن سعد رضي الله عنه قال جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: علمني كلاماً أقوله قال: «قل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، سبحان الله رب العالمين، لا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم»، قال: فهؤلاء لربي فما لي؟ قال: قل: «اللهم اغفر لي وارحمني

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٤٠).

واهدني وارزقني»[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت، اللهم إني أعوذ بعزتك، لا إله إلا أنت أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون»[2].

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يطوي الله عز وجل السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟»[3].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله سبحانه: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري من نازعني واحداً منهما ألقيته في جهنم»[4].

وإذا كان المسلمون قد اعتزوا بمن له الكبرياء وحده في السموات والأرض

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٨٣٢)، والنسائي (رقم ٩٢٥).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٧١٧)، والبخاري مقتصراً على الجزء الأول (رقم ١١٢٠).

(٣) أخرجه البخاري مختصراً (رقم ٤٨١٢، ٦٥١٩)، ومسلم واللفظ له (رقم ٢٧٨٨).

(٤) أخرجه أحمد (٢/٢٤٨)، وأبو داود (رقم ٤٠٩٠)، وابن ماجه (رقم ٤١٧٤، ٤١٧٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٤٣١١).

وتأبوا على الهداية حين يأتيهم من أي مخلوق، وفزغوا إلى واهب القوى والقدر يرجونه سبحانه أن يعزهم بعزته، وهو الذي يؤكد هذا المعنى في نفوس عباده حين جعل كلمة الله أكبر تردد في كل يوم في أذان الصلاة مرات ومرات، ثم يرددونها في صلواتهم كل يوم مرات ومرات، فتشعرهم بأن الكبرياء لله ﷻ، وأن عباده يلزمهم أن يلتمسوا العزة من لدنه، وأن يستوهبوا القوة من حماه.

وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾ [فاطر: ١٠]، ويقول سبحانه: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: ٢٦].

والإسلام عندما أوصى المسلم بالعزة هداه إلى أسبابها، ويسر له وسائلها، وأفهمه أن الكرامة في التقوى، وأن السمو في العبادة، وأن العزة في طاعة الله.

ولقد وردت الآثار في العزة، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر رضي الله عنه، وقال إبراهيم بن شيبان: الشرف في التواضع، والعزة في التقوى، والحرية في القناعة، ورضوان الله على أمير المؤمنين علي

ابن أبي طالب حين أراد أن يوطد في نفس أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قواعد العزة عندما أزعجه بعض حكام عصره على شدة تعرض لها فقال: يا أبا ذر إنك غضبت لله فارج من غضبت له، إن القوم خافوك على دنياهم، وخفتهم على دينك، فاترك في أيديهم ما خافوك عليه، واهرب بما خفتهم عليه، فما أحوجهم إلى ما منعتهم، وما أغناك عما منعوك، وسيعلم من الرابح غداً، والأكثر حسرة ولو أن السموات والأرض كانتا على عبد رتقاً – أي مضمومة ملتحمة – ثم اتقى الله ليجعل الله له فيها مخرجا.

لا يؤنسنك إلا الحق، ولا يوحشنك إلا الباطل، فلو قبلت دنياهم لأحبوك، ولو قرضت منها لأحبوك، أي لو ذللت ونلت من متاع الدنيا لما خافوك.

ومن ثمرات وفوائد العزة أنها مظهر من مظاهر الرجولة والشهامة، وأنها تورث العفة والنزاهة، وأنها صمام أمن للمجتمع من الشرور والأخطار، وأنها تنمي الفضيلة وتمحق الرذيلة، وبها تستجلب المكارم وتستدفع المكاره، وأنها دلالة الثقة بالله العزيز، وأنها مظهر من مظاهر رسوخ اليقين والقوة في الدين، بها يستجلب العون من الله، وأنها من مكارم صفات المسلم، وأنها ميراث المؤمن، فليحرص كل مؤمن على ميراثه.

الصديق

إن المتتبع لمحاسن الإسلام وفضائله ومزاياه الجمة يجد أن المنهج العام في الإسلام يهدف إلى إقامة روابط بين أفراد الأمة الإسلامية، كل تعاليم الإسلام أمراً ونهياً تشهد بذلك، ومن مظاهر ذلك الصداقة.

والصداقة علامة إخاء وعطف ومودة على أساس من الانتقاء والمشاركة في الميول والمساواة والألفة والمخالطة والمحبة والتعاطف، يشهد لذلك قوله ﷺ: «مثل المسلمين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»[(١)] وكل هذه الأمور يضمها معنى الصداقة، وقد عظم الله سبحانه وتعالى منته بإيقاع المحبة بين المؤمنين، فقال سبحانه: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣]، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم: ٩٦]، أي سيجعل

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٠١١)، ومسلم (رقم ٢٥٨٦).

لهم محبة للقلوب دون مهابة، لأن المحبة تؤلف، والمهابة تنفر، كذلك فإن المؤاخاة بالمودة من أسباب الألفة، ولذلك آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه، لتزيد ألفتهم، ويقوي تظاهرهم وتناصرهم.

وقد قضت حكمة الله تعالى بالتسوية بين المتماثلين، والتفريق بين المختلفين في الآخرة مثل الدنيا، يقول الله سبحانه: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ۝٧﴾ [التكوير: ٧]، أي قرن بين المتحابين في الله تعالى في الجنة، كما قرن بين المتحابين في غير الله في الجحيم، فالمرء مع من أحب، قال النبي ﷺ: «لا يحب المرء قوماً إلا حشر معهم»[(١)].

والصداقة الحقة هي الصداقة القائمة على الخير والصدق، لخلوها من غرض آخر، لأن الصداقة من الصدق، والصديق سمي كذلك لصدقه، ولابد أن تكون المصاحبة على خير ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ۝٦٦﴾ [الكهف: ٦٦].

وفي الحديث: «لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي»[(٢)].

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٥/٦)، والحاكم (٣٨٤/٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٣٠٢١).

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٤٨٣٢)، والترمذي (رقم ٢٣٩٥)، والحاكم (١٢٨/٤)، وحسنه الترمذي وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح=

فعلى المسلم أن يحب صديقه لكن بشرط أن تكون محبة الله تعالى في قمة المحبة ونهايتها، وكان ﷺ يحب زوجاته ويحب أصحابه، لكن دون حبه لله تعالى، وصح عنه أنه قال: «لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً»[1].

لا صداقة لشخص يميل إلى اللهو وسماع المجون، لأنه في شغل دائم عن مساعدة إخوانه والسؤال عنهم ومواساتهم، ولأن هذه صفات ذميمة، ربما أثرت على الصديق.

يقول الماوردي: فإذا عزم على اصطفاء الإخوان سبر أحوالهم قبل إخائهم وكشف عن أخلاقهم قبل اصطفائهم. قالت الحكماء: اعرف الرجل من فعله لا من كلامه، واعرف محبته من عينه لا من لسانه، ويفهم من هذا أن الإنسان لا يقدم على الصداقة من شخص إلا إذا وجد تجانساً في الصفات الحسنة بينه وبين الطرف الآخر، بحيث يمكنهما الإخاء والائتلاف، وفي الحديث: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»[2].

=الجامع (رقم ٧٣٤١).

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٦٥٤، ٥٦٥٦)، ومسلم (رقم ٢٣٨٢).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٣٣٦)، ومسلم (رقم ٢٦٣٨).

إن الصداقة في الإسلام ينبغي أن تكون مجردة عن الهوى والمنفعة الدنيوية، فقد جاء في الحديث الذي رواه الشيخان: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»[1].

ومن المعلوم أن الناس دائماً ينظرون إلى الشخص من زاوية صداقته، وفي الحديث: «الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»[2]، وعليه فلابد من مصاحبة الإنسان المتدين، فإن تارك الدين عدو لنفسه، فكيف يرجى منه مودة غيره، فالصديق الصالح من نعم الله على العبد يعينه على الخير، ويدله عليه، ويحذره من الشر، ويبعده عنه، يقول عدي بن زيد:

عن المرء لا تسل وسل عن قرينه
فكل قرين بالمقارن يقتدي
إذا ما صحبت القوم فأصحبت ضارهم
وإياك أن تصحب الأردي فتردى مع الردي

وقد نهى النبي ﷺ عن مجالسة أصدقاء السوء، لأن أخلاقهم تعدي،

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٦)، ومسلم (رقم ٤٣).
(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٤٨٣٣)، والترمذي (رقم ٢٣٧٨)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٣٥٤٥).

كما يحث المصطفى ﷺ على مجالسة أصدقاء الخير والصلاح، وذلك في قوله ﷺ: «إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك: إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير: إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً منتنة»(١).

وأوصى القرآن الكريم رسول الله ﷺ بالصبر على مجالسة الصالحين الذين يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿ **وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ** ﴾ [الكهف: ٢٨]، أما غير هؤلاء فيجب الإعراض عنهم كما قال سبحانه ﴿ **فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا** ﴿٢٩﴾ ﴾ [النجم: ٢٩]، ولا يجوز للمسلم أن يتودد من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم.

من ظن أنه مستغن عن الصداقة فهو مغرور، لأن الصديق معاون عند سوء الحال، ومؤانس عند حسن الحال، فالصديق الصالح من أنفس الذخائر وأفضل العدد، ولهذا تعددت نصائح الحكماء والأدباء في توعية الناس بالحرص على الصديق الصالح.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٥٣٤)، ومسلم (رقم ٢٦٢٨).

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لقاء الإخوان. جلاء الأحزان.

ويقول علي لابنه الحسن: يا بني الغريب من ليس له حبيب.

ومن كلام الحكماء في هذا المعنى: صديق مساعد عضد وساعد، ورب صديق أودّ من شقيق، من لم يرغب في الإخوان بُلي بالعداوة والخذلان، وبهذا تبين شمول الإسلام وكماله في كل مطالب الحياة.

سلامة الصدر

نعم الله علينا كثيرة لا تعد ولا تحصى ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وإن من نعم الله على المسلم سلامة الصدر من الأحقاد والضغائن، فليس أروح للمرء، ولا أطرد لهمومه، ولا أقر لعينه من أن يعيش سليم القلب، مبرأ من وساوس الضغينة وثوران الأحقاد، إذا رأى نعمة تساق إلى أحد رضى بها، ولم يحسده عليها، وأحس فضل الله فيها وفقر عباده إليها، وذكر قول رسول الله ﷺ: «اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر»[1]، وإذا رأى أذى يلحق أحداً من خلق الله رثى له، ورجا الله أن يفرج كربه، ويغفر ذنبه، وبذلك يحيا المسلم ناصع الصفحة، راضياً بقضاء الله وقدره، عاملاً بقول رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٥٠٧٣)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (رقم ٧)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٤١).

أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»[1].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «يطلع الآن عليكم رجل من أهل الجنة» فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه، قد علق نعليه بيده الشمال، فلما كان الغد، قال النبي صلى الله عليه وسلم مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى، فلما كان اليوم الثالث قال النبي صلى الله عليه وسلم مثل مقالته أيضاً، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى، فلما قام النبي صلى الله عليه وسلم تبعه عبد الله بن عمرو – أي تبع الرجل – فقال: إني لاحيت أبي – أي خاصمت – فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاثاً، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى يمضي فعلت. قال: نعم قال أنس: فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الثلاث الليالي، فلم يره يقوم من الليل شيئاً غير أنه إذا تعارَّ – تقلب في فراشه – ذكر الله عز وجل، حتى ينهض لصلاة الفجر. قال عبد الله: غير أني لم أسمعه يقول إلا خيراً، فلما مضت الليالي الثلاث وكدت أحقر عمله، قلت: يا عبد الله لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجرة، ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول – ثلاث مرات –: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة» فطلعت أنت الثلاث المرات، فأردت أن آوي إليك فأنظر

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٩٩٩).

عملك فأقتدي بك، فلم أرك عملت كبير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟ قال: ما هو إلا ما رأيت. قال عبد الله: فلما وليت دعاني فقال: ما هو إلا ما رأيت، غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشاً، ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه. فقال عبد الله: هذه التي بلغت بك، وفي رواية: ما هو إلا ما رأيت إلا أني لم أبت ضاغناً على مسلم[1].

وقد حرَّم الإسلام الحسد، وأمر الله ورسوله أن يستعيذ من شرور الحاسدين، لأن الحسد جمرة تتقد في الصدر، فتؤذي صاحبها وتؤذي الناس به.

وقد قال رسول الله ﷺ لا يجتمع في جوف عبد غبار في سبيل الله وفيح جهنم، ولا يجتمع في جوف عبد الإيمان والحسد.

وقال: إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.

ونظرة الإسلام إلى القلب خطيرة، فالقلب الأسود يفسد الأعمال

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨١/٨ – ٨٢): رواه أحمد والبزار بنحوه... ورجال أحمد رجال الصحيح، وكذلك أحد إسنادي البزار.

الصالحة، ويطمس بهجتها، وتعكر صفوها، أما القلب المشرق فإن الله يبارك في قليله، وهو إليه بكل خير أسرع، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قيل: يا رسول الله أي الناس أفضل قال: «كل مخموم القلب صدوق اللسان» قيل: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال: «هو التقي النقي، لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد»(١).

ومن ثم كانت الجماعة المسلمة حقاً هي التي تقوم على عواطف الحب والود والتعاون على البر والتقوى، كما وصفهم الله سبحانه بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠ ﴾ [الحشر: ١٠].

وسلامة الصدر سجية وطبيعة طبع عليها بعض الناس هبة من الله ونعمة، فصاحبها في راحة وهناء لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله، ولا يتدخل فيما لا يعنيه.

كما أن هذه الصفة يمكن التخلق بها، فالعلم بالتعلم والحلم بالتحلم، ولذلك وسائل وظواهر مبينة منها:

إفشاء السلام يقول صلى الله عليه وسلم: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا

(١) أخرجه ابن ماجه (رقم ٤٢١٦).

حتى تحابوا، أو لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم: أفشوا السلام بينكم»[1].

وورد في حديث أبي السرح أنه قال: يا رسول الله أخبرني بشيء يوجب الجنة قال: «طيب الكلام، وبذل السلام، وإطعام الطعام»[2]، إن السلام عامل من عوامل توثيق روابط المحبة والألفة وإشاعة الأمان. وتحية المسلم لإخوانه بالسلام يجلب المودة والألفة، ويذهب الجفاء والوحشة، ويسل من الصدور الأحقاد والضغائن، فهو عنوان المودة والإخاء ويتنوع الحب والصفاء.

وفي الأثر ثلاث يصفين لك ود أخيك: تسلم عليه إذا لقيته، وتوسع له في المجلس، وتدعوه بأحب الأسماء إليه. وإذا كان دين الإسلام بني على المحبة والإخاء والألفة والصفاء، فإن مما يزرع بذور الشر، ويكون سبباً للقطيعة والشحناء، هجر المسلم لأخيه المسلم. فعن أبي أيوب ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان فيعرض هذا، ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»[3].

وهجر المسلم وقطيعته من أسباب دخول النار أخرج أبو داود والنسائي

(١) أخرجه مسلم (رقم ٥٤).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٦٦، ٣٨٥)، (٥/ ٣٧٨).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٦٠٧٧)، ومسلم (رقم ٢٥٦٠).

بإسناد صحيح على شرط البخاري ومسلم عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث فمن هجر فوق ثلاث، فمات دخل النار»[1]، وفي حديث آخر يقول ﷺ: «تعرض الأعمال في كل اثنين وخميس، فيغفر الله ﷻ في ذلك اليوم لكل امرئ مسلم لا يشرك بالله شيئاً، إلا امرأ كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقول: اتركوا هذين حتى يصطلحا»[2].

إن إفشاء السلام وبذله من موجبات المغفرة، لأن السلام يدل على طهارة القلب وصفاء النفس ومحبة الخير وإضمار المودة، وأن البادئ به قد تنزه عن الحقد والحسد، ولم يطو قلبه على عداوة أو ضغينة، لذا كان السلام أساس المحبة، وكانت المحبة أساس الإيمان، وكان الإيمان سبباً لدخول الجنات، وكان رسول الله ﷺ يبادر من لقيه بالسلام، وقد سئل أي الإسلام خير؟ قال: «تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»[3].

إن الشيطان وهو عدو الإنسان اللدود ربما عجز أن يجعل من الرجل العاقل عابد وثن، ولكنه وهو الحريص على إغواء ابن آدم وإيراده موارد التهلكة، لم ييأس من التحريش بينهم، قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٤٩١٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٧٦٥٩).
(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٦٥).
(٣) أخرجه البخاري (رقم ١٢)، ومسلم (رقم ٣٩).

قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكنه لم ييأس من التحريش بينهم»[1] وهناك رذائل رهب الإسلام منها، لأنها تجلب للقلوب الضغينة والبغضاء والحقد وذلك ما ينهى الإسلام عنه، وصدق من قال: (لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب، ولا ينال العلا من طبعه الغضب).

وقد حرم الإسلام الغيبة لما تجلبه من حقد وضغينة، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أتدرون ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذكرك أخاك بما يكره» قيل: أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته»[2].

والشحناء التي كرهها الإسلام وكره ما يدفع إليها أو ينشأ عنها هي التي تنشب من أجل الدنيا وأطماعها وأهوائها. أما البغض لله وفي الله فشأن آخر، بل إن ذلك أمارات الإيمان الصحيح والإخلاص لله وحده، وقد أمر الله سبحانه أن يجافي أعداءه ولو كانوا أقرب الناس إلينا، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [التوبة: ٢٣].

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٨١٢)، والترمذي (رقم ١٩٣٧).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٨٩).

سلامة القلب

سلامة القلب فضيلة من فضائل الإسلام، وخلق من أخلاق القرآن ومن هَدي الرسول ﷺ، وسلامة القلب هي صفاؤه ونقاؤه وصحته وقوته وطهارته وبراءته، والمؤمن الحق من شأنه أن يكون صاحب قلب سليم، وقد كثرت عبارات السلف رحمهم الله تعالى في المراد بالقلب السليم فقيل: هو الخالص من دغل الشرك والذنوب.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: القلب السليم هو الذي يشهد أن لا إله إلا الله، أي العامر بالتوحيد.

وقال مجاهد: قلب سليم يعني سلم من الشرك.

وقال سعيد بن المسيب: القلب السليم هو القلب الصحيح وهو قلب المؤمن، لأن قلب الكافر أو المنافق مريض، قال تعالى: ﴿ **فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ** ﴾ [البقرة: ١٠]، وقيل غير ذلك.

ومن هذه الأقوال يتضح أن سلامة القلب في عرف المفهوم الأخلاقي القرآني تعطي معاني الطهر والصفاء والإيمان بالله جل جلاله، والاعتقاد فيما شرع

الله، والتحرر من الرذائل والعيوب.

وقد أشار القرآن الكريم إلى فضيلة سلامة القلب، فقال في سورة الشعراء: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الشعراء: ٨٨ – ٨٩]، أي لا يقي الإنسان ماله وإن كثر ولا بنوه وإن كثروا، فلا ينفعه الافتداء على الأرض ذهباً، ولا ينفعه الافتداء بمن على الأرض جميعاً، ولا ينفع يومئذ إلا الإيمان بالله وإخلاص الدين له والتبري من الشرك وأهله، وإنما يفوز يومئذ من أتى الله بقلب سليم خالص من الشرك بعيد عن الدنس.

إن يوم القيامة تختلف موازينه عن موازين الدنيا، فلا ينفع المال ولا البنون أحداً، ولكن من أقبل على الله بنفس منزهة عن الشرك والنفاق، وقلبٍ صافٍ طهور لا إثم فيه ولا دغل، وهو قلب المؤمن فهو الفائز بفضل الله وثوابه، وكذلك يفوز من أنفق ماله في الخير، ومن كان ولده صالحاً، ومن ورث علماً، وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»(١).

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٦٣١).

سلامة القلب صفة من صفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، يقول سبحانه في سورة الصافات متحدثاً عن نوح وإبراهيم: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات: ٨٣ – ٨٤]، أي أن من شيعة نوح وأهل دينه إبراهيم عليه الصلاة والسلام، الذي أقبل على ربه بقلب سليم عامر بالتوحيد والخير، نقي من الشرك والإثم، خالص من آفات القلوب وعيوبها. ومجرد وصف إبراهيم بهذا الوصف وهو سلامة القلب فيه تشريف لهذه الفضيلة وتنويه بشأنها أي تنويه، لأن إبراهيم هو خليل الرحمن وأبو الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ونجد وصف «سلامة القلب» منسوباً إلى إبراهيم عليه السلام في القرآن مرتين هذه المرة في سورة الصافات، وفي سورة الشعراء كما مر، وفي سورة الشعراء على لسان إبراهيم عليه السلام، حيث يقول سبحانه عن إبراهيم: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٧ – ٨٩].

ويحسن بنا أن نقتطف ما ذكره بعض المفسرين من أننا نستشف من قول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الشعراء: ٨٧]، مدى شعور إبراهيم عليه السلام بهول اليوم الآخر، ومدى حيائه من ربه وخشيته من الخزي أمامه وتقصيره وهو النبي الكريم، كما نستشف من قوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا

بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨ – ٨٩]، مدى إدراكه عليه الصلاة والسلام لحقيقة ذلك اليوم، وإدراكه كذلك لحقيقة القيم، فلا يوجد في يوم الحساب من قيمة إلا قيمة الإخلاص الذي يجعل القلب كله لله، ويجعله متحرراً من كل شائبة وغرض ومرض، صافياً من الشهوات والانحرافات، خالياً من التعلق بغير الله، فهذه هي سلامته التي تجعل له وزناً وقيمة ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨ – ٨٩]، ولا ينفع شيء من هذه القيم الزائفة الباطلة التي يتكالب عليها المتكالبون في الأرض، وهي لا تزيد شيئاً في ميزان الله العادل.

وحين نقف أمام قول الله تعالى في الصافات: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات: ٨٣ – ٨٤]، نجد أن أحد المفسرين يقول في تفسير هذه الآية: يبرز من صفة إبراهيم عليه السلام سلامة القلب وصحة العقيدة وخلوص الضمير. ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصافات: ٨٤]، وهي صورة الاستسلام الخالص تتمثل في مجيئه لربه، وصورة النقاء والطهارة والبراءة والاستقامة تتمثل في سلامة قلبه، ومع أنه يتضمن صفات كثيرة من البراءة والنقاوة والإخلاص والاستقامة، إلا أنه يبدو بسيطاً غير معقد، ويؤدي معناه بأوسع مما تؤديه هذه الصفات كلها مجتمعات، وتلك

إحدى بدائع التعبير القرآني الفريد، وبهذا القلب السليم استنكر ما عليه قومه واستبشعه استنكار الحس السليم، لكل ما تنبو عنه الفطرة الصادقة من تصور وسلوك.

ذكر الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله في كتابه خلاصة التفسير قوله: فائدة: ذكر الله في كتابه عدة آيات منها وصفه القلوب بالمرض وبالعمى والنشوة، ويجعل الموانع عليها من الران والأكنة والحجاب وبموتها وبحيرتها.

فاعلم أن القلب يكون صحيحاً ويكون مريضًا، ويجتمع فيه المرض والموانع من وصول الصحة، وقد يكون ليناً، وقد يكون قاسياً، فأما القلب الصحيح فهو السليم من جميع الآفات، وهو القلب الذي صحت وقويت قوته العملية وقوته العلمية الإرادية، وهو الذي عرف الحق فاتبعه بلا تردد، وعرف الباطل فاجتنبه بلا توقف.

فهذا هو القلب الصحيح الحي السليم، وصاحبه من أولي النهى وأولي الحجى وأولي الألباب وأولى الأبصار والمخبت لله والمنيب إليه.

وأما القلب المريض فهو الذي انحرفت إحدى قوتيه العلمية أو العملية أو كليهما. فمرض الشبهات والشكوك الذي هو مرض المنافقين لما اختل علمهم وبقيت قلوبهم في شكوك واضطراب، ولم تتوجه إلى الخير كان

مرضها مهلكاً.

ومرض الشهوات الذي هو ميل القلب إلى المعاصي مخل لقوة القلب العملية، فإن القلب الصحيح لا يريد ولا يميل إلا إلى الخير وإلى ما أباحه الله له، فمتى رأيت القلب ميالاً إلى المعاصي سريع الانقياد لها فهو مريض وهو سريع الافتتان عند وجود أسباب الفتنة، كما قال تعالى: ﴿ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

وأما القلب القاسي فهو الذي لا يلين لمعرفة الحق وإن عرفه لا يلين للانقياد له، فتأتيه المواعظ التي تلين الحديد وقلبه لا يتأثر بذلك: إما لقسوته الأصلية أو لعقائد منحرفة، اعتقدها ورسخ قلبه عليها، صعب عليه الانقياد للحق إذا خالفها.

وقد يجتمع الأمران. وأما الران والأكنة والأغطية التي تكون على القلوب فإنها من آثار كسب العبد وجرائمه فإذا عرض عن الحق وعارض الحق وجاءه الحق فرده، وفتح الله أبواب الرشد فأغلقها عن نفسه عاقبه الله بهذا العمل بأن سد عنه طرق الهداية التي كانت مفتوحة له وميسرة، فتكبر عنها وردها، فطبع على قلبه وختم عليه، وأحاطت به الجرائم وراتت عليه الذنوب، وغطت قلبه وجعلت بينه وبين الحق حجاباً، وأقفلت قلبه.

فهذه المعاني التي أكثر الله من ذكرها في كتابه إذا عرفت هذه الضوابط المذكورة في هذه الفائدة اتضحت لك معانيها، وعرفت بذلك حكمته وعدله في عقوبة هذه القلوب، وأن الله ولاَّهم ما تولوه لأنفسهم ورضوه لها.

وسنة المصطفى ﷺ توضح جانب سلامة القلب، وذلك في قوله ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[1] وكان يقول ﷺ: «أسألك قلباً سليماً ولساناً صادقاً»[2] ويقول: «اللهم نق قلبي من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس»[3] ورضي الله عن الإمام عليٍّ حين قال: «إن لله في أرضه آنية هي القلوب فأحبها إلى الله تعالى أرقها وأصلبها وأصفاها، أصلبها في الدين، وأصفاها في اليقين، وأرقها على الأخوان، اللهم ارزقنا سلامة القلب، وصفاء الصدر، وقوة اليقين.

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٣٤٠٧)، وأحمد (١٢٣/٤، ١٢٥).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٧٤٤)، ومسلم (رقم ٥٩٨).

مواسم للعبادة

نعم الله علينا عظيمة لا تعد ولا تحصى، ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وإن من بين هذه النعم العظيمة والتي تعتبر من محاسن الإسلام: أن الله سبحانه جعل مواسم للعبادة، يتقرب بها العباد بأنواع القربات والطاعات، ليرفع الله بها الدرجات، ويكفر بها السيئات، يتقرب بها العباد إلى رب الأرض والسماوات.

فما أن ينتهي موسم من مواسم الطاعات إلا ويتلوه موسم آخر، فما أن انتهى شهر رمضان بصيامه وقيامه وتلاوة كتابه إلا وتلاه موسم الحج، والذي فيه العشر المباركات، التي تجتمع فيها أمهات العبادات، فالصلاة والحج والصدقة والصوم لا تجتمع في غيرها، وهي موسم للحاج وغيره، لاسيما وأن العبد خطاء، كما قال ذلك المصطفى ﷺ: «كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»[1]، فهو محتاج دائماً إلى العبادات لتطهره وتزكيه

---

(١) أخرجه أحمد (رقم ٣/١٩٨)، والترمذي (رقم ٢٤٩٩)، وابن ماجه (رقم ٤٢٥١)، والحاكم (٤/٢٤٤)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٤٥١٥).

وتنقيه من الذنوب والخطايا.

وبعد انتهاء الحج وبه انتهى العام الهجري، تلا ذلك شهر كريم هو شهر الله المحرم، فقد روى مسلم من حديث أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال: «أفضل الصيام بعد شهر رمضان الذي تدعونه المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة قيام الليل»(١).

فقد سمى النبي ﷺ المحرم شهر الله، وإضافته إلى الله تدل على شرفه وفضله، فإن الله تعالى لا يضيف إليه إلا خواص مخلوقاته، وهو مفتاح السنة، فمن الأفضل والأولى افتتاح العام بعمل صالح وعمل خير، يحصل بسببه دخول الجنة.

فقد روى أبو هريرة ﵁ قال رسول الله ﷺ: «من أصبح منكم اليوم صائماً» قال أبو بكر: أنا، قال: «فمن تبع منكم اليوم جنازة» قال أبو بكر: أنا، قال: «فمن أطعم منكم اليوم مسكيناً» قال أبو بكر: أنا، قال: «فمن عاد منكم اليوم مريضاً» قال أبو بكر: أنا. فقال: رسول الله ﷺ: «ما اجتمعن في امرئ مسلم إلا دخل الجنة»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١١٦٣)، وأبو داود (رقم ٢٤٢٩)، والترمذي (رقم ٤٣٨)، والنسائي (رقم ١٦١٢)، وابن ماجه (رقم ١٧٤٢).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٠٢٨).

إن في قصص الأنبياء والمرسلين عبرة لأولي الألباب، كما قال سبحانه: ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١]، وإن من أعظم قصص المرسلين ما قصه الله سبحانه عن كليمه موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام.

فقد ذكر الله سبحانه قصته في مواضع متعددة مبسوطة تارة ومختصرة تارة، وذلك أن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم، وهم شعب بني إسرائيل، الذين هم من سلالة نبي الله يعقوب بن إسحاق بن خليل الله إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، وكانوا إذ ذاك خيار أهل الأرض، وقد تسلط عليهم هذا الظالم الغاشم الكافر، يستعبدهم ويستخدمهم في أخس الصنائع، ولما بلغه أنه سيخرج من ذرية إبراهيم من بني إسرائيل غلام، يكون هلاكه على يديه، أمر عند ذلك بقتل أبناء بني إسرائيل، حذراً من وجود هذا الغلام، ولن يغني حذر من قدر، فاحترز كل الاحتراز، ولكن حكمة الله غالبة، وقدره نافذ لا محالة، فسبحانه من حكيم عليم قدير.

اتقوا الله تعالى واذكروا أيام الله لعلكم تذكرون، واذكروا أيام الله بنصر أنبيائه وأتباعهم لعلكم تشكرون، واذكروا أيام الله بخذل أعدائه ومن والاهم

لعلكم تتقون، واذكروا أيام الله إذا نزل للقضاء بين عباده يوم القيامة لعلكم توقنون.

إن نصر الله تعالى لأوليائه في كل زمان ومكان انتصار للحق وذلة للباطل، وأخذ للمتكبر، ونعمة على المؤمنين إلى يوم القيامة، لأنهم يسرون بذلك، وينعمون به بالا.

وفي هذا الشهر كانت نجاة موسى عليه السلام وقومه من فرعون وجنوده، وفي هذه القصة عظات وعبر وآيات، كيف كان فرعون يقتل أبناء بني إسرائيل خوفاً من موسى، فتربى في بيته وفي حجر امرأته، وكيف قابل موسى عليه السلام هذا الجبار العنيد مصرحاً معلناً بالحق هاتفاً به، ألا إن ربكم الله هو رب العالمين فأنجاه الله منه، وكيف كان الماء السيال شيئاً جامداً كالجبال بقدرة الله، وكان الطريق يبساً لا وحل فيه في الحال، وكيف أهلك الله هذا الجبار العنيد، فجعل ما كان يفتخر به، فقد كان يفتخر بالأنهار التي تجري من تحته، فأهلك بالماء، ولاشك أن ظهور آيات الله في مخلوقاته نعمة كبرى، يستحق عليها الحمد والشكر خصوصاً إذا كانت في نصر أوليائه وحزبه، ودحر أعداء الله وحزبه.

لقد وقع هذا الحدث العظيم والنصر المبين الذي ظهر فيه الحق على الباطل في يوم عاشوراء، أي العاشر من شهر محرم، فقد روى الإمام

البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة واليهود يصومون يوم عاشوراء، فقال: «ما هذا اليوم الذي تصومون؟» فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون. قال النبي ﷺ لأصحابه: «أنتم أحق بموسى منهم فصوموا»(١).

فيستحب أخي المسلم صيام هذا اليوم شكرًا لله، فقد صامه كليم الله موسى عليه الصلاة والسلام شكرًا لله، وصامه نبينا محمد ﷺ وأمر بصيامه، وقال في فضله: «أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله»(٢).

كما ينبغي للمسلم أن يصوم اليوم الذي قبله، ليحصل مخالفة اليهود بذلك، فقد قال ﷺ: «لئن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع»(٣) فصوموا التاسع والعاشر، أو العاشر والحادي عشر، أو التاسع والعاشر والحادي عشر، وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «صوموا يوم عاشوراء، وخالفوا اليهود، صوموا قبله يوماً وبعده يوماً»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٠٠٤)، ومسلم (رقم ١١٣٠).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١١٦٢).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ١١٣٤).

(٤) أخرجه أحمد (٢٤١/١)، والبيهقي في السنن الكبرى (٢٨٧/٤)، وابن خزيمة (رقم ٢٠٩٥).

فينبغي للمسلم أن يتقي الله سبحانه، وأن يُري الله من نفسه خيراً، ويتبع هدي وسنة نبيه محمد ﷺ وأن يفتتح هذا العام بالعمل الصالح الرشيد والقول السديد، وأن يحاسب نفسه قبل أن يُحاسب، كما قال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، وتأهبوا للعرض الأكبر على الله، يومئذ تعرضون لا يخفى منكم خافية.

حريٌّ بك أن تتعاهد كل فرصة تكون سبباً في رفع درجاتك وتكفير سيئاتك، ومنها الصوم الذي ورد فيه فضائل عديدة ومزايا كثيرة منها: ما رواه سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يصوم يوماً في سبيل الله إلا باعد الله بذلك اليوم وجهه من النار سبعين خريفاً»(١).

ومن فضائل الصيام أنه وقاية للعبد من عذاب الله يوم القيامة، فعن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إنما الصيام جنة يستجن بها العبد من النار، هو ولي وأنا أجزي به»(٢).

ومنه أنه طريق عظيم إلى الجنة، فعن أبي إمامة رضي الله عنه قال، قلت:

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٨٤٠)، ومسلم (رقم ١١٥٣).

(٢) أخرجه أحمد (٣/٣٩٦).

يارسول الله دلني على عمل أدخل به الجنة. فقال: «عليك بالصوم، فإنه لا مثل له»[1] قال فكان أبو إمامة لا يرى في بيته الدخان نهاراً إلا إذا نزل به ضيف.

(١) أخرجه أحمد (٥/٢٤٩)، والنسائي (رقم ٢٢١٩)، وابن حبان في صحيحه (رقم ٣٤٢٥)، والحاكم (١/٤٢١)، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٤٠٤٤).

التوكل على الله

إن من محاسن الإسلام توجيه المسلم إلى العناية بالعقيدة الإسلامية وبيان أهمية التوحيد لله وأنه لا سبيل للفوز في الدنيا والبرزخ والآخرة إلا بصفاء عقيدة التوحيد ونقائها والمحافظة عليها من كل شائبة تكدر صفوها أو تدنس طهرها ومن الجوانب المهمة في العقيدة حرف الهمم إلى التوكل على الله في جميع شئون الحياة كبيرها وصغيرها، دقيقها وجليلها مع بذل الأسباب المعينة على ذلك، وذلك لأن إهمال هذا الجانب يؤثر على صفاء التوحيد ونقائه كما أنه له تأثيراً مباشراً في نقصان الإيمان وتمامه، وذلك لأن الاعتقاد الصحيح يفرض على المرء أن يكون مقبلاً على ربه متوجهاً إليه مؤمناً به متوكلاً عليه مخلصاً له في جميع أنواع العبادة ومن كان كذلك كان أجمل الناس سيرة وأشكرهم لنعمة ربه وأطيبهم حياة وأحسنهم عاقبة وأعظمهم مثوبة، وفي ذلك قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ﴿٢٩﴾﴾ [الرعد: ٢٨ – ٢٩]، وقال تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ

طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل: ٩٧].

إن من لازم الإخلاص لله تعالى وصدق متابعة رسوله ﷺ أن يتجنب المرء كل ما يؤثر في اعتقاده أو ينافي كماله ومن ذلك الحذر من الخرافة بجميع صورها وأن يبتعد عن الضلالة بشتى أشكالها سواءً منها ما كان موروثاً له أصل في عقائد الجاهلية أو من مفاهيم العوام الضالة وهذا كله ضلالة وجاهلية لأنه في الحقيقة مما ينافي التوكل على الله لما فيه من التعلق بغيره واعتقاد مدبر في الملكوت سوى الله.

وقد قال سعيد بن جبير رحمه الله التوكل على الله جماع الإيمان من الناس من يتشاءم بالأشخاص والأزمان ويظن أنه يصيبه منها شر لذاتها لا بقضاء الله وقدره وهذا هو الطيرة التي نهى عنها رسول الله ﷺ وأخبر أنها شرك، قال ﷺ من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك رواه أحمد.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى عن الأمم الكافرة أنهم تطيروا بمن هو مصدر الخير من الأنبياء والمؤمنين قال تعالى عن قوم فرعون: ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ ﴾ [الأعراف: ١٣١]، وكذلك ثمود تطيروا بنبيهم صالح ﴿ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ ﴾ [النمل: ٤٧]، وكذلك مشركو العرب تطيروا بمحمد ﷺ قال تعالى: ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ ﴾ [النساء: ٧٨]، فرد الله

على هؤلاء بأن ما يصيبهم من العقوبات والمكارة إنما هو بقضاء الله وقدره وبسبب ذنوبهم، قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء: ٧٨ - ٧٩]، وهذا من انعكاس فطرهم حيث اعتقدوا الشر بمن هو مصدر الخير والصلاح.

إن الخير والشر والنعم والنقم كلها بقضاء الله وقدره قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ﴾ [النساء: ٧٨]، فهو الذي يخلق ما يشاء ويختار وما يصيب العبد من الشرور والعقوبات فإن الله قدره عليه بسبب ذنوبه ومعاصيه: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، ويعفو عن كثير ليس للمخلوق يد في تدبيره وإيجاده قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [فاطر: ٢]، وقال ﷺ: «وأعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»[1].

---

(١) أخرجه أحمد (١/٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٧)، والترمذي (رقم ٢٥١٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

فبهذه النصوص وأمثالها مما هو كثير في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ تجث جذور الوثنية وتقطع أسباب الوهم الذي طالما فتك في البرية وترشد إلى إخلاص التوحيد لله والاعتماد عليه دون من سواه.

وهذا لا ينافي أن الله يجعل بعض مخلوقاته سبباً للخير أو سبباً للشر ولكن ليست الأسباب هي التي تُحدث هذه الأمور وإنما ذلك راجع إلى مسبب الأسباب وهو الله تعالى ومطلوب من العبد أن يتعاطى أسباب الخير ويتجنب أسباب الشر.

خلق الله العباد ليعبدوه ووهب لهم السمع والأبصار والأفئدة ليشكروه، خلق كل شيء فسواه وقدر ما أراده في حكمة وأمضاه فلا راد لما قضاه ولا مانع لما أعطاه، لا مؤثر في الكائنات سواه استقل بالإيجاد والعدم وكنت الفناء على من سواه من الأنام، خلق الزمان والمكان وقدر الخير والشر وله الحكمة البالغة فيما كلف به الإنسان وجعل أفرض الفرائض على العبد التوحيد والإيمان وفرض عليه الإخلاص في العبادات والصدق في المعاملات في السر والإعلان، ألا وأنه لا يغني أحداً حذر من قدر ولا محيد له عما قضاه الله ولا مفر، بعث الله رسوله بالهدى وبصر به من العمى ذهبت بأنواره ظلمات الجهل الجهلاء وعصبيتها وفخرها بالآباء وغير ذلك مما كان عند الجاهلية.

النفع والضر بيد الله سبحانه وإليه ترجع الأمور قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[النحل: ٥٣]، وما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله، وإن من أسباب المصائب الذنوب والجرأة على ما يسخط علام الغيوب، وإن من آثار التطير والتشاؤم أن فيه مخالفة لأمر رسول الله ﷺ وأن ينافي الإيمان ويضاد التوكل على الله، وهو دليل قلة العقل وذهاب الرأي وهو صفة من صفات الجاهلية وعادة مذمومة من عاداتهم ويجعل الإنسان أسيراً للخزعبلات والدجل والخرافة وهو شقاء في الدنيا وعذاب في الآخرة.

قال ابن القيم رحمه الله: (التطير إنما يضر من أشفق منه وخاف وأما من لم يبال به ولم يعبأ به شيئاً لم يضره البتة).

بعد ما سمعت من آيات وأحاديث وأقوال الأئمة يتبين لك أن من محاسن الإسلام العناية بالعقيدة والتمسك بها هذا هو سبيل المؤمنين الموحدين وهو طريق الصالحين السالكين إلى طريق الهداية والفلاح.

النظافة

إن من محاسن الإسلام الأمر بالنظافة حيث حث المسلم بالنظافة والالتزام بها ظاهراً وباطناً، فقد وردت الآيات الكثيرة والأحاديث النبوية الشريفة بالتنظف والاغتسال للجمعة، لأجل اجتماعه بالناس.

ونهى عن دخول المسجد إذا أكل الثوم أو البصل ويلحق بهما كل ما له رائحة كريهة تؤذي مثل الدخان وما شابهه، وهو حرام شرعاً لمضاره الكثيرة.

وكذلك أمر الشارع بتنقية البراجم – أي مفاصل الأصابع وقص الأظفار والسواك والاستحداد وهو إزالة الشعر النابت على القبل بأي شيء كان، وغير ذلك من الآداب التي إذا أهملها الإنسان فقد ترك سنةً، وربما أدى ذلك إلى أضرار عظيمة، مثل أن يهمل أظفاره فتجتمع تحتها الأوساخ المانعة للماء أن يصل إلى البشرة في الوضوء، وقد تتراكم فيها الجراثيم.

وقد كان النبي ﷺ أنظف الناس وأطيبهم ريحاً، وكان لا يفارقه السواك، ويكره أن تشم منه ريح ليست طيبة، والإنسان إذا كان نظيفاً أحبته النفوس الطيبة لنظافته، ويكون أقرب إلى قلوب الخلق بخلاف من كان

بعكس ذلك.

ثم إنه يؤنس الزوجة بتلك الحال، «فإن النساء شقائق الرجال»(١) فكما أنه يكره الشيء الكريه منها فكذلك هي تكرهه منه قال ﷺ «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»(٢) وربما صبر الزوج على ما يكره وهي لا تصبر فتحل الفرقة قال تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وإذا كان أول سورة أنزلت على الرسول ﷺ تحدثت عن العلم ووسائله وهي سورة العلق قال تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ ﴾ [العلق: ١- ٤] فإن السورة التي أنزلت بعدها مباشرة أيضاً أمرت بالطهارة والنظافة حساً ومعنى، وهي سورة المدثر قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ ﴾ [المدثر: ١- ٤].

لقد حث ديننا الحنيف على النظافة، وجعل الطهارة فرضاً على كل مسلم ومسلمة في كل صلاة، فلا تقبل أي صلاة من الرجل والمرأة إذا أحدثا إلا بعد أن يتطهر كل منهما، لما ثبت عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال، قال رسول

(١) صححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ١٩٨٣).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٠)، ومسلم (رقم ٧١).

الله ﷺ: «لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ»(١).

فالشارع الحكيم أرشد في هذا الحديث أن من أراد الصلاة أن لا يدخل فيها إلا على حال حسنة وهيئة جميلة، لأنها الصلة الوثيقة بين الرب وبين عبده، وهي الطريق إلى مناجاته لذا أمره بالطهارة، وأخبر النبي ﷺ أنها مردودة غير مقبولة بغير ذلك، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تقبل صلاة بغير طهور»(٢) والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾ [المائدة: ٦].

والإسلام هو الدين الذي جعل النظافة أمراً مهماً في حياة المسلم وأوجب على الكافر الغسل إذا دخل فيه وإن اغتسل قبل ذلك فحسن. روى ابن هشام أن أسيد بن حضير لما شرح الله صدره للإسلام سأل أسعد بن زرارة ومصعب بن عمير عند مقدمهم إلى المدينة، فقال: كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل وتتطهر وتطهر ثوبك ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلى، فقام فاغتسل وطهر ثوبه وشهد شهادة الحق ثم قام فركع ركعتين، وليس الغسل شرطاً في صحة إسلام الكافر، وإنما

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٩٥٤)، ومسلم (رقم ٢٢٥).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٢٤).

يجب بعد إسلامه[1].

ومن محاسن الإسلام أنه لم يترك أي جانب من جوانب الدين إلا حث فيه على النظافة حتى إنه حث عليها في الآنية فقد ورد عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا شرب الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعاً» ولمسلم: «أولاهن بالتراب»[2] وهذا الحديث آية من آيات الله الدالة على صدق ما جاء به رسوله محمد ﷺ.

فقد أثبت الطب الحديث أن في لعاب الكلب جراثيم لا يزيلها إلا التراب الممزوج بالماء، ولذا حض الشارع الحكيم على غسل الإناء الذي شرب منه الكلب سبع مرات، ويصحب التراب إحدى الغسلات.

إن عناية الإسلام بالنظافة والصحة جزء من عنايته بقوة المسلمين الحسية والمعنوية، وقد وفر الإسلام لأبنائه أسباب الوقاية بما شرع من قواعد النظافة الدائمة مما سبق ذكره.

قال مسلم في صحيحه حدثنا قتيبة بن سعيد وأبو بكر بن أبي شيبة وزهير بن حرب قالوا حدثنا وكيع عن زكريا بن أبي زائدة عن مصعب بن شيبة عن طلق بن حبيب عن عبد الله بن الزبير عن عائشة ﷺ قالت: قال

---

(١) انظر السيرة لابن هشام (٢/٤٤).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٧٢)، ومسلم (رقم ٢٧٩).

رسول الله ﷺ: «عشر من الفطرة: قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء، وقص الأظفار، وغسل البراجم، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء»(١) قال زكريا: قال مصعب: ونسيت العاشرة، إلا أن تكون المضمضة.

فتحقيق هذه الخصال تعد من محاسن الإسلام الذي جاء بالنظافة والطهارة والتأديب والتهذيب وما إلى ذلك؛ ليكون المسلم على أحسن حال وأجمل صورة، فإن النظافة من الإيمان، وقد بلغ من عناية الإسلام بها أن ذكرها الله تعالى في آيات كثيرة من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ** ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقد أثنى الله سبحانه على أهل قباء وكانوا يستنجون بالماء قال تعالى: ﴿ **فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ** ﴾ [التوبة: ١٠٨] وقال تعالى: ﴿ **وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ** ﴾ [الأنفال: ١١] وقال ﷻ: ﴿ **وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟** ﴾ [المائدة: ٦].

وأما الأحاديث فكثيرة منها ما ذكره الإمام أحمد عن علي رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «مفتاح الصلاة الطهور»(٢)، وما رواه أبو داود بسنده

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٦١).

(٢) أخرجه أحمد (١/١٢٣)، وأبو داود (رقم ٦١)، والترمذي (رقم ٣)، وابن ماجه=

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الطهور شطر الإيمان»[1]، فلا غرابة أن يهتم المسلم بالنظافة كل الاهتمام، لأن هذا الدين دين فطرة ونظافة، وقد جاء ليسعد البشرية جمعاء، فعلى المسلم أن يطبق عملياً كل ما جاء به الشرع في هذا المجال وغيره.

=(رقم ٢٧٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٥٨٨٥).

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٢٣).

الحث على السواك لما له من فوائد وفضائل

من محاسن الإسلام الحث على السواك والترغيب فيه، والسواك استعمال عودٍ أو نحوه في الأسنان واللثة لإذهاب الصفرة وغيرها عنها، وإن أحسن أنواع السواك هي التي تتخذ من شجر الأراك، كما أنه يجب عدم استعمال أي عود سواك من أشجار غير معروفة، لأنه من المحتمل أن تكون الشجرة سامة فتضر الجسم، وكان مسواك رسول الله ﷺ هو عود الأراك، ولما كان السواك نوعاً من أنواع النظافة، وخصلة من خصال الفطرة، وسنة من سنن الوضوء شرعه لنا المصطفى ﷺ.

وكان ﷺ يواظب على السواك ويستاك صباحاً ومساءً مفطراً كان أو صائماً، ويستاك عند الانتباه من النوم، وعند الوضوء، وعند القيام إلى الصلاة، وعند دخول المنزل، ومن شدة محبته ﷺ للسواك أنه في المرض الذي توفي فيه بل في الساعة التي قُبض فيها رأى عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ومعه سواك يستاك به، فنظر إليه ﷺ، فعرفت عائشة رضي الله عنها أنه يريده، فأخذته من أخيها، وأصلحته، وطيبته، فناولته له فاستاك به

ﷺ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل عبدالرحمن بن أبي بكر على النبي ﷺ وأنا مسندته إلى صدري، ومع عبدالرحمن سواك رطب يستن به، فأبدَّه رسول الله ﷺ بصره، فأخذت السواك فقصمته ونفضته وطيبته، ثم دفعته إلى رسول الله ﷺ فاستن به، فما رأيت رسول الله ﷺ يستن استناناً قط أحسن منه، فما عدا أن فرغ رسول الله ﷺ رفع يده أو إصبعه، ثم قال: «في الرفيق الأعلى» ثلاثاً، ثم قضى، وكانت رضي الله عنها تقول: مات بين حاقنتي وذاقنتي[(١)].

لقد جاء في الترغيب في السواك وفضله أحاديث كثيرة، حث فيها النبي ﷺ على استعماله والإكثار منه، لما فيه من التنظيف والتطييب للفم، ولأن في استعماله مرضاة لله سبحانه وتعالى، فعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ: «السواك مطهرة للفم مرضاة للرب»[(٢)]، وعن المقدام بن شريح بن هاني قال: سألت

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٤٣٨)، ومسلم (رقم ٢٤٤٣).

(٢) أخرجه البخاري معلقاً مجزوماً به في كتاب الصوم، باب السواك الرطب واليابس للصائم (ص ٣٦٧) ط بيت الأفكار الدولية.
وأخرجه أحمد (٦/٤٧) (٣/١)، والنسائي (رقم ٥)، وابن حبان في صحيحه (رقم ١٠٦٧)، والبيهقي في السنن الكبرى (١/٣٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٣٦٩٥).

عائشة قلت: بأي شيء كان يبدأ النبي ﷺ إذا دخل بيته؟ قالت: بالسواك[1].

قال النووي رحمه الله: في هذا الحديث بيان فضيلة السواك في جميع الأوقات وشدة الاهتمام به وتكراره، وتأكيد استحبابه عند دخول المنزل، لأن فيه بركة وأنساً للأهل، حيث إنه سوف يتحدث معهم.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثرت عليكم في السواك»[2] قال السيوطي: أي بالغت في تكرير طلبه منكم، وفي هذا الترغيب في السواك، لأنه بمنزلة التأكيد لمن علم به مسبقاً، وبمنزلة التكرير والتأكيد جميعاً لمن لم يعلمْ به.

وعن ابن السباق أن رسول الله ﷺ قال في يوم جمعة من الجمع: «يا معشر المسلمين إن هذا يوم جعله الله عيداً فاغتسلوا، ومن كان عنده طيب فلا يضره أن يمس منه، وعليكم بالسواك»[3] وله شاهد من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: أشهد على رسول الله ﷺ قال: «الغسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم، وأن يستن، وأن يمس طيباً» هذا لفظ

(١) أخرجه مسلم (٢٥٣).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٨٨٨).

(٣) أخرجه مالك (رقم ١٤٨)، وابن ماجه (رقم ١٠٩٨).

البخاري وساق مسلم: «وسواك ويمس من الطيب ما قدر عليه»[1].

وعن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: «تسوكوا، فإن السواك مطهرة للفم، ومرضاة للرب. ما جاءني جبريل إلا أوصاني بالسواك. حتى لقد خشيت أن يُفرض عليَّ وعلى أمتي. ولولا أني أخاف أن يشق على أمتي لفرضته لهم، وإني لأستاك حتى خشيت أن أحفي مقادم فمي»[2]، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أمرت بالسواك حتى خشيت أن يكتب عليَّ»[3].

خلاصة ما ذكر العلماء رحمهم الله تعالى أن السواك غير واجب حتماً، وإنما هو سنة مؤكدة في سائر الأوقات وخاصة عند الوضوء والصلاة، ولولا خوف الرسول ﷺ المشقة لأمر به أمته فيفرضه الله عليهم فلا يقومون به، كما أمر، فيلحقهم الإثم بذلك، فامتنع فرضه عليهم لذلك خوفاً منه وإشفاقاً عليهم، ومع ذلك رغبهم فيه وندبهم إليه وحضهم عليه.

وإن الشارع الحكيم ترك فرض السواك على الأمة مع ما فيه من المصالح العظيمة والفوائد الجمة من النظافة والصحة وقطع الروائح الكريهة وطيب

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٨٨٠)، ومسلم (رقم ٨٤٦).

(٢) أخرجه ابن ماجه (رقم ٢٨٩) وفي الزوائد: إسناده ضعيف.

(٣) أخرجه أحمد (٣/٤٩٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ١٣٧٦).

الفم وتحصيل الثواب واتباع السنة، خشية أن يفرضه الله عليهم فيعجزوا عن القيام به فيأثموا بترك الواجب الشرعي.

السواك وحده لا يزيل فضلات الطعام والرواسب من موضعها التي علقت بها، فالمضمضة هي الوسيلة لإزالتها بعد الاستياك، وهذا والله أعلم حكمة أمره ﷺ بالسواك عند الوضوء، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة»(١) وفي رواية في المسند «مع كل وضوء»(٢).

كما يسن السواك عند القيام إلى الصلاة.

قال النووي رحمه الله في شرح المهذب: سواء صلاة الفرض والنفل، وسواءً صلى بطهارة ماء أو تيمم أو بغير طهارة، كمن لم يجد ماءً ولا تراباً وصلى على حسب حاله، لحديث أبي هريرة السابق ذكره.

قال ابن دقيق العيد: والسِّر فيه أي الأمر بالسواك عند القيام إلى الصلاة: أنا مأمورون في كل حال من الأحوال التقرب إلى الله عز وجل وأن نكون في حالة كمال ونظافة، إظهاراً لشرف العبادة.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٨٧٧)، ومسلم (رقم ٢٥٢).

(٢) أخرجه أحمد (٢/٢٥٩)، والبيهقي في سننه الكبرى (١/٣٥)، والطبراني في الأوسط (رقم ١٢٦٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٥٣١٧).

وقال الصنعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في العدة: وقد علم من موارد التشريع أمر الأمة أن يكونوا عند العبادة في أكمل الأحوال، ومن ثمة أمر بأخذ الزينة للمساجد، ومنع من أكل الكرات ونحوه عند حضور الجماعة، لأنه على رائحة تنافي الانضمام إلى عبادة الله في المساجد، والفم أحق عضو بالنظافة، لأنه موضع مرور كلام الله.

كما يتأكد السواك عند القيام من النوم، كما ثبت ذلك عنه من حديث حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يشوص فاه بالسواك[1]. وفي رواية لمسلم: إذا قام ليتهجد. ويسن السواك عند تغير الفم، وعند قراءة القرآن، وعند دخول المنزل.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٤٥)، ومسلم (رقم ٢٥٥).

ميزة السواك والمقارنة بينه وبين معجون الأسنان

إن من محاسن الإسلام السواك، وذلك لأنه سنة المصطفى ﷺ، ولاشتماله على فوائد ومنافع متعددة، يجدها كل من واظب على استعماله، ولو لم يكن فيه من الفوائد إلا طهارة الأفواه ونظافتها لكان هذا كافياً، وقد نوه المصطفى ﷺ به فقال: «السواك مطهرة للفم مرضاة للرب»(١).

لقد جاء الإسلام بكل ما من شأنه سعادة الإنسان، ومن ذلك السواك فقد حث نبينا محمد ﷺ على نظافة الفم والأسنان، وذلك باستعمال السواك عدة مرات في اليوم والليلة، جاء ذلك في أحاديث كثيرة صحيحة، ثم حدث بعد ذلك مستحدثات جديدة كالفرشة والمعاجين المتنوعة، واتخذ لها وسائل شتى متنوعة للإعلان عنها في وسائل الإعلام وغيرها.

ومع ذلك ومع تطور العلم الحديث تبقى السنة النبوية لها خصائصها

---

(١) أخرجه البخاري معلقاً (ص ٣٦٧)، وأحمد (١/ ٣) (٦/ ٤٧)، والنسائي (رقم ٥)، وابن حبان في صحيحه (رقم ١٠٦٧)، والبيهقي في الكبرى (١/ ٣٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٣٦٩٥).

ومميزاتها، ففي مقارنة بين السواك ومعجون الأسنان قال الدكتور عبد الله عبد الرازق السعيد: إن السواك يفوق جميع الوسائل والطرق المستعملة لتنظيف الأسنان، فالمسواك منظف آلي يقوم مقام الفرشاة لاحتوائه على ألياف سيليولوزية طبيعية خير من ألياف الفرشاة.

ويقوم مقام معجون الأسنان والمسحوق المنظف، بل أفضل منه لما يحتويه من مواد مطهرة مثل العفص، والسنجرين، وبيكربونات الصوديوم ومواد تشبه البنسلين بتأثيرها أكتشفها الدكتور «رُودات» وهي مواد مبيدة للجراثيم مجهولة التركيب.

كذلك يوجد في المسواك مواد زالقة منظفة فتدعك وتدلك الأسنان وتجعلها بيضاء، لامعة ولا تخدش أنسجة السن، وهي خير من المواد الرغوية التجارية التي توجد بالمعاجين.

فقد أعلنت مجلة أطباء الأسنان الأمريكية أن أغلبية المعاجين المستعملة في الولايات المتحدة غير صحية أو طبية، وبالمسواك كميات من بلورات السيلس الصلبة التي تفيد كمادة منظفة تحك القلح عن الأسنان وموجودة بالمسواك بنسبة عالية تبلغ حوالي ٤٪ وكذلك أملاح أخرى لها فعاليتها في التنظيف مثل كلوريد الصوديوم أي «ملح الطعام» وكلوريد البوتاسيوم وإكسالات الجير، وبالمسواك مواد عطرية زيتية.

وهذه هي عوامل التنظيف والتنكه والشذا، لأنها تكسب الفم رائحة طيبة، وبه مادة قابضة كالعفصى التي توقف النزيف وتقوي اللثة وتساعد على تقوتها وجريان الدم فيها، ويساعد العفصى على تكوين الليفين من مولد الليفين الذي له أهمية في عملية تكوين الجلطة.

وأما النشا والصموغ فتساعد على جعل قوام اللعاب لزجاً فيساعد على التنظيف وتوزيع المواد الفعالة، لأنها تشكل سواغاً وعاملاً للربط، فتحمل المواد الفعالة بالسواك وتوزعها على جميع أسطح الأسنان.

كما أن المسواك مع طول مدة استعماله يصبح عادة، فيكون سبباً في الإقلاع عن العادة السيئة الأخرى مثل التدخين عند الكبار ومص الإصبع عند الصغار وعض الأقدام... الخ.

ومما تقدم نرى أن المسواك يحتوي على مواد عديدة مفيدة لا توجد بأي معجون أو منظف أسنان، وقد ذكر الدكتور المذكور أن المواد التي ثبت وجودها بالمسواك تزيد على إحدى وعشرين مادة.

وقد أعلم الدكتور «كينيت كيوديل» أن السواك يحتوي على مادة تمنع النخر السني، وقد أعلن ذلك أمام المؤتمر الثاني والخمسين للجمعية الدولية لأبحاث الأسنان في أتلانتا بأمريكا. وأما ألياف السواك فهي أفضل من شعيرات الفرشاة، وتعتبر مثالية للأسباب التالية.

ثم ذكر الدكتور عبد الله السعيد اثني عشر سبباً لتميز المسواك على معجون الأسنان، ثم قال: ومما تقدم نرى أن المسواك يغني عن الفرشاة بل هو أفضل منها، ويتميز أن له مفعولين:

أولاً: آلي فهو يفوق الفرشاة هنا، لأنه يسير على سطح السن، ويدخل بين الأسنان وذلك على عكس الفرشاة.

ثانياً: كيماوي وهنا لا توجد أي مزية للفرشاة ومعجون الأسنان على السواك، حيث إنه بعد عشرين دقيقة فقط من استعمال معجون الأسنان يعود مستوى الجراثيم للفم كحالته الأولى. اهـ.

باختصار وتصرف من كتاب السواك فضله وفوائده للشيخ إبراهيم بن محمد الحسن، ويقول د. فارس علوان في كتابه: وفي الصلاة صحة ووقاية تحت عنوان السواك تحت المجهر.

وللمسواك فوائد عديدة وميزات كثيرة تجعله يفضل الفرشاة والمعجون ويتفوق عليهما، وذلك للأسباب التالية:

١ – يحوي المسواك مواد قاتلة للعوامل المرضية منها ما يلي:

أ – أثبت د. الباحث عبد الحميد القضاة أن يقضي على خمسة أنواع على الأقل من الجراثيم التي توجد في الفم، وتكون سبباً في أمراضه.

ب – يقول العالم «رودات» مدير معهد علم الجراثيم في ألمانيا: إن في السواك مادة مضادة للجراثيم شبيهة بالبنسلين.

ج – أثبتت أبحاث جامعة الملك سعود أنه يحوي مادة السنجرين ذات التأثير المطهر الشديد الفعالية، وهي التي تقضي على الجراثيم.

د – فيه مادة السيلس التي تجرف الفضلات وتزيل القلح وتساعد على تلميع الأسنان وتبيضها بتأثيرها الآلي الحَاتّ.

هـ – السواك غني بحمض العفص الذي يمنع النزف، ويشفي جروح اللثة ويظهر الفم.

و – مواده العطرية الخاصة تطيب الفم، وتجعل له رائحة زكية.

ز – يحتوي على ٢٢ مادة فعالة منها أملاح الحديد والكلس.

ر – أن تأثيره المحصن للفم والمطهر للأسنان أطول من تأثير معجون الأسنان، حيث إن تأثير المعجون لا يتعدى أكثر من عشرين دقيقة، بيد أنه يجب تجديده بطرح القسم المستعمل منه، وتشذيب قسم جديد كلما سنحت الفرصة لذلك، وبهذا يبقى عطاؤه مستمراً وتتضح خواصه ومواده الفعالة مع كل استعمال، ويفضل أن يكون يومياً.

لقد عرف الغرب حديثاً أثر السواك النافع على الفم والأسنان، فشرعوا بمزج مسحوقه مع معاجين الأسنان فمنها نوع أسمه «ساراكان» ونوع آخر أسمه «كوافي مسواك» يقي المسواك من أمراض كثيرة منها ما هو موضعي في الفم ومنها ما هو عام، كل هذا جعل السواك ينال الأرجحية، ويحوز الأسبقية ويتمتع بثقة المسلم وحسن ظنه لما له من سمعة وفوائد عرفها المسلمون على مر السنين.

فحيثما استعمل السواك بمواظبة ودأب قلت أمراض الفم والأسنان وقلت معها الآلام والأوجاع، وحيثما أهمل استعماله كثرت هذه الأمراض حتى أصبحت مشكلة صحية في أكثر المجتمعات.

ويكفي السواك تشريفاً وتكريماً أنه دخل فم سيد المرسلين حتى آخر لحظة من حياته ﷺ، وفم آل بيته الطاهرين وصحابته الكرام والتابعين، وشرعه لهذه الأمة من لا ينطق عن الهوى، وهذا قليل من كثير، وغيض من فيض، مما زخرت به السنة المطهرة والبحوث العلمية من أعداء الإسلام عن محاسن الإسلام في السواك.

الهجرة

في بداية كل عام هجري جديد يتذكر المسلمون هجرة المصطفى ﷺ فتشرق في نفوس المسلمين شمس الإيمان من جديد، وتتراءى لهم صور الكفاح الأغر في سبيل الحق والعقيدة. هذا الكفاح الذي أفضى إلى أن يهاجر النبي ﷺ من مكة، التي أوغل أهلها في العلو والاستكبار والمكر إلى المدينة المنورة، حيث الإيمان والأمان، وحيث القلوب متفتحة لاستيعاب الدعوة الإسلامية وحمايتها.

إن من محاسن الإسلام الهجرة والتي هي مفارقة بلاد الكفر أو مفارقة الأشرار، وهي من ملة إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿**إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ**﴾ [الصافات: ٩٩]، وهاجر عليه السلام ببعض ذريته إلى الشام حيث المسجد الأقصى وببعض ذريته الآخر إلى مكة حيث المسجد الحرام، وهي شريعة نبينا محمد ﷺ، حيث أمر أصحابه بالهجرة وهاجر هو عليه الصلاة والسلام.

وإن للهجرة أنواعاً لابد من معرفتها، فمن هذه الأنواع هجر المعاصي من الكفر والشرك والنفاق وسائر الأعمال السيئة والخصال الذميمة، قال

تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝﴾ [المدثر: ٥]، أي اترك الأصنام واهجرها وتبرأ منها ومن أهلها.

ومن أنواع الهجرة هجر الكفار والعصاة والفساق، وذلك بالابتعاد عنهم، قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝﴾ [المزمل: ١٠].

ومن أعظم أنواع الهجرة هجرة القلوب إلى الله تعالى بإخلاص العبادة له وحده في السر والعلن، حتى لا يقصد المؤمن بقوله وعمله إلا وجه الله، وكذلك الهجرة إلى رسول الله ﷺ باتباعه وتقديم طاعته والعمل بما جاء به.

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في حادث الهجرة: وفيها من الفوائد والعبر ما لا يعرفه أكثر من قرأها. ولعل من أبرز الدروس المستفادة: أن صاحب الدين القويم والعقيدة الصحيحة ينبغي أن لا يساوم فيها ولا يحيد عنها.

ومن العبر ما يتعلق بالصداقة والصحبة، فالإنسان في هذه الدنيا لا يستطيع أن يعيش منفرداً، بل لابد من الصديق يلاقيه ويناجيه ويواسيه، يشاركه مسرته ويشاطره مساءته، وقد تجلت هذه الصداقة والصحبة في تلك الرابطة العميقة، التي ربطت رسول الله ﷺ وأبا بكر رضي الله عنه، والأمة المسلمة اليوم أحوج ما تكون إلى التعاون على البر والتقوى من أهل الخير والصلاح.

ومن العبر والدروس المستفادة من حادث الهجرة أن الله تعالى ينصر من

ينصره، ويعين من يلجأ إليه ويعتصم به ويلوذ بحماه ولا يكون ذلك إلا للمؤمن المخلص الموقن بما عند الله، حين تنقطع به الأسباب وحين يخذله الناس.

إن من محاسن الإسلام أن الله سبحانه شرع الهجرة والجهاد لنشر الدين وقمع الفساد، وقد نصر عبده محمداً ﷺ وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده، وقد هاجر ﷺ بدينه من مكة إلى المدينة المنورة، وقال ﷺ: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»[1].

والهجرة من أعظم مقامات الدين، بها يفارق المسلم الكافر في وطنه وعقيدته وفي أخلاقه، وبها يحصل اعتزاز المسلم بدينه، وبها يحصل الولاء للمؤمنين والبراءة من الكافرين، وقد كانت هجرة النبي ﷺ حدثاً عظيماً فرَّق الله به بين أوليائه وأعدائه، وجعلها مبدأ لإعزاز دينه وميزة تميز بها المهاجرون من أصحاب رسول الله ﷺ على غيرهم، فكان المهاجرون أفضل الصحابة وأسبقهم ذكراً في القرآن الكريم، كما توعد الله من قدر على الهجرة ولم يهاجر فقال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟**

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٩٩)، وأبو داود (رقم ٢٤٧٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٧٤٦٩).

فِيمَ كُنتُمْۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء: ٩٧ – ٩٩]، فهذا وعيد شديد لمن ترك الهجرة بدون عذر، وهذه الآية عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين وهو قادر على الهجرة وليس متمكناً من إقامة الدين.

لقد هاجر ﷺ من مكة إلى المدينة ذلكم المهاجر الميمون الذي أشاد به القرآن الكريم ومن معه، ومن تقبل المهاجرين وواساهم وآواهم، وفي ذلك بقوله ﷻ: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر: ٨ – ٩]، وما هذه الهجرة هجرة ذل أو يأس، كما يقول ذلك المشركون كلا وربي، وأنَّي ليأسٍ أو ذلٍّ أن يخامر قلوباً مؤمنة بالله ومصدقة بوعده؟ ولكنها سياسة حكيمة لبداية النصر والفتح وتمهيد وتدبير للإطاحة بالباطل والقضاء على الطغيان، فما هي إلا سنيات

قليلة حتى عاد ذلكم الذي هاجر من مكة مختفياً مطارداً يدخلها فاتحاً مظفراً، يدخلها من أعلى طريق مكبراً الله في عزة وجلال ووفاء وبر وصلة ونصر ويؤمنهم بقوله: «من دخل الحرم فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن»(1) حتى وصل الكعبة، فجعل يكسر الأصنام المعلقة بها، ويقرأ قول الله سبحانه: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١]، ويؤتي من آذوه من قبل فيقول: «ما تظنون إني فاعل بكم؟» فيقولون: أخ كريم وابن أخ كريم. فيقول: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»(2) هكذا كانت هجرة الرسول ﷺ، كانت لأجل نصرة دين الله وإعلاء كلمة الله، ليس المقصود منها الرفاهية وراحة البدن والتنعم، وهكذا تكون هجرة المؤمنين إلى آخر الزمان.

فالهجرة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام باقية إلى أن تطلع الشمس من مغربها لمن لا يستطيع إظهار دينه في بلد الكفر، وإظهار الدين معناه الجهر به والدعوة إليه وبيان بطلان ما عليه الكفار بمثل هذه السيرة العطرة من سيرة

(١) ذكره الحافظ ابن حجر العسقلاني في المطالب العالية (٤/٤١٨ – ٤٢٠ رقم ٤٣٠٤) وقال: هذا حديث صحيح.

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (٢/١٤١ – ١٤٢)، والكامل لابن عدي (٤/٤٥٤ – ٤٥٦)، وعمل اليوم والليلة لابن السني (رقم ٣١٨).

المصطفى ﷺ، تتجلى دروسها عظيمة عميقة الدلالة دقيقة المغزى.

ومن واجب المسلمين أن يحسنوا الانتفاع بها عن طريق التذكر المفضي إلى العمل بها ﴿ **إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴿٣٧﴾ ﴾ [ق: ٣٧].

لقد جعل أصحاب رسول الله ﷺ الهجرة مبدأ لتاريخهم، فصاروا يؤرخون بها، فعلينا أن نأخذ بالتاريخ الهجري، فأعداء الله حريصون على أن يمسخوا الأمة المسلمة في كل شؤونها حتى في تسمية الشهور والأعوام.

إقامة الحدود

الدين الإسلامي كله محاسن وفضائل ومصالح، فهو دين اليسر والسماحة والسهولة، دين العدالة والمساواة، دين الألفة والمحبة والإخاء، دين جمع مصالح الدين والدنيا، في العبادات والمعاملات والأخلاق مع الله ومع الناس، ومن محاسن ما شرعه إقامة الحدود على المجرمين، التي فيها زجر الناس عن الجرأة على المعاصي، التي نهى الله تعالى عنها.

يقول ابن القيم رحمه الله: العقوبة رحمة للناس، ذلك لأن من أمن العقوبة أساء الأدب، وتصرف تصرفات حمقاء تضر به وبمجتمعه، فبإقامة الحدود حفظ الإسلامُ الدين والنفس والعقل والمال والنسب والعرض، وهذه التي تسمى: الكليات الخمس.

أما حفظ الدين: فقد حرم الإسلام الردة وهي الكفر بعد الإسلام، بأن يتكلم الكفر أو يعتقده، أو يشك شكاً يخرجه عن الإسلام، أو يشرك بالله في القول أو الاعتقاد أو العمل: كدعوة غير الله، أو الذبح لغيره، أو التوكل على غيره في جلب نفع أو دفع ضرر أو حصول نصر أو غير ذلك مما لا يقدر

عليه إلا الله وحده، أو يستحل ما حرم الله أو يحكم بغير ما أنزل الله، أو يترك الصلاة ونحو ذلك من أنواع الردة وهي تحبط الأعمال.

ولحفظ الدين وجب قتل المرتدين عن الإسلام لقوله ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه»(١)، وذلك ليحفظ على الناس دينهم فيفوزوا بالسعادة الأبدية، وفي ذلك ردع بالغ عن تبديل الدين وإضاعته.

وأما حفظ النفوس: فقد حرم الله القتل وسفك الدماء، أي دماء المسلمين وأهل الذمة المعاهدين، وتوعد على ذلك بالوعيد الشديد، قال تعالى: ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا** ﴿٩٣﴾ ﴾ [النساء: ٩٣]، وهو أحد السبع الموبقات والمهلكات، التي قال عنها ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات» وذكر منها: «قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق»(٢)، وقال ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»(٣)، وقال ﷺ: «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة»(٤)، فإذا كان هذا في قتل المعاهد وهو الذي أعطي عهداً من

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٠١٦).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٨٥٧)، ومسلم (رقم ٨٩).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٤٤٠٥)، ومسلم (رقم ٦٥).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٣١٦٦).

اليهود والنصارى، فكيف بقتل المسلم؟!

وأما حفظ العقول: فقد حرم الله كل مسكر وكل مخدر ومفتر: كالخمر والحشيش والأفيون والقات والدخان، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٩٠ ﴾ [المائدة: ٩٠]، والخمر ما خامر العقل أي غطاه بالسكر، سواء كان رطباً أو يابساً أو مأكولاً أو مشروباً، وهي أم الخبائث وجماع الإثم ومفتاح كل شر، فمن لم يتجنبها فقد عصى الله ورسوله، واستحق العذاب بمعصية الله ورسوله، وسميت أم الخبائث لأن شاربها إذا سكر فعل كل جريمة وهو لا يشعر، وحرم الله الخمر لما اشتملت عليه من المفاسد، وتحطيم الشخصية، وإطفاء جوهرة العقل، فالخمر تذهب المال والعقل، ولو لم يكن فيها من المخازي إلا ذهاب العقل ونقص الدين وتشويه السمعة وسقوط العدالة لكفى العاقل أن يجتنبها.

وأما حفظ الإسلام للمال: فذلك لأنه عصب الحياة، فقد حرم السرقة، وهي أخذ المال من حرزه خفية بغير رضا صاحبه، وهي من كبائر الذنوب الموجبة لترتب العقوبة الشنيعة، وهي قطع اليد حفظاً للأموال واحتياطاً لها، فيرتدع السراق إذا علموا أنهم سيقطعون إذا سرقوا، فيأمن

الناس على أموالهم، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ۝٣٨﴾ [المائدة: ٣٨].

وأما حفظ الإسلام الأنساب: فقد حرم الله الزنا ووسائله من النظر المحرم، والكلام المحرم، والسماع المحرم؛ لما في الزنا من انتشار الأمراض، وانتهاك الأعراض، واختلاط الأنساب، فينسب الولد إلى غير أبيه، ويرث من غير أقاربه، فيحصل بذلك من الظلم والفساد ما الله به عليم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ۝٣٢﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٖۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ [النور: ٢].

وأما حفظ الإسلام الأعراض من الوقيعة فيها: فقد حرَّم الله قذف الأبرياء من الزنا، وتوعّد على ذلك بالوعيد الشديد، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٢٣ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٢٤﴾ [النور: ٢٣ – ٢٤].

وكثير من الجهال واقعون في هذا الكلام الفاحش، الذي يوجب عليهم العقوبة في الدنيا والآخرة، ولذا قال ﷺ: «وهل يكب الناس في النار على

وجوههم إلا حصائد ألسنتهم»[1].

وبإقامة هذه الحدود المتقدمة يأمن الناس على دينهم وأنفسهم وعقولهم وأنسابهم وأموالهم وأعراضهم، فيرتدع الناس عن هذه الجرائم ويفوزوا بالسعادة في دينهم ودنياهم وآخرتهم.

وهذا بخلاف القوانين الوضعية التي غيَّرت أحكام الله وحدوده وبدَّلتها بقوانين من وضع البشر الناقصين من كل وجه، حيث جعلت جزاء المجرمين المعتدين على الناس بانتهاك حرماتهم ودمائهم وأموالهم وأعراضهم السجن أو الغرامات المالية، فكانت النتيجة انتشار الجرائم والفوضى وانتهاك الحرمات والاعتداء على الأنفس والأموال والأعراض من غير مبالاة ولا حياء ولا وازع ولا رادع، فصار الناس في تلك الدول المعطلة لحدود الله لا يأمنون على أنفسهم وأموالهم ونسائهم، قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال سبحانه: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٥٠]، فما جاءت به الشريعة الإسلامية من الحدود وتنوعها بحسب الجرائم هو من محاسن الإسلام، وكلها فيه من المنافع والمصالح الخاصة والعامة ما يعرف به الفضلاء حسن الشريعة.

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٦١٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

التعامل الاقتصادي

من محاسن الإسلام وسماحته التعامل الاقتصادي مع الخصم، وأداء حقه والسماحة في التعامل معه وإن أظهر جفوة. يتعامل كثير من الناس وأصحاب المناصب مع من هو دونهم معاملة ازدراء واحتقار، ويحرمونهم حقوقهم وأجورهم، وإذا احتاجوا إلى شيء من أموالهم أخذوها بقوة وسطوة ودونما إذن، وخاصة إذا كان صاحب المال مستأجراً وكان من غير أهل البلاد، أو كان من غير أهل الملة.

والإسلام بمحاسنه الكبيرة والكثيرة رفض أخذ أموال الآخرين بغير حق، سواء كانوا ضعفاء أو أقوياء مسلمين أو غير مسلمين ما لم يكونوا محاربين، وقد كان رسول الله ﷺ يتعامل مع أهل الكتاب مادياً، فيقترض منهم ويؤدي إليهم، وكانوا ربما تعاملوا معه بجفاء أو قسوة أو غلظة، فيقابل ذلك بالسماحة والعفو وحسن الأداء، وكانوا ربما طعنوا في أمانته، وأساؤا الظن في أدائه، وطالبوه بما يحفظ لهم أموالهم من رهونات، فيسلم لهم ما به تهدأ نفوسهم وتطمئن قلوبهم حتى ولو كانت درعه.

وهكذا حافظ الإسلام على أصول التعامل مع الغير، وكفل لهم الحرية الاقتصادية، وحرَّم الاعتداء على أموالهم، وقد ظل المسلمون أولياء لمبادئ دينهم، وكانت الطوائف من غير المسلمين تمارس النشاط الاقتصادي بكل حرية، ويتعامل معهم المسلمون بيعاً وشراء وقروضاً ولا يحدث أحد نفسه أن يسطو على مال اليهودي أو النصراني، لأن الإسلام من محاسنه أنه علمهم ذلك، وقدوتهم رسول الله ﷺ تعامل معهم فأحسن المعاملة، كما نقل ذلك إليهم التاريخ، ومما عرفوه من حسن تعامل الرسول ﷺ ما يلي:

حدث أبو رافع فقال: نزل ضيف بالنبي ﷺ فدعاني فأرسلني إلى رجل من اليهود يبيع الطعام، يقول لك محمد رسول الله ﷺ: «إنه نزل ضيف فبعني كذا وكذا من الدقيق، وأسلفني إلى هلال رجب. فقال اليهودي: والله لا أسلفه ولا أبيعه إلا برهن»(1) وهكذا بهذا الأسلوب الجاف، ومع من؟ مع أكبر مسؤول في الدولة يستطيع بقرار مصادرة كل ما يملك هذا اليهودي، لكنهم أمنوا العقوبة لمعرفتهم بأنه رسول الله، جاء بدين الله فأساؤا الأدب، ويواصل أبو رافع فيقول: فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته. فقل لي بربك: ماذا فعل الرسول ﷺ وهو القائد الأول؟! لم

---

(١) لم أجده.

يغضب ولم يتخذ سلطانه سبباً للبطش والتنكيل ومصادرة مال اليهودي، بل قال عليه الصلاة والسلام: «والله إني لأمين في أهل السماء وأمين في أهل الأرض، ولو أسلفني أو بايعني لأديت إليه، أذهب بدرعي»(١). فقل لي بالله عليك هل رأيت دينا يحفظ حق الناس ولو كانوا لا يدينون به كدين الإسلام؟ وهل رأيت من يقبل مثل هذا العنف في التعامل كما قبله المسلمون لشخص قائدهم ومربيهم ومعلمهم الكتاب والحكمة رسول الله ﷺ، وإذا سألناك أيها المسلم سؤالاً: هل يستطيع تاجر من التجار حينما يطلب منه أحد الموظفين في الدولة شيئاً من المال قرضه أن يرد طلبه، وإذا رد طلبه فماذا سيكون الحال؟ إن الخلل إذا حصل في تعامل المسلمين فما ذنب الإسلام في ذلك؟! قال أبو رافع ونزلت هذه الآية تعزية له ﷺ عن الدنيا: ﴿**وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا**﴾ [طه: ١٣١].

ومن صور محاسن الإسلام في المعاملة مع المخالفين: الوفاء مع المعاهد والمستأمن، وإن كان مخالفاً للدين. في صحيح البخاري - عن جويرية بن قدامة التميمي قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه قلنا: أوصنا يا أمير المؤمنين. قال: أوصيكم بذمة الله، فإنه ذمة نبيكم ورزق

(١) لم أجده.

عيالكم[1]. زاد في رواية: أوصيه بذمة الله وذمة رسوله أن يُوفَى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، وأن لا يُكلَّفوا فوق طاقتهم[2]. ففي الحديث بيان محاسن الإسلام بما يلي:

١ - العدل والإنصاف مع المخالف متى كان معاهداً أو مستأمنا.

٢ - الرفق بهم فيما اتفق به معهم من أموال تدفع مقابل ما يقدم لهم من خدمات، ولا يكلفون فوق طاقتهم.

٣ - لا يطلب منهم القتال مع المسلمين، بل يجب القتال دونهم وحمايتهم.

٤ - وجوب الوفاء بالعهد والنظر في عواقب الأمور.

٥ - ليس في حفظ الحقوق وأدائها تنازل، بل ثبات على الدين ويقام بالواجب، لقد بَيَّن الإسلام صوراً من التسامح والرفق في حياة النبي ﷺ والتعامل مع الآخرين، ولم تكن تلك المعاملات تؤدي إلى تنازل عن شيء من ثوابت الدين، ولا تعني إعطاء الدناءة في الدين.

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣١٦٢).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٣٩٢).

الحرب والسلم

للإسلام محاسنه الكثيرة والمتنوعة في العبادات والمعاملات، وفي الحرب وفي السلم.

ومن صور محاسنه في الحرب ما يلي:

الحرب في الإسلام شرع لإزالة الظلم من الأرض، وفتح الطريق لعبادة الله سبحانه التي خلق الإنسان من أجلها: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ولإزالة الطواغيت الذين يستعبدون الناس ويعبدونهم لأهوائهم حتى يكون الناس كلهم تحت سماحة الإسلام وعدله. فمتى استسلم الناس لحكم الله وأزيل الظلم والاستعباد من الأرض وجب كف القتال وحفظ الأنفس ونشر الأمن والطمأنينة.

ولهذا كانت قواعد القتال في الإسلام تقوم على ما يلي:

١ – الدعوة قبل القتال لقبول الدين أو فتح الطريق للدعوة دون اعتراض لها، حتى يسمعها الناس بجلاء.

٢ – حماية من يقبل الموادعة ممن لا يريد الدخول في الإسلام والدفاع

عنه، والقتال دونه من أي عدو يريده مقابل جزية قليلة يدفعها.

٣ – عدم الإكراه في الدين ما دام المدعو يسمع الدعوة، ويسمح لأهلها بالبلاغ، ويخضع لأصول الاتفاقيات والصلح.

٤ – متى اختار المدعو القتال فإنه لا يقاتل إلا من يحمل السلاح أو من في معناه، ويمنع الإسلام التعرض للعجزة والذين لا يحملون السلاح، ولهذا كانت توجيهات المصطفى ﷺ والخلفاء بعدم قتل النساء والشيوخ والأطفال والأحبار والرهبان المنقطعين في معابدهم.

كما كانت التوجيهات النبوية تمنع منعاً باتاً أي نوع من أنواع الفساد، وكانت تنهى عن قطع الأشجار أو قتل الحيوان لغير ما أكل، وتمنع هدم المنازل أو حرق المصالح العامة أو الدمار الشامل، ومتى أعلن المقاتل استسلامه وجب الكفر عنه، ومتى طلب الصلح أجيب إليه ولو بعد الهزيمة ما دام محاصراً.

ومتى أظهر الفرد قبول الإسلام كف عنه ولو في المعركة ولو علم أنه قتل أيا كان من المسلمين ما دام أنه أعلن قبوله ما يدعى إليه.

ومن محاسن الإسلام عند النصر يقدم الإسلام نموذجاً حياً للتسامح عند النصر على الأعداء، فهو يدعو إلى العفو، ويدعو إلى الرحمة بالمقاتلين

للمسلمين، ومن المعلوم أن المنتصر على خصمه في تاريخ الحروب يفرض عليه شروطه، ويحدثنا التاريخ الغابر والمعاصر أنه يفرض عليه الاستسلام المطلق، فتراق الدماء، وتهدم المدن، وتجرد الجيوش من أسلحتها، ويهلك المنتصر الحرث والنسل للمنهزم.

لكن تاريخ القتال في الإسلام يبين بجلاء أخلاقيات فذة وتسامحاً كبيراً مع الخصم، وذلك بعدم استئصال المسلمين من يحاربهم وعدم تدميرهم لبلادهم، فهذا رسول الله ﷺ يدخل مكة المكرمة التي أخرجه أهلها وأخرجوا أصحابه منها بعد أن ساموهم سوء العذاب، ثم صادروا أموالهم وممتلكاتهم بعد أن عذبوهم، وألبوا عليهم جميع القبائل، وتبعوهم إلى كل بلد خرجوا إليه بقصد تأليب أهله عليهم، لقد دخل رسول الله ﷺ وأصحابه مكة المكرمة، وكان موقف التسامح والعفو ظاهراً، بل وعدم مطالبتهم بما أخذوه منهم من أموال وعقار.

ولقد وقف رسول الله ﷺ موقفاً فيه سماحة الإسلام ومقاصده العظيمة، فبينما هم بين يديه مستسلمين متذكرين معاملتهم السيئة للمسلمين، وما أنزلوه بهم من نكال حتى أخرجوهم من ديارهم وأموالهم ظلماً وعدواناً، متوقعين أن ينزل بهم ما يستحقونه من قصاص، وإذا برسول الله ﷺ يقوم خطيباً قائلاً: «ما تظنون إني فاعل بكم؟» فيقولون بذل

واستسلام: «أخ كريم وابن أخ كريم» فيقول رسول الله ﷺ: «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين اذهبوا فأنتم الطلقاء»(١)، وهكذا عفا عنهم رسول الله ﷺ، وهكذا سار المسلمون في حروبهم وفتوحاتهم للبلدان والمدن عفواً وصلحاً وبناء وتسامحاً، حتى صارت تلك البلدان والمدن الإسلامية باختيار أهلها حبًّا للإسلام وأهله.

(١) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٣١٨)، وابن سعد في طبقاته (١٤١/٢، ١٤٢).

من نواهي الإسلام

من محاسنِ الإسلامِ أنه لا يأمرُ بشيءٍ إلا وفيه صلاحٌ للناسِ في أمورِ دينهِم ودنياهُم، ولا ينهاهمْ عن شيءٍ إلا وفيه ضررٌ وشرٌ للناسِ في دينهِم ودنياهُم، فقد نهى عن الكفرِ والفسوقِ والعصيانِ، فاللهم حببْ إلينا الإيمانَ وزينهُ في قلوبنا، وكَرِّهْ إلينا الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ، واجعلنَا من الراشدينَ.

ونهى عن الكبرِ، قال الله تعالى في الحديث القدسي: «الكبرياءُ ردائِي والعظمةُ إزاري، فمن نازعني واحداً منهما قذفتُه في النارِ»(١).

وفي رواية، قال رسول الله ﷺ: «العز إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عذبته»(٢).

ونهى عن سوءِ الظنِّ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

---

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٤٨)، وأبو داود (رقم ٤٠٩٠)، وابن ماجه (رقم ٤١٧٤).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٢٠).

ونهى عن الحسد، قال ﷺ: «إياكم والحسدَ، فإنَّ الحسدَ يأكلُ الحسناتِ كما تأكلُ النارُ الحطبَ أو قالَ العشبَ»(١).

ونهى عن الإسرافِ والتقتيرِ وأمرَ بالاعتدالِ، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧﴾ [الفرقان: ٦٧].

ونهى عن الهمِّ والحزنِ والعجزِ والكسلِ والجبنِ والبخلِ، وقد استعاذَ النبيُّ ﷺ باللهِ منهنَّ فقالَ ﷺ: «اللهم إني أعوذُ بكَ من الهمِّ والحزنِ والعجزِ والكسلِ والجبنِ والبخلِ وغلبةِ الدَّينِ وقهرِ الرجالِ»(٢).

ونهى عن الغيبةِ، وهي ذكركَ أخاكَ بما يكرَهُ، فقال تعالى: ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ﴾ [الحجرات: ١٢].

ونهى عن النميمةِ وهي نقلُ الكلامِ بينَ الناسِ على جهةِ الإفساد بينهُمْ، قالَ ﷺ: «لا يدخلُ الجنةَ نمامٌ»(٣).

ونهى عن السخريةِ بالناسِ، قال تعالى: ﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾ [الحجرات: ١١].

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٢٩٠٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (رقم ٦٦٠٨)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (رقم ٢١٩٧).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٨٩٣).

(٣) أخرجه البخاري بلفظ: «لا يدخل الجنة قتات» (رقم ٦٠٥٦)، ومسلم (رقم ١٠٥).

ونهى عن اللعنِ، قالَ ﷺ: «ليسَ المؤمنُ بالطعَّانِ ولا باللعَّانِ ولا بالفاحشِ البذيءِ»[1].

ونهى عن التخاطبِ بالألقابِ السيئةِ، قالَ تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

ونهى عن الكلامِ فيمَا لا يعني، قالَ ﷺ: «مِنْ حُسنِ إسلامِ المرءِ تركُهُ ما لا يعنيهِ»[2].

ونهى عن كتمانِ الشهادةِ، فقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

ونهى عن شهادةِ الزورِ، قالَ تعالى: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠].

ونهى عن الغضبِ، قالَ رجلٌ لرسولِ اللهِ ﷺ أوصني، قالَ: «لا تغضبْ»[3] ثلاث مرات، ولما رأى النبيُّ ﷺ رجلاً قد أحمرَّ وجههُ

---

(١) أخرجه أحمد (١/٤٠٥)، والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٣١٢)، والحاكم (١٢/١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٥٣٨١).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٢٣١٧)، وابن ماجه (رقم ٣٩٧٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٥٩١١).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٦١١٦).

وانتفختْ أوداجُهُ قالَ: «إني لأعلمُ كلمةً لو قالها لذهبَ عنهُ ما كانَ يجدْ، لو قالَ أعوذُ باللهِ منَ الشيطانِ الرجيمِ»(١).

ونهى عن المنِّ بالصدقةِ، قالَ ﷺ: «لا يدخلُ الجنةَ منانٌ»(٢)، قالَ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾[البقرة: ٢٦٤].

ونهى عن كثرةِ الجدالِ والمزاحِ البذيءِ الذي يجرُّ إلى الشرِّ والتطاولِ، قالَ ﷺ: «أنا زعيمٌ ببيتٍ في ربضِ الجنةِ لمن تركَ المراءَ وإن كانَ محقاً، وببيتٍ في وسطِ الجنةِ لمنْ تركَ الكذبَ وإنْ كانَ مازحاً، وببيتٍ في أعلى الجنةِ لمن حسَّن خلقه»(٣).

ونهى عن تركِ الشكرِ لمن أسدى إليكَ معروفاً قالَ ﷺ: «من صنعَ إليكمْ معروفاً فكافئوهُ، فإنْ لمْ تجدوا ما تكافئونَه بهِ فادعو لهُ، حتى تروا أنكمْ قد كافأتموهُ»(٤).

ونهى عن انتسابِ المرءِ إلى غيرِ أبيهِ، قال ﷺ: «من ادَّعى إلى غيرِ

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٨٢)، ومسلم (رقم ٢٦١٠).

(٢) صححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٧٦٧٦).

(٣) أخرجه أبو داود (رقم ٤٨٠٠)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (رقم ١٤٦٤).

(٤) أخرجه أبو داود (رقم ١٦٧٢)، والنسائي (رقم ٢٥٦٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٦٠٢١).

أبيهِ فعليه لعنةُ اللهِ والملائكةِ والناسِ أجمعينَ، لا يقبلُ اللهُ منه صرفاً ولا عدلاً»(١)، وقال ﷺ: «من ادَّعى إلى غيرِ أبيهِ وهو يعلمُ أنه غيرُ أبيهِ فالجنةُ عليه حرامٌ»(٢).

ونهى عن تشبهِ الرجالِ بالنساءِ وعن تشبهِ النساءِ بالرجالِ، فقالَ ﷺ: «لعنَ رسولُ اللهِ المتشبهين من الرجالِ بالنساءِ والمتشبهاتِ من النساءِ بالرجالِ»(٣).

ونهى عن ترويجِ السلعةِ بالحلفِ الكاذبِ، قال ﷺ: «الحلفُ منفقةٌ للسلعةِ ممحقةٌ للبركة»(٤).

ونهى عن نجشِ الكيلِ والوزنِ، قال تعالى: ﴿ **وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝** ﴾ [المطففين: ١ – ٥].

ونهى عن خيانةِ أحدِ الشريكين لشريكهِ، قال ﷺ في الحديث

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٣٧٠).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٣٢٦، ٤٣٢٧)، ومسلم (رقم ٦٣).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٥٨٨٥).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٢٠٨٧)، ومسلم (رقم ١٦٠٦).

القدسي: «أنا ثالث الشريكين ما لمْ يخنْ أحدُهما صاحبَه، فإذا خانه خرجت من بينهما»[(١)].

ونهى عن تركِ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ، قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ﴾ [المائدة: ٧٨ – ٧٩].

ونهى عن أذيةِ الجارِ، قال ﷺ: «والله لا يؤمن» ثلاث مرات. قيل: من يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه»[(٢)] أي شروره.

ونهى عن التدابرِ والتحاسدِ والتهاجرِ، قال ﷺ: «لا تباغضُوا ولا تحاسدُوا ولا تدابرُوا ولا تقاطعُوا وكونوا عبادَ اللهِ إخواناً ولا يحلُّ لمسلمٍ أن يهجرَ أخاهُ فوقَ ثلاثِ ليالٍ وأفضلُهما من يبدأُ بالسلامِ»[(٣)].

أما الشحناءُ بينَ مسلمٍ ومسلمٍ، فهي حائلٌ بينهما وبينَ المغفرةِ ومانعٌ لهما من دخولِ الجنةِ إلا أن يقعَ صلحٌ بينهمَا، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسولَ اللهِ ﷺ قال: «تفتحُ أبوابُ الجنةِ يومَ الاثنينِ والخميسِ فيغفرُ لكلِّ عبدٍ لا

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٣٣٨٣).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٠١٦).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٦٠٦٥)، ومسلم (رقم ٢٥٥٩).

يشركُ باللهِ شيئاً، إلا رجلاً كانت بينَهُ وبين أخيهِ شحناءُ، فيُقالُ: أنظرا هذينِ حتى يصطلحَا»(١).

ونهى عن خذلانِ المظلومِ مع القدرةِ على نصرهِ، قال ﷺ: «انصرْ أخاكَ ظالماً أو مظلوماً»، قال: أنصرهُ مظلوماً فكيف أنصرهُ ظالماً؟ قالَ: «تردُّهُ عنِ الظلمِ»(٢).

ونهى عن الإكثارِ منِ الطعامِ بحيثُ يضرُّ صاحبَه، قال ﷺ: «ما ملأ آدمي وعاءً شرًّا من بطنه، بحسبِ ابنِ آدمَ أكلات يقمن صلبَهُ، فإنْ كانَ محالة، فثلثٌ لطعامِهِ وثلثٌ لشرابهِ وثلثٌ لنفَسِهِ»(٣).

ونهى عن قتلِ النفسِ التي حرمَ اللهُ قتلَها، قال تعالى: ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا** ﴿٩٣﴾ ﴾ [النساء: ٩٣].

ونهى عن ترويعِ الناسِ بالسلاحِ وعن الغشِّ، قال ﷺ: «من حملَ

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٦٥).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٤٤٤)، ومسلم بمعناه (رقم ٢٥٨٤).

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٢٣٨٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٥٦٧٤).

علينَا السلاحَ فليسَ منَّا ومن غشنَا فليسَ منَّا»[1].

ونهى عن قطيعةِ الرحمِ، قال ﷺ: «لا يدخلُ الجنةَ قاطعٌ»[2] أي قاطعُ رحمٍ.

ونهى عن تأخيرِ أجرةِ الأجيرِ أو منعِهِ منهَا بعدَ فراغِهِ منْ عملِهِ، قال ﷺ: «أعطوا الأجيرَ أجرَهُ قبلَ أن يجفَّ عرقُهُ»[3].

ونهى عن سبِّ الأمواتِ، قال ﷺ: «اذكروا محاسنِ موتاكُم، وكفُّوا عن مساويهِم»[4].

ونهى عن تتبعِ عوراتِ الناسِ، قال ﷺ: «يا معشرَ من آمنَ بلسانِه ولما يدخلِ الإيمانُ قلبَهُ لا تتبعوا عوراتِ المسلمينَ فإنَّه من يتبعْ عورةَ أخيهِ يفضحْه اللهُ ولو في قعرِ بيتهِ»[5].

---

(١) أخرج البخاري الجزء الأول (رقم ٦٨٧٤، ٧٠٧٠، ٧٠٧١)، ومسلم (رقم ٩٨، ١٠٠) واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٩٨٤)، ومسلم (رقم ٢٥٥٦).

(٣) أخرجه ابن ماجه (رقم ٢٤٤٣)، وأبو يعلى (رقم ٦٦٨٢)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (رقم ١٠٥٥).

(٤) أخرجه أبو داود (رقم ٤٩٠٠)، والترمذي (رقم ١٠١٩) وقال: غريب. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (رقم ٧٣٩).

(٥) أخرجه الترمذي (رقم ٢٠٣٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٧٩٨٥).

ونهى عن المسكراتِ والمخدراتِ لأنها تضرُّ بالصحَّةِ، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩].

ونهى عن إخلافِ الوعدِ وهي صفةٌ من صفاتِ المنافقينَ، قال ﷺ: «آيةُ المنافقِ ثلاثٌ... وذكر منها... وإذا وعدَ أخلفَ»(١).

ونهى عن الرشوةِ، قال ﷺ: «لعنَ اللهُ الراشيَ والمرتشيَ والرائشَ لهُ»(٢).

ونهى عن الشركِ باللهِ والسحرِ وقتلِ النفسِ التي حرمَ اللهُ إلاَّ بالحقِّ، وأكلِ الربَا وأكلِ مالِ اليتيمِ، ونهى عن التولي يومَ الزحفِ، ونهى عن قذفِ المحصناتِ، قال ﷺ فيما رواهُ عنه أبو هريرة رضي الله عنه: «اجتنبوا السبعَ الموبقاتِ»، قالوا: يا رسولَ اللهِ وما هنَّ؟ قال: «الشركُ باللهِ والسحرُ وقتلُ النفسِ التي حرمَ اللهُ إلا بالحقِّ وأكلُ الربا وأكلُ مالِ اليتيمِ والتولي يومَ الزحفِ وقذفُ المحصناتِ المؤمناتِ الغافلاتِ»(٣).

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٣)، ومسلم (رقم ٥٩).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٩)، وأبو داود (رقم ٣٥٨٠)، والترمذي (رقم ١٣٣٧)، والحاكم (٤، ١٠٢، ١٠٣).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٢٧٦٦)، ومسلم (رقم ٨٩).

التحذير من التكفير وبيان آثار ذلك

من محاسن الإسلام التحذير من التكفير، فالتكفير مزلق خطير، فلا يجوز الحكم على المسلم بالتكفير إلا ببرهان واضح ودليل ساطع، فالحكم على المسلم بالكفر حكم خطير له آثاره العظيمة، فقد ثبت في الحديث الصحيح عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر فقد باء به أحدهما»[(١)]، وفي رواية عن عبد الله بن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «أيما رجل قال لأخيه: يا كافر فقد باء بها أحدهما»[(٢)].

وعن ثابت بن الضحاك ﷺ عن النبي ﷺ قال: «من حلف بملة غير الإسلام كاذباً فهو كما قال، ومن قتل نفسه بشيء عذب به في نار جهنم، ولعن المؤمن كقتله ومن رمى مؤمناً بكفر فهو كقتله»[(٣)].

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦١٠٣).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦١٠٤)، ومسلم (رقم ٦٠).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٦١٠٥)، ومسلم مختصراً (رقم ١١٠).

وعن أبي ذر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من دعا رجلاً بالكفر أو قال: عدو الله، وليس كذلك إلا حار عليه»[(1)].

قال ابن دقيق العيد رحمه الله: وهذا وعيد عظيم لمن كفَّر أحداً من المسلمين، وليس هو كذلك، وهي ورطة عظيمة وقع فيها خلق من العلماء اختلفوا في العقائد، وحكموا بكفر بعضهم بعضاً. فهذا الأحاديث وأمثالها فيها التحذير من التكفير والزجر عنه، لأنه حكم شرعي مضبوط بضوابط معلومة من نصوص الكتاب والسنة، فلا يصار إليه بمجرد الهوى والجهل، فإن ادعى دعوى وأطلق فيها عنان الجهل مخالفاً لجميع أهل العلم، ثم مع مخالفتهم يريد أن يكفر ويضلل من لم يوافقه عليها، فهذا من أعظم ما يفعله كل جهول.

قال ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية، ولأن أصل الإيمان والكفر محلهما القلب، ولا يطلع على ما في القلوب إلا الله عز وجل، يقول سبحانه: ﴿ **مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ** (١٠٦) ﴾ [النحل: ١٠٦].

فالكافر هو من شرح صدراً بالكفر فلابد من شرح الصدر بالكفر،

(١) أخرجه مسلم (رقم ٦١).

وطمأنينة القلب به، وسكون النفس إليه، فلا اعتبار بما يقع من طوارق عقائد الشر، لاسيما مع الجهل بمخالفتها لطريقة الإسلام، ولا اعتبار بصدور فعل كفري لم يرد به فاعله الخروج عن الإسلام إلى ملة الكفر، ولا اعتبار بلفظ تلفظ به المسلم يدل على الكفر وهو لا يعتقد معناه.

فعن أسامة بن زيد ﵄ قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فصبحنا الحرقات من جهينة فأدركت رجلاً فقال: لا إله إلا الله. فطعنته فوقع في نفسي من ذلك، فذكرته للنبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «أقال لا إله إلا الله وقتلته؟» قال: قلت يارسول الله إنما قالها خوفاً من السلاح قال: «أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟!»، فما زال يكررها عليَّ حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ[1].

ولعظم تكفير المسلم ولو كان مذنباً وعاصياً عده العلماء من البغي، ولقد بوَّب الإمام أبو داود ﵀ في السنن في كتاب الأدب باباً أسماه باب النهي عن البغي، وأورد فيه عن أبي هريرة ﵁ أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كان رجلان في بني إسرائيل متواخيين فكان أحدهما يذنب والآخر مجتهد في العبادة، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب،

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٢٦٩، ٦٨٧٢)، ومسلم (رقم ٩٦).

فيقول: أقصر فوجده يوماً على ذنب، فقال له: أقصر، فقال خلني وربي، أبعثت عليَّ رقيباً. فقال: والله لا يغفر الله لك، أو لا يدخلك الله الجنة. فقبض أرواحهما، فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهذا المجتهد: أكنت بي عالماً، أو كنت على ما في يدي قادراً؟ وقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي. وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار»[1] حسنه شارح الطحاوية.

ومما يوضح خطورة التكفير العلم بآثاره الخطيرة، فمن تلك الآثار:

١ – عدم حل زوجته له وتحريم بقائها وبقاء أولادها تحت سلطانه.

٢ – وجوب محاكمته لتنفيذ حد الردة عليه بعد إقامة الحجة والاستتابة.

٣ – أنه إذا مات لا تجري عليه أحكام المسلمين، فلا يُغسل ولا يصلى عليه، ولا يدفن في مقابر المسلمين، ولا يورث.

إن الناظر في الغلاة والفرق الغالية يجدهم على تكرر العصور تربط بينهم أوصاف إجمالية وتفصيلية:

الوصف الأول عدم فهم القرآن الكريم، يقول ﷺ: «يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم»[2] أي أنهم يأخذون أنفسهم بقراءة القرآن وإقرائه، وهم لا يتفقهون فيه، ولا يعرفون مقاصده.

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٤٩٠١).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٠٥٨)، ومسلم (رقم ١٠٦٤).

قال الإمام النووي: «المراد أنهم ليس لهم خط إلا مروره على لسانهم (هكذا)، لا يصل إلى حلوقهم فضلاً عن أن يصل إلى قلوبهم، لأن المطلوب تعقله وتدبره بوقوعه في القلب.

وعدم فهمهم للقرآن يجعلهم يأخذون آيات نزلت في الكفار فيحملونها على المسلمين، فقد قال عبد الله بن عمر رضي الله عنه في الخوارج: «إنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار، فجعلوها على المؤمنين»(١).

ومن مظاهر عدم فهمهم للقرآن اتباع متشابهه استشهاد الخوارج على إبطال التحكيم بقول الله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[الأنعام: ٥٧]، و[يوسف: ٦٧] فالمعنى المأخوذ من الآية صحيح في الجملة، وأما على التفصيل فيحتاج إلى بيان، ولذلك رد عليهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: (كلمة حق أريد بها باطل).

قال الحافظ: وكان أول كلمة خرجوا بها قولهم: لا حكم إلا لله. انتزعوها من القرآن، وحملوها على غير محملها، ويؤدي بهم هذا القصور في فهم القرآن إلى الخروج عن السنة، وجعل ما ليس بسيئة سيئة، وما ليس

(١) أخرجه البخاري معلقاً في كتاب استتابة المرتدين، باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم (ص ١٣٢٢) طبعة بيت الأفكار الدولية.

بحسنة حسنة، فهم إنما يصدقون الرسول فيما بلغه من القرآن دون ما شرعه من السنة، التي تخالف بزعمهم ظاهر القرآن، وما كان اعتراض الرجل على قسمة النبي ﷺ إلا من هذا القبيل، فقد خرج عن السنة وجعل ما ليس بسيئة سيئة، وهذا القدر «أي تحسين القبيح وتقبيح الحسن».

قد يقع فيه بعض أهل العلم خطأ في بعض المسائل، لكن أهل البدع يخالفون السنة الظاهرة المعلومة.

الوصف الثاني: التكفير واستحلال الدماء، فقد قال ﷺ: «يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان»[1]، وهذا بناءً على تكفير المسلمين الذي يكاد أن يكون وصفاً مشتركاً بين طوائف الابتداع والغلو.

قال شيخ الإسلام: الفرق الثاني في الخوارج وأهل البدع أنهم يكفرون بالذنب والسيئات، ويترتب على تكفيرهم بالذنوب استحلال دماء المسلمين وأموالهم، وأن دار الإسلام دار كفر ودارهم هي دار الإيمان، وكذلك يقول جمهور الرافضة وجمهور المعتزلة والجهمية، وطائفة من غلاة المنتسبة إلى أهل الحديث والفقه ومتكلميهم. واستحلالهم دماء المسلمين نتيجة لغلوهم وابتداعهم، إذ يرون من ليس على طريقتهم خارجاً عن الدين حلال الدم،

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧٤٣٢)، ومسلم (رقم ١٠٦٤).

وهذا شأن صاحب كل بدعة، فقد قال أبو قلابة: (ما ابتدع رجل بدعةً إلا استحل السيف)، وكان أيوب السختياني يُسمي أصحاب البدع خوارج، ويقول: إن الخوارج اختلفوا في الاسم، واجتمعوا على السيف، فهم على هذا يجمعون بين الجهل بدين الله وظلم عباد الله، وهاتان طامتان عظيمتان.

الكرم

إن من محاسن الإسلام أنه يدعو إلى مكارم الأخلاق، وينهى عن سفاسفها، ومن مكارم الأخلاق التي دعا إليها القرآن وحث عليها سيد الأنام محمد بن عبد الله عليه وعلى آله وصحبه أتم الصلاة والسلام أنه دعا إلى الكرم، فالكرم خصلة محمودة تميز بها المسلم الحق، والمتصف بها محبوب عند الله وعند الناس، وذلك لما في هذه الخصلة من آثار حميدة على الكريم في الدنيا والآخرة.

إن الكرم هو الإعطاء بيسر وسهولة دون عسر وتكلف، والكريم هو الإنسان الذي يوصل النفع بلا عوض إلا من الله سبحانه، فالكرم إفادة لما ينبغي دون عوض، وليس من الكرم هبة المال جلباً لنفع أو خلاصاً من ذم.

ويندرج الكرم في الإسلام تحت قائمة البر والتقوى في باب المشاركة والمعاونة والترابط والرأفة والرحمة والعطف والشعور بأن المسلم أخو المسلم، كما قال ﷺ: «مثل المسلمين في توادهم وتعاطفهم وترابطهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى

والسهر»(١).

ولن يتمكن الإنسان من إكرام الآخرين وهو معدم، ففاقد الشيء لا يعطيه، فلابد للمسلم من السعي والكسب، لتكون لديه القدرة على الإكرام والصدقة، ولعل في هذا حثاً على العمل وإبطالاً للكسل، ولا يمكن أن تتحقق صفة أخلاقية مثل الكرم إلا إذا أدى المسلم ما عليه من فريضة الزكاة، فكيف نسمي شخصاً كريماً وهو لم يؤد فريضة الزكاة، التي هي أولى بالرعاية والسداد.

وقد جاء من وصية أبي بكر لعمر رضي الله عنهما: أنه لا تقبل نافلة حتى تؤدى فريضة. ويندرج تحت الكرم المبادرة إلى الخير، لقوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ [البقرة: ١٤٨]، وقوله عز وجل: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، فالمبادرة إلى الخيرات ليس لها جزاء إلا الجنة.

وعن عقبة بن الحارث رضي الله عنه قال: صليت وراء النبي ﷺ بالمدينة العصر فسلم، ثم قام مسرعاً فتخطى رقاب الناس إلى بعض حجر نسائه، ففزع الناس من سرعته، فخرج عليهم فرأى أنهم قد عجبوا من سرعته،

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٠١١)، ومسلم (رقم ٢٥٨٦).

فقال: «ذكرت شيئاً من تبْرٍ عندنا فكرهت أن يحبسني فأمرت بقسمته»[1].

هذا هو دين الحق يخشى النبي ﷺ وهو المصطفى والمغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، يخشى أن يحبسه عن الجنة وعن رضوان الله تعالى شيء من التبر، فلم يبت حتى وزعه على المستحقين، فهذا هو الكرم بعينه، بل إنه أسمى ألوان الكرم، لما فيه من خشية الله تعالى والمبادرة إلى ذلك.

لقد عرف الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أن الجود بالنفس أسمى ألوان الجود، فلم يبخلوا بأنفسهم لنشر دين الله، كما لم يبخلوا بأموالهم، وقد قال رجل يوم موقعة أحد للنبي ﷺ: أرأيت إن قُتلت فأين أنا؟ قال: «في الجنة» فألقى تمرات كن في يده، ثم قاتل حتى قُتل[2].

إن الإسلام حين حث على الصدقة أراد اقتلاع البخل والشح عن النفس، فقد قال رسول الله ﷺ: «شر ما في المرء شح هالع وجبن خالع»[3].

فالكرم فضيلة سامية والبخل رذيلة، وعلى المسلم أن يبادر بالكرم، ويتخلى عن البخل، لأن العمر غير مضمون، فقد جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أي الصدقة أعظم أجراً؟ قال: «أن تصدق وأنت صحيح

(١) أخرجه البخاري (رقم ٨٥١).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٠٤٦)، ومسلم (رقم ١٨٩٩).

(٣) أخرجه أبو داود (رقم ٢٥١١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٣٧٠٩).

شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا. ولفلان كذا. وقد كان لفلان»[1]، فلا فلاح لمن لم يبادر إلى الخير، ولا نجاح لمن قدر على صدقة أو كرم فلم يسارع إلى ذلك، قال تعالى: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[الحج: ٧٧].

ومن محاسن الإسلام أنه يعلم المسلم أن يكون كريماً مع أولاده بقدر استطاعته، فإن كل نفقة لها جزاء من الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥ﴾[سبأ: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾[الطلاق: ٧].

وفي الحديث القدسي عن أبي هريرة ﵁ يقول الله تعالى: «أَنفق أُنفق عليك»[2] وفي الحديث حث على الإنفاق على الأولاد، وإشارة إلى أنه من خير ألوان الإنفاق، يقول ﷺ: «أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله، دينار ينفقه على دابته في سبيل الله، ودينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله»[3].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٤١٩)، ومسلم (رقم ١٠٣٢).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٦٨٤)، ومسلم (رقم ٩٩٣).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٩٩٤)، والترمذي (رقم ١٩٦٦).

والإنفاق على الأهل له ثوابه الطيب مثل الصدقة قال ﷺ: «إذا أنفق الرجل على أهله نفقة يحتسبها فهي له صدقة»[1] كما أن في ترك الإنفاق على الأهل إثمًا كبيرًا، «كفى بالمرء إثماً أنه يضيع من يقوت»[2]، وهكذا فالبخل على الزوجة والأولاد أمر يذمه الإسلام، لما يترتب عليه من المفاسد.

الكرم محمود والشح مذموم. قال ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً. ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً»[3]، ومن فضيلة الكرم أنه يجعل صاحبه ذا يد عليا، فالمعطي أفضل من الآخذ، وعلى الآخذ أن يستعفف بقدر ما يستطيع، قال ﷺ: «اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله»[4].

وكان النبي ﷺ قدوة في باب الكرم والسخاء، فعن جابر رضي الله عنه: ما

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٥)، ومسلم (رقم ١٠٠٢).

(٢) أخرجه أحمد (١٦٠/٢)، وأبو داود (رقم ١٦٩٢)، والحاكم (٤١٥/١)، وصححه ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٤٤٨١).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ١٤٤٢)، ومسلم (رقم ١٠١٠).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ١٤٢٧)، ومسلم (رقم ١٠٣٤) مختصراً.

سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال: لا[1]. ويقول ﷺ: «اتقوا النار ولو بشق تمرة»[2]، وكان بيت النبي ﷺ خير مثال للزهد والتقشف مع الاتصاف بالكرم، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما شبع آل محمد ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض[3]. وكان ﷺ يدعو ربه بذلك حيث قال: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً»[4].

والقوت هو ما يسد الرمق دون تبذير ولا إسراف، ولو أخذ العالم بهذه المبادئ الرشيدة التي حث عليها الإسلام لاختفت كثير من المجاعات، هذا هو منهج الإسلام كرم في العسر، وكرم في اليسر، وكرم في كل شيء، وثمرة ذلك مجتمع فاضل كريم.

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٠٣٤)، ومسلم (رقم ٢٣١١).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٤١٧)، ومسلم (رقم ١٠١٦).
(٣) أخرجه البخاري (رقم ٥٤٢٣)، ومسلم (رقم ٢٩٧٠).
(٤) أخرجه البخاري (رقم ٦٤٦٠)، ومسلم (رقم ١٠٥٥).

فهرس الموضوعات

المحتوى	الصفحة

المحتوى	الصفحة

المحتوى	الصفحة

المحتوى	الصفحة

المحتوى	الصفحة

المحتوى	الصفحة

* * *